شيخ الإسلام
أحمد بن عبد الحليم بن تيمية

قاعدة في المحبة

تحقيق وتعليق
الدكتور محمد رشاد سالم

مكتبة التراث الإسلامي
١٤ صفية زغلول القاهرة ت ٣٥٥٣٨٢٨



شيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم بن تيمية

تحقيق وتعليق

الدكتور محمد رشاد سالم

مكتبة التراث الإسلامي

١٤ صفية زغلول القاهرة ت ٣٥٥٣٨٣٨

مكتبة التراث الإسلامي
القاهرة
عبد الله حجاج
ت ٣٥٥٣٨٣٨


قاعدة في المحبة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً طيباً مباركاً فيه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمد عبده ورسوله ، ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، رأيت فى أثناء وجودى فى دمشق عام ١٩٧٥ / ١٩٥٥ وأثناء بحثى عن مخطوطات ابن تيمية فى المكتبة الظاهرية رسالة بعنوان « قاعدة المحبة » فصورتها واحتفظت بها فى مكتبى .

وكانت هذه القاعدة قد صورت قبل ذلك ضمن مصورات المخطوطات بالجامعة العربية وذكرت فى فهرست هذه المخطوطات[1] .

وهذه المخطوطة نسخة وحيدة نادرة لا توجد منها نسخة أخرى ولم يسبق نشرها من قبل ، وهى نسخة كثيرة الأخطاء والتحريف ، ولعل هذا كان من أسباب إحجام أكثر العلماء عن تحقيقها ونشرها .

والمخطوطه رقمها فى المكتبة الظاهرية ١٢٩ تصوف ، وهى تقع ضمن مجموعة فى ٥٧ ورقة من ص ١٤٥ إلى ص ١٩٩ ، ومسطرة صفحاتها حوالى ٢٣ سطرا وفى كل سطر حوالى ١٣ كلمة وخطها نسخ معتاد قليل النقط وهو خط واضح ولكن الناسخ ــ كما قدمت ــ قليل العلم كثير الخطأ والتحريف .

والصفحة الأولى من المصورة كتب فى أعلاها فى وسط الصفحة : « فصل فى الحب والبغض لأبى العباس أحمد بن تيمية » وكتب فى أعلى الصفحة جهة اليسار كلمة « الأول » وتحتها رقم الصفحة ١٤٥ .

وتبدأ المخطوطة بالعبارات التالية : « بسم الله الرحمن الرحيم على الله توكلى ، الحمد لله نحمده ونستعينه .. إلخ » وبعد ذلك : « أما بعد فهذه قاعدة عظيمة فى

---

(١) ص ٥٣ .

المحبة وما يتعلق بها من جمع الإمام العلامة ... بن تيمية رضى الله عنه وأرضاه . قال رضى الله عنه : فصل فى الحب والبغض والمحمود من ذلك والمذموم وأصل كل فعل وحركة فى العالم من الحب والإرادة ... إلخ » .

وتنتهى الصفحة الأخيرة فى المخطوطة بالعبارات التالية : « ... وأنها دالة على الإله الحق من هذا الوجه وأنه لو كان فيهما آله إلا الله لفسدتا ، وهو غير الوجه الذى دلت منه على ربوبيته . وقد بسطنا الكلام على ذلك فى مواضع متعددة إذ هو أجل العلم الإلهى وأشرفه ، وإنما كان المقصود هنا التنبيه على أن الإرادة نوعان كالعلم ، والله أعلم » .

وليس فى المصورة عندى ذكر للناسخ أو تاريخ النسخ ، ولكن جاء فى فهرس الجامعة العربية أن تاريخ النسخ هو القرن التاسع وأن مقياس صفحات المخطوطة هو ٢٨ × ١٨ سم وأن عدد أوراق المخطوطة ٥٧ ورقة .

وذكر ابن عبد الهادى القاعدة فى « العقود الدرية » فقال[١] : « وقاعدة كبيرة فى محبة الله للعبد ومحبة العبد لله » وهناك قاعدة أخرى هى : « وقاعدة فى وجوب تقديم محبة الله تعالى ورسوله على النفس والمال والأهل »[٢] وعنده أيضا « وقاعدة فى أمراض القلوب وشفائها »[٣] .

ونحن نعلم أن ابن تيمية له قاعدة « أمراض القلوب وشفاؤها »[٣] وفصل « فى مرض القلوب وشفائها » أيضاً[٤] وهذا غير رسالته « التحفة العراقية فى الأعمال القلبية »[٥] . وهذه جميعاً غير قاعدتنا فى المحبة .

محمد رشاد محمد رفيق سالم

---

(١) ص ٣٩ .
(٢) ص ٦٦ .
(٣) ص ٤١ .
(١) ص ٢١ .
(٢) ص ٢٤ .

فصل فى الحب والبغض

بسم الله الرحمن الرحيم ، على الله توكلى .

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ونشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وحبيبه وخليله ، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

أما بعد ، فهذه قاعدة عظيمة فى المحبة وما يتعلق بها ، من جمع الإمام العلاَّمة ، شيخ الإسلام ، بركة الأنام ، بقية السلف الكرام ، أبى العباس أحمد ، بن الشيخ شهاب الدين عبد الحليم ، بن الشيخ مجد الدين أبى البركات عبد السلام ، ابن تيميّة ، رضى الله عنه وأرضاه .

الحب والإرادة أصل كل فعل وحركة فى العالم والبغض والكراهة أصل كل ترك فيه

قال رضى الله عنه : فصل فى الحب والبغض ، والمحمود من ذلك والمذموم ، وأصل كل فعل وحركة فى العالم من الحب والإرادة ، فهو أصل كل فعل ومبدؤه . كما أن البغض والكراهة مانع وصاد [1] لكل ما انعقد بسببه ومادته ، فهو أصل كل ترك ، إذا فُسِّر الترك بالأمر الوجودى [2] ، كما يفسّره بذلك أكثر أهل النظر .

وا ! إذا عُنى بالترك مجرد عدم الفعل ، فعدم الفعل تارة يكون لعدم مقتضيه من المحبة والإرادة ولوازمهما ، وقد يكون لوجود مانعه من البغض والكراهة وغيرهما .

---

(١) فى الأصل : وضاد .

(٢) فى الأصل : الوجود .

فأما وجود الفعل فلا يكون إلا عن محبة وإرادة ، حتى دفعه للأمور التى يكرهها ويبغضها ، هو لما فى ذلك من المحبوب أو اللذة يجدها بالدفع ، فيقال : شفى صدره وقلبه ، والشفاء والعافية بمحبوب .

والمحبة والإرادة تكون [١] إما بواسطة وإما بغير واسطة ، مثل فعله للأشياء التى يكرهها ، كشرب الدواء والمكروه ، وفعل الأشياء المخالفة لهواه وصبره ، ونحو ذلك .

فإن هذه الأمور ، وإن كانت مكروهة من بعض الوجوه ، فإنما يفعل أيضا لمحبة وإرادة ، وإن لم تكن المحبة لنفسها ، بل المحبة لملازمها ، فإنه يحب العافية والصحة المستلزمة لإرادة شرب الدواء ، ويحب رحمة الله ونجاته من عذابه المستلزم لإرادة ترك ما يهواه ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ [سورة النازعات : ٤٠] ، فلا يترك الحى ما / يحبه ويهواه إلا لما يحبه ويهواه ، لكن يترك أضعفهما محبة لأقواهما محبة ، كما يفعل ما يكرهه لما محبته أقوى من كراهة ذلك ، وكما يترك ما يحبه لما كراهته أقوى من محبة ذلك .

ظ ١٤٥

ولهذا كانت المحبة والإرادة أصلا للبغض والكراهة وعلة لها ، ولازما مستلزما [٢] لها من غير علة .

وفعل البغض فى العالم إنما هو لمنافاة المحبوب ، ولولا وجود المحبوب لم يكن البغض ، بخلاف الحب للشئ ، فإنه قد يكون لنفسه ، لا لأجل منافاته للبغض [٣] ، وبغض الإنسان وغضبه مما يضاد وجود محبوبه ، ومانع ومستلزم لا يكره عليه ، ونجد قوة البغض للنافى أشد وأحوط .

---

(١) فى الأصل : يكون .

(٢) كلمة « مستلزما » ليست واضحة فى الأصل المخطوط ، وكذا استظهرتها .

(٣) فى الأصل : للبغيض .

ولهذا كان رأس الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله ، وكان من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان .

فالمحبة والإرادة أصل فى وجود البغض والكراهة ، والأصل فى زوال البغيض المكروه ، فلا يوجد البغض إلا لمحبة ، ولا يزول البغيض إلا لمحبة .

فالمحبة أصل كل أمر موجود ، وأصل دفع كل ما يطلب الوجود ، ودفع ما يطلب الوجود أمر موجود ، لكنه مانع من وجود ضده ، فهو أصل كل موجود من بغيض ومانع ولوازمهما .

وهذا القدر الذى ذكرناه من [أن] (١) المحبة والإرادة أصل كل حركة فى العالم ، فقد بيّنّا فى القواعد وغيرها أن هذا يندرج فيه كل حركة وعمل . فإن ما فى الأجسام من حركة طبعية فإنما أصلها السكون ، فإنه إذا خرجت عن مستقرها (٢) كانت بطبعها تطلب مستقرها ، وما فيها (٣) من حركة قسرية فأصلها من القاسر القاهر ، فلم تبق حركة اختيارية إلا عن الإرادة .

والحركات : إما إرادية ، وإما طبعية ، وإما قسرية . لأن الفاعل المتحرك إن كان له شعور بها فهى الإرادية ، وإن لم يكن له شعور فإن كانت على وفق طبع المتحرك فهى الطبعية ، وإن كانت على خلاف ذلك فهى القسرية .

وبيّنّا أن ما فى السمٰوات والأرض ، وما بينهما من حركة الأفلاك والشمس والقمر والنجوم ، وحركة الرياح والسحاب والمطر والنبات وغير ذلك ، فإنما هو بملائكة الله تعالى الموكّلة بالسمٰوات والأرض ، الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون .

---

(١) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : خرج عن مستقره .

(٣) فى الأصل : وما فيه .

ص ١٤٦ / كما قال تعالى : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً ﴾ [سورة النازعات : ٥] ، ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً ﴾ [سورة الذاريات : ٤] ، وكما دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة ، وتوكُّلهم بأصناف المخلوقات .

ولفظ « المَلَك » يشعر بأنه رسول منفذ لأمر غيره ، فليس لهم من الأمر شيء ، بل كم من ملك فى السموٰات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [سورة مريم : ٦٤ ، ٦٥] .

وإذا كان كذلك فجميع تلك المحبات والإرادات ، والأفعال والحركات ، هى عبادة لله رب الأرض والسموٰات ، كما قد بيناه فى غير هذا الموضع .

المحبة التى أمر الله بها هى عبادته وحده لا شريك له

وإذا كان كذلك فأصل المحبة المحمودة التى أمر الله بها ، وخلق خلقه لأجلها ، هى ما فى عبادته وحده لا شريك له ، إذ العبادة متضمنة [١] لغاية الحب بغاية الذل .

والمحبة لما كانت جنسا لأنواع [٢] متفاوتة فى القدر والوصف كان أغلب ما يذكر منها فى حق الله ما يختص به ويليق به ، مثل العبادة والإنابة ونحوهما ؛ فإن العبادة لا تصلح إلا لله وحده ، وكذلك الإنابة .

وقد تُذكر المحبة المطلقة [٣] لكن تقع فيها الشركة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ

---

(١) فى الأصل : يتضمن .
(٢) فى الأصل : أنواع .
(٣) فى الأصل : المطلق .

النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلّهِ [سورة البقرة : ١٦٥] .

ولهذا كان هذا الحب أعظم الأقسام المذمومة فى المحبة ، كما أن حب الله أعظم الأنواع المحمودة ، بل عبادة الله وحده لا شريك له هى أصل السعادة ورأسها ، التى لا ينجو أحد من العذاب إلا بها ، وعبادة إله آخر من دونه هو أصل الشقاء ورأسه ، الذى لا يبقى فى العذاب إلا أهله .

فأهل التوحيد الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له ، لا يبقى منهم فى العذاب أحد . والذين اتخذوا من دونه أندادا يحبونهم كحبه ، وعبدوا غيره ، هم أهل الشرك ، الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [سورة النساء : ٤٨] (١) .

وجماع القرآن هو الأمر بتلك المحبة ولوازمها ، والنهى عن هذه المحبات ولوازمها (٢) ، وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين ، وذكر قصص أهل النوعين .

وأصل دعوة جميع المرسلين ، صلى (٣) الله عليهم وسلم ، قولهم : ﴿ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٩] ، وعلى ذلك قاتل من قاتل منهم المشركين ، كما قال خاتم الرسل ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » (٤) . / قال الله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ ظ ١٤٦

(١) لفظ الجلالة غير موجود فى الآية فى الأصل المخطوط .

(٢) فى الأصل : وتلازمها .

(٣) فى الأصل : وصلى .

(٤) مضى الحديث من قبل ١٥/١ (ت ١) .

مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا والَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [سورة الشورى : ١٣] .

ولهذا قال ﷺ فى الحديث المتفق عليه فى الصحيحين عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان » وفى رواية فى الصحيح : « لا يجد طعم الإيمان إلا من كان فيه ثلاث : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله ، كما يكره أن يلقى فى النار » (١) .

وفى الصحيح عن أنس أيضا عن النبى ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » (٢) .

وفى صحيح البخارى أن عمر قال : يا رسول الله : والله لأنت أحب إلىَّ من كل شيء إلا من نفسى ، فقال : « لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من

---

(١) جاء الحديث بلفظ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان .... » عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى : البخارى ٨/١ (كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان) ، ٩/١ (كتاب الإيمان ، باب من كره أن يعود فى الكفر ....) ، ٢٠/٩ (كتاب الإكراه ، باب من اختار الضرب ....) ؛ مسلم ٦٦/١ (كتاب الإيمان ، باب بيان خصال ...) ؛ سنن ابن ماجة ١٣٣٨/٢ - ١٣٣٩ (كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء) .

وجاء الحديث بلفظ : « لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وحتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله ، وحتى يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما » عن أنس رضى الله عنه فى : البخارى ١٤/٨ (كتاب الأدب ، باب الحب فى الله) .

(٢) ورد الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى : البخارى ٨/١ (كتاب الإيمان ، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان) ؛ مسلم ٦٧/١ (كتاب الإيمان ، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل ....) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٧٧/٣ ، ٢٠٧ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ؛ سنن ابن ماجة ٢٦/١ (المقدمة ، باب فى الإيمان) .

نفسك » . قال : فوالذى بعثك بالحق لأنت أحب إلىّ من نفسى . قال : « الآن يا عمر » (١) .

ولهذا ورد فى فضل هذه الكلمة : « شهادة أن لا إله إلا الله » من الدلائل ما يضيق هذا الموضع عن ذكره ، وهى أفضل الكلام ، وما فيها من العلم والمحبة أفضل العلوم والمحبات ، كالحديث الذى فى السنن : « أفضل الذكر لا إله إلا الله » (٢) .

والآية المتضمنة لها أعظم آية فى القرآن ، كما فى صحيح مسلم أن النبى ﷺ قال لأُبَىّ بن كعب : « يا أبا المنذر : أتدرى أى آية فى كتاب الله أعظم ؟ قال : ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٥] قال : فضرب بيده صدرى ، وقال : لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر » (٣) .

وإذا كانت كل حركة فأصلها الحب والإرادة من محبوب مراد لنفسه (٤) ،

---

(١) الحديث عن عبد الله بن هشام رضى الله عنه فى : البخارى ١٢٩/٨ (كتاب الإيمان ، باب كيف كانت يمين النبى ﷺ) ولفظ الحديث : لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك ..... الحديث .

(٢) الحديث عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى : سنن ابن ماجة ١٢٤٩/٢ (كتاب الأدب ، باب فضل الحامدين) ؛ سنن الترمذى ١٣٠/٥ (كتاب الدعوات ، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة) ونصه فيه : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث موسى بن إبراهيم . وقد روى على بن المدينى وغير واحد عن موسى بن إبراهيم هذا الحديث » وذكر الألبانى الحديث فى « صحيح الجامع الصغير » ٣٦٢/١ وحسّنه .

(٣) الحديث بألفاظ مختلفة عن أُبَىّ بن كعب رضى الله عنه فى : مسلم ٥٥٦/١ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسى) ؛ وفى المسند عنه (ط . الحلبى) ١٤٢/٥ وعن صحابى لم يذكر اسمه ٥٨/٥ .

(٤) فى الأصل : بنفسه .

لا يُحب لغيره ، إذ لو كان كل شيء محبوبا لغيره لزم الدَّوْر أو التسلسل . والشيء قد يُحب من وجه دون وجه ، وليس شيء يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده ، ولا تصلح (١) الإلٰهية إلا له ، ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا .

والإلٰهية المذكورة فى كتاب الله هى العبادة والتألّه ، ومن لوازم ذلك أن يكون هوالرب الخالق . وأما ما يظنه طوائف من أهل الكلام أن الألوهية هى نفس الربوبية ، وأن ما ذكر فى القرآن من نفى إلٰه آخر ، والأمثال المضروبة البيّنة (٢) فالمقصود به نفى رب يشركه فى خلق العالم ، كما هو عادتهم فى كتب الكلام — / فهذا قصور وتقصير منهم فى فهم القرآن ، وما فيه من الحجج والأمثال أُتوا فيه من جهة أن مبلغ علمهم هو ما سلكوه من الطريقة الكلامية ، فاعتقدوا أن المقصودين واحد (٣) ، وليس كذلك ، بل القرآن ينفى أن يَعبد غير الله ، أو أن يتخذه إلٰها (٤) فيحبه ويخضع له محبة الإلٰه وخضوعه ، كما بيَّنت (٥) ذلك عامة آيات القرآن ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] . ولهذا قال الخليل : ﴿ لاَ أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٦] .

ص ١٤٧

ومن المعلوم أن كل حيّ فله إرادة وعمل بحسبه ، وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة ، ولا صلاح للموجودات (٦) إلا أن يكون كمال محبتها وحركتها لله تعالى ، كما لا وجود لها إلا أن يبدعها الله .

---

(١) فى الأصل : ولا يصلح .

(٢) البينة : الكلمة فى الأصل غير واضحة ، وكذا استظهرتها .

(٣) فى الأصل : واجلد ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : أو أن يتخذه الله ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٥) كلمة « بينت » غير واضحة فى الأصل ، وكذا استظهرتها .

(٦) فى الأصل : الموجودات .

ولهذا قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٢] ، ولم يقل : لعدمتا ، إذ هو قادر على أن يبقيها على وجهة الفساد ، لكن لا يمكن أن تكون صالحة إلا أن يُعبد الله وحده لا شريك له ، فإن صلاح الحى إنما هو صلاح مقصوده ومراده ، وصلاح الأعمال والحركات بصلاح إرادتها ونياتها .

ولهذا كان من أجمع الكلام وأبلغه قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » [١] ، وهذا يعم كل عمل وكل نيّة .

فكل عمل فى العالم هو بحسب نية صاحبه ، وليس للعامل [٢] إلا ما نواه [٣] وقصده وأحبه وأراده بعمله ، ليس فى ذلك تخصيص ولا تقييد ، كما يظنه طوائف من الناس ، حيث يحسبون أن النية المراد به النية الشرعية المأمور بها ، فيحتاجون أن يحصروا [٤] الأعمال بالأعمال الشرعية ، فإن النية موجودة لكل متحرك ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « أصدق الأسماء الحارث وهمام » [٥] ، فالحارث هو العامل [٦] الكاسب ، والهمام هو القاصد المريد ، وكل إنسان متحرك بإرادته حارث همام .

---

(١) الحديث عن عمر بن الخطاب فى البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه .

(٢) فى الأصل : وليس للعمل . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : إلا ما هو نواه .... ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : أن يحصبوا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) جاء الحديث مطولا عن أبى وهب الجشمى رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ٣٩٤/٤ (كتاب الأدب ، باب فى تغيير الأسماء) ونصه فيه : « تسمّوا بأسماء الأنبياء ، وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقها حارث وهمام ، وأقبحها حرب ، ومرّة » والحديث عنه أيضا فى المسند ٣٤٥/٤ . وجاء حديث آخر نصه : « أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فى سنن أبى داود فى الموضع السابق وهو فى مسلم وسنن الترمذى وابن ماجة والنسائى والدارمى .

(٦) فى الأصل : العمل .

كما بينا أن المحبة والإرادة أصل كل عمل ، فكل عمل فى العالم فعن إرادة ومحبة صدر .

ولهذا كانت المحبة والإرادة منقسمة إلى محبوب لله وغير محبوب ، كما أن العمل والحركة منقسم [١] كذلك .

وإذا كان كذلك فالمحبة لها آثار وتوابع – سواء كانت صالحة محمودة نافعة / أو كانت غير ذلك – لها وجد وحلاوة وذوق ووصال وصدود ، ولها سرور وحزن وبكاء . ظ ١٤٧

والمحبة المحمودة هى المحبة النافعة ، وهى التى تجلب لصاحبها ما ينفعه ، وهو السعادة . والضارة هى التى تجلب لصاحبها ما يضره ، وهو الشقاء .

ومعلوم أن الحى العالم لا يختار أن يحب ما يضره ، لكن [يكون] [٢] ذلك عن جهل وظلم ، فإن النفس قد تهوى ما يضرها ولا ينفعها ، وذلك ظلم منها لها ، وقد تكون جاهلة بحالها به ، بأن تهوى الشىء وتحبه – بلا علم منها بما فى محبته من المنفعة والمضرة – وتتبع هواها ، وهذا حال من اتبع هواه بغير علم .

وقد يكون عن اعتقاد فاسد ، وهو حال من اتّبع الظن وما تهوى نفسه ، وكل ذلك من أمور الجاهلية ، وإن كان كل من جهلها وظلمها لا يكاد يخلو عن شبهة يشتبه بها الحق ، وشهوه هى فى الأصل محمودة إذا وضعت فى محلها ، كحال الذى يحب لقاء قريبه [٣] ، فإن هذا محمود ، وهو [٤] أصل صلة الرحم التى هى شجنة من الرحمن .

---

(١) فى الأصل : كما هو العمل بالحركة منقسمة .
(٢) زدت « يكون » ليستقيم الكلام .
(٣) فى الأصل المصور كأنها : ربه ، ولعل الصواب ما أثبته .
(٤) فى الأصل : وهى .

لكن إذا اتبع هواه ، حتى خرج عن العدل بين ذوى القربى وغيرهم ، كان هذا ظلما ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ [سورة النساء : ١٣٥] .

وكذلك الذى يحب الطعام والشراب والنساء فإن هذا محمود ، وبه يصلح حال بنى آدم ، ولولا ذلك لما استقامت نفس الأنساب ، ولا وُجدت الذرية ، ولكن يجب العدل والقصد فى ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا ﴾ [سورة الأعراف : ٣١] ، وكما قال تعالى : ﴿ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٦ ، ٧] .

فإذا تجاوز حد العدل ، وهو المشروع ، صار ظالما (١) عاديا ، بحسب ظلمه وعدوانه .

وقد ذكرنا / فى مواضع [أن] (٢) المشروع ، والنافع ، والصالح ، والعدل ، والحق ، والحسن : أسماء متكافئة ، مسمَّاها واحد بالذات ، وإن تنوعت صفاته ، بمنزله أسماء الله الحسنى ، فأسماؤه تعالى ، وأسماء كتابه ، ودينه ، ونبيه ، مسمًّى كل صنف من ذلك واحد وإن تنوعت صفاته . فكل عمل صالح هو نافع لصاحبه وبالعكس ، وكل نافع صالح فهو مشروع وبالعكس ، وكل ما كان صالحا مشروعا فهو حق وعدل وبالعكس .

ص ١٤٨

---

(١) فى الأصل : ضالما .

(٢) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

ولكن الناس قد يدركون أحد النعتين فيستدلون به على وجود الآخر [١] ، مثل أن يعلم أن الله أمر بهذا الفعل وشرعه ، فيعلم من هذا وجوب [٢] كونه طاعة لله ورسوله ، وذلك الفعل بعينه يجب أن يكون عملا صالحا ، وهو النافع ، وأن يكون حقًّا وعدلا ، وهذا استدلال بالنص . وقد يعلم كون الشيء صالحا أو عدلا أو حسنا ، ثم يستدل بذلك على كونه مشروعاً ، وهو الاستدلال بالاستصلاح والاستحسان والقياس على كونه مشروعا .

وهذه الطريقة فيها خطر عظيم ، والغلط فيها كثير ، لخفاء صفات الأعمال وأحوالها عنها ، وأن العالم بذلك ، كما ينبغي ، ليس هو إلا رسول الله ﷺ .

فالاستدلال بالمصالح ، التي قد يقال لها المصالح المرسلة [٣] ، هو الذي يرى الشيء مصلحة وليس فى الشرع ما ينفيه ، فيستدل بالمصلحة على أنه من الشريعة .

والاستحسان : أن يرى الشيء حسنا فيستدل بحسنه على أنه من الشرع .

والعدل : أن يرى للشيء نظيراً وشبيهاً [٤] ، فيستدل على حكمه بحكم نظيره وشبيهه ، وليس هذا موضع الكلام فى ذلك .

لكن أعلم الناس من كان رأيه واستصلاحه واستحسانه وقياسه موافقا للنصوص ، كما قال مجاهد : أفضل العبادة الرأى الحسن ، وهو اتباع السنة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ [سورة سبأ : ٦] .

---

(١) فى الأصل كأن العبارة : على الذات ووجود الآخر . ورأيت أن ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٢) فى الأصل : وجب .

(٣) فى الأصل : أراد الناسخ أن يكتب « المشتركة » ثم عدل عن ذلك وكتب فوقها « المرسلة » .

(٤) فى الأصل : نظير وشبيه ، وهو خطأ .

ولهذا كان السلف يسمون أهل الآراء المخالفة للسنة / والشريعة فى مسائل الاعتقاد الخبرية ، ومسائل الأحكام العملية : أهل الأهواء [١] ، لأن الرأى المخالف للسنة جهل لا علم ، فصاحبه ممن اتّبع هواه بغير علم . ظ ١٤٨

ولهذا يذكر الله فى القرآن من يتبع هواه بغير علم ، ويذم من يتبع هواه [٢] بغير هدى من الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ ﴾ [سورة القصص : ٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ١١٩] .

وكل من اتبع هواه [اتبعه] [٣] بغير علم ، إذ لا علم بذلك إلا بهدى الله ، الذى بعث الله به رسله ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [سورة طه : ١٢٣ ، ١٢٤] ولهذا ذم الله الهوى فى مواضع من كتابه .

واتّباع الهوى يكون فى الحب والبغض ، كقوله تعالى : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [سورة ص : ٢٦] ، فهنا يكون اتّباع الهوى هو ما يخالف الحق فى الحكم . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللهُ

---

(١) فى الأصل : .... العملية يسمونها أهل الأهواء .

(٢) فى الأصل : وذم لمن يتبع هواه ... إلخ . وأرجو أن يكون ما أثبته هو الصواب .

(٣) زدت كلمة « اتبعه » لتستقيم العبارة .

أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أن تَعْدِلُوا وَإن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [سورة النساء : ١٣٥] . فهنا يكون اتباع الهوى فيما يُخالف القسط من الشهادة وغيرها . والحق هو العدل ، واتّباع الهوى فى خلاف ذلك هو من الظلم .

وقد نهى رسول الله ﷺ عن اتباع أهواء الخلق . وقال تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ [سورة البقرة : ١٢٠] ، فنهاه عن اتّباع أهواء الذين أوتوا الكتاب بعد ما جاءه من العلم .

ص ١٤٩ وكذلك / قال تعالى فى الآية الأخرى [1] : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ [سورة البقرة : ١٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُم وَاحْذَرْهُم أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِم ﴾ [سورة المائدة : ٤٩] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُون أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُوا فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِين لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٠] .

فقد نهاه عن اتّباع أهواء المشركين واتباع أهواء أهل الكتاب ، وحذره أن يفتنوه عمّا أنزل الله إليه من الحق ، وذلك يتضمن النهى عن اتّباع أهواء أحد فى خلاف شريعته وسنته ، وكذا [2] أهل الأهواء من هذه الأمة .

---

(١) فى الأصل : أخرى .
(٢) فى الأصل : وهو ، وفوقها كتب : كذا . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

وقد بيّن ذلك فى قوله تعالى : ﴿ ثُم جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة الجاثية : ١٩] . فقد أمره فى هذه الآية باتّباع الشريعة التى جعله عليها ، ونهاه عن اتّباع ما يخالفها ، وهى أهواء الذين لا يعلمون .

ولهذا كان كل من خرج عن الشريعة والسنة من أهل (١) الأهواء ، كما سمّاهم السلف .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [سورة المؤمنون : ٧١] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [سورة المائدة : ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [سورة الأنعام : ١١٩] .

ظ ١٤٩ وقال تعالى : / ﴿ قَالُوا لَوْلاَ أُوتِىَ مِثْلَ مَا أُوتِىَ مُوسَى مِن قَبْلُ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ ﴾ [سورة القصص : ٤٨ – ٥٠] .

---

(١) فى الأصل : .... والسنة كان من أهل ....

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِك قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تقْواهُمْ ﴾ [سورة محمد : ١٦ ، ١٧] .

فذكر الذين أوتوا العلم ، وهم الذين يعلمون أن ما أُنزل إليه (١) من ربه الحق ، ويفقهون ما جاء به ، وذكر المطبوع على قلوبهم فلا يفقهون إلا قليلا ، الذين اتبعوا أهواءهم : يسألونهم (٢) ماذا قال الرسول آنفا ، وهذه حال من لم يفقه الكتاب والسنة ، بل يستشكل ذلك فلا يفقهه ، أو قرأه متعارضا متناقضا ، وهى صفة المنافقين .

ثم ذكر صفة المؤمنين فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ ﴾ [سورة محمد : ١٧] زيادة الهدى ، وهو ضد الطبع على قلوب أولئك ، وآتاهم تقواهم ، وهو ضد اتّباع أولئك الأهواء .

فصاحب التقوى ضد صاحب الأهواء ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [سورة النازعات : ٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ [سورة الفتح : ٢٦] .

ولما كانت كل حركة وعمل فى العالم فأصلها المحبة والإرادة ، وكل محبة وإرادة لا يكون أصلها محبة الله وإرادة وجهه فهى باطلة فاسدة ، كان كل عمل

---

(١) أى إلى النبى ﷺ .

(٢) فى الأصل : يسلونهم .

لا يُراد به وجهه باطلا ، فأعمال الثقلين – الجن والإنس – منقسمة : منهم من يعبد الله ومنهم [من] [١] لا يعبده ، بل قد يجعل معه إلَها آخر . وأما الملائكة فهم عابدون لله .

وجميع الحركات الخارجة عن مقدور بنى آدم والجن والبهائم فهى من عمل الملائكة ، وتحريكها لما [٢] فى السماء والأرض وما بينهما ، / فجميع تلك الحركات والأعمال عبادات لله متضمنة لمحبته وإرادته وقصده ، وجميع المخلوقات عابدة لخالقها إلا ما كان من مردة الثقلين ، وليست عبادتها إياه قبولها لتدبيره [٣] وتصريفه وخلقه ، فإن هذا عام لجميع المخلوقات ، حتى كفَّار بنى آدم ، فلا يخرج أحد عن مشيئته وتدبيره ، وذلك بكلمات الله التى كان النبى ﷺ يستعيذ بها ، فيقول : « أعوذ بكلمات الله التامات ، التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر » [٤] ، وهذا من عموم ربوبيته وملكه .

وهذا الوجه هو الذى أدركه كثير من أهل النظر والكلام ، حتى فسَّروا ما فى القرآن والحديث من عبادة الأشياء وسجودها وتسبيحها بذلك ، وهم غالطون فى [٥] هذا التخصيص شرعا وعقلا أيضا .

فإن المعقول الذى لهم يعرِّفهم أن كل شىء وكل متحرك ، وإن كان له مبدأ ، فلابد له من غاية ومنتهى – كما يقولون : له علتان : فاعلية وغائية . والذى

---

(١) زدت « من » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : مما .

(٣) في الأصل : التدبير .

(٤) مضى الحديث فى المجموعة الأولى ص : ١٠ (ت ١) وأوردته كاملا هناك فارجع إليه .

(٥) فى الأصل : وفى .

ذكروه إنما هو من جهة العلة الفاعلية ، وبعض [(١)] المخلوقين كذلك يجعلونه [من جهة] العلة الغائية [(٢)] ، وهذا غلط .

فلا يصلح أن يكون شيء من المخلوقات علة فاعلية ولا غائية ، إذ لا يستقل مخلوق بأن يكون علة تامة قط ، ولهذا لم يصدر عن مخلوق واحد شيء قط ، ولا يصدر شيء فى الآثار إلا عن اثنين من المخلوقات ، كما قد بينا هذا فى غير هذا الموضع .

وكذلك لا يصلح شيء من المخلوقات أن يكون علة غائية تامة ، إذ ليس فى شيء من المخلوقات كمال مقصود حتى من الأحياء [(٣)] . فالمخلوقات بأسرها يجتمع [(٤)] فيها هذان [(٥)] النقصان : أحدهما : أنه لا يصلح شيء منها أن تكون علة تامة ؛ لا فاعلية ولا غائية . والثانى : أن ما كان فيها علة فله علة ، سواء كان علة فاعلية أو غائية .

فالله سبحانه رب كل شيء ومليكه ، وهو رب العالمين ، لا رب لشيء من الأشياء إلا هو ، وهو إلٓه كل شيء ، وهو فى السماء / إلٓه ، وفى الأرض إلٓه ، وهو الله فى السمٰوات وفى الأرض ، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، وما من إلٓه إلا الله ، سبحانه وتعالى عمّا يقول الظالمون علوا كبيرا .

ظ ١٥٠

فعبادة المخلوقات وتسبيحها هو من جهة إلاهيته سبحانه وتعالى ، وهو الغاية المقصودة منها ولها .

---

(١) فى الأصل : بعض .

(٢) فى الأصل : يجعلون العلة الغائية ، ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٣) فى الأصل : من الأحياء مراد .

(٤) فى الأصل : يجمع .

(٥) فى الأصل : هذا .

وأما فى الشرع فإن الله فصل بين هذا وبين هذا ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [سورة الحج : ١٨] (١) .

فهذا السجود الذى فصل بين كثير من الناس الذى يفعلونه ، وكثير من الناس [الذين لا يفعلونه طوعا] (٢) ، وهم الذين حق عليهم (٣) العذاب ، ليس هو ما يشترك فيه جميع الناس من خلق الله وربوبية الله تعالى إياهم وتدبيرهم .

وكذلك فصل بين الصنفين فى قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٨٣] .

وكذلك فى قوله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [سورة الرعد : ١٥] .

وهو سبحانه ذكر فى الآية الأخرى (٤) سجود المخلوقات إلا الكثير من الناس ، لأنه ذكر الطوع فقط ، كما ذكر فى التى قبلها أديان الناس فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سورة الحج : ١٧] ، فتضمنت هذه الآية حال المخلوقات إلا الجن ، فإنهم لم يُذكروا باللفظ الخاص ،

---

(١) سقطت فى الأصل بعض ألفاظ الآية الكريمة .

(٢) زدت عبارة « الذين لا يفعلونه طوعا » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : عليه .

(٤) أى آية ١٨ من سورة الحج التى ذكرها ابن تيمية قبل سطور قليلة .

لكنهم يندرجون فى الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ، فإنهم كما قالوا : ﴿ مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾ [سورة الجن : ١١] .

وقد ذكر طائفة من أهل العربية أنهم يدخلون فى لفظ الناس أيضا .

ص ١٥١ / وقال سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّئُوا ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۝ وَللهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ۝ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٤٨ – ٥٠] .

وفى الصحيحين حديث أبى ذر فى سجود الشمس تحت العرش إذا غابت [١] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [سورة النور : ٤١] .

وقال تعالى : ﴿ سَبَّح للهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة الحديد : ١] ، ﴿ سَبَّحَ للهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة الحشر : ١] ، ﴿ سَبَّح للهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَهُوَ

---

(١) ذكرت فى مجموعة الرسائل ٣٦/١ الحديث الذى يشمل هذا المعنى وهو فى : البخارى ١٢٥/٩ (كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء) ؛ مسلم ١٣٨/١ (كتاب الأيمان ، باب بيان الزمن الذى لا يقبل فيه الإيمان) ولفظ الحديث فى البخارى هو : « عن أبى ذر قال : دخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس ، فلما غربت الشمس قال : يا أبا ذر هل تدرى أين تذهب هذه ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب تستأذن فى السجود فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها ارجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها . ثم قرأ : (ذَلِكَ مُسْتَقَرٌّ لَهَا) فى قراءة عبد الله » . وقد أورد ابن تيمية الحديث فى الموضع المشار إليه مع اختلاف فى الألفاظ . وانظر الدر المنثور ٢٦٣/٥ .

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة الصف : ١] ، ﴿ يُسَبِّح لله مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فى الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [سورة الجمعة : ١] ، ﴿ يُسَبِّحُ لله مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة التغابن : ١] ، ﴿ وَإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِه وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [سورة الإسراء : ٤٤] .

قال تعالى : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَن عِندَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ هُمْ يَسْتَحْسِرُونَ ۞ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٩ ، ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٠٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لله الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۞ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ ﴾ [سورة فصلت : ٣٧ ، ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لله وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً ﴾ [سورة النساء : ١٧٢] ، ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُم فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ [سورة النساء : ١٧٥] .

* وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَداً ۞ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ۞ تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً ۞ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَداً ۞ وَمَا يَنبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ۞ إِن كُلُّ مَن فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ

ظ ١٥١

إلاَّ آتِى الرَّحْمَٰنِ عَبْداً ۝ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [سورة مريم : ٨٨ – ٩٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۝ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَٰهٌ مِن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٦ – ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ [سورة الرعد : ١٢ ، ١٣] .

وقالت الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ۝ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [سورة ص : ١٨ ، ١٩] .

أهل الطبع المتفلسفة لا يشهدون الحكمة الغائية من المخلوقات

فأما كثير من الناس ، وأهل الطبع المتفلسفة وغيرهم ، فيعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، ويأخذون [١] بظاهر من القول ؛ يرون ظاهر الحركات والأعمال التى للموجودات ، ويرون بعض أسبابها القريبة ، وبعض حكمها وغاياتها القريبة : أن ذلك هو العلة لها : فاعلا وغاية ، كما يذكرون فى تشريح الإنسان وأعضائه وحركاته

(١) فى الأصل : ويشترون ، ولعل الصواب ما أثبته .

الباطنة والظاهرة ، وما يذكرونه من القوى التى فى الأجسام ، التى هى تكون بها الحركة ، وما يذكرونه من كل شىء .

ومن ذلك ذكرهم [١] الطبيعة التى فى الإنسان ، والقوة الجاذبة ، والهاضمة الغاذية ، والدافعة ، والمولِّدة وغير ذلك ، وأن الرئة تُرَوِّح على القلب لفرط حرارته ، وأن الدماغ أبرد من القلب [٢] ، إلى غير ذلك من الأسباب / والحكم التى فيها من شهود ما فى مخلوقات الله من الأسباب والحكم ما هو عبرة لأولى الأبصار .

ص ١٥٢

لكن يقع الغلط من إضافة هذه الآثار العظيمة إلى مجرد قوة فى جسم ، ولا يشهدون الحكمة الغائية من هذه المخلوقات ، وأن ذلك هو عبادة ربها سبحانه وتعالى .

أهل الكلام ينكرون طبائع الموجودات وما فيها من القوى والأسباب

وقد يعارضهم [٣] كلهم طوائف من أهل الكلام ، فينكرون طبائع [٤] الموجودات وما فيها من القوى والأسباب ، ويدفعون ما أرى الله عباده من آياته فى الآفاق وفى أنفسهم ، مما شهد به فى كتابه من أنه خلق هذا بهذا ، كقوله ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٧] ، وقوله : ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [سورة الجاثية : ٥] .

وكلا الطائفتين قد لا يعلمون ما فيها من الحكمة التى هى عبادة ربها ، وهذا هو المقصود الذى بعث الله به الرسل ، وأنزل به الكتب ، بل إنما يتنازعون فى

---

(١) فى الأصل : وذكرهم ، وهو تحريف .

(٢) بعد كلمة « القلب » توجد عبارة غير واضحة فى الأصل كأنها : « لكن والحركات عليه تعديلا له ولواجه » والكلام يستقيم بدونها .

(٣) فى الأصل : يعاوطهم ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : طباع .

فاعل هذه الأمور ، وما يتعلق بتوحيد الربوبية ، كما قدَّمناه . وأما شهادة غاية هذه الأمور ، وما يتعلق بتوحيد الإلٰهية ، فقد لا يهتدون له . ولهذا كان فى طرقهم من الضلالات والجهالات ما هو مخالف لصحيح المنقول وصريح المعقول .

لكن أهل العلم فى إضافة جميع الحوادث إلى خلق الله ومشيئته وربوبيته أصح عقلا ودينا ، ومن أدخل فى ذلك كل شىء ، حتى أفعال الحيوان ، فهو المصيب الموافق للسنة والعقل ، وهم متكلمة أهل الإثبات الذين يقرّرون أن الله خالق كل شىء وربّه ومليكه .

بخلاف القدرية الذين أخرجوا عن ذلك أفعال الحيوان ، وبخلاف أهل الطبع والفلسفة الذين يخرجون عن ذلك عامة الكائنات من العلل المولّدات ، وكلاهما باطل ، كما بُيِّن فى غير هذا الموضع .

ولهذا تجد هؤلاء إذا تكلموا فى الحركات التى بين السماء والأرض ، مثل حركة الرياح والسحاب والمطر وحدوث المطر ، من الهواء [1] الذى بين السماء والأرض تارة ، / ومن البخار المتصاعد من الأرض تارة ، كما ذكر ذلك أيضا غير واحد من السلف ، وهو حق مشهود بالأبصار ، كما يُخلق الولد فى بطن أمه من المنىِّ ، وكما يُخلق الشجر من الحب والنوى ، فشهدوا بعض الأسباب المرئية ، وجهلوا أكثر الأسباب ، وأعرضوا عن الخالق المسبب لذلك كله ، وعما جاء فى ذلك من عبادته وتسبيحه والسجود له ، الذى هو غاية حكمته . ظ ١٥٢

فإن خلق الله سبحانه للسحاب بما فيه من المطر من هذا البحر وبخار الأرض ، كخلقه للحيوان والنبات والمعدن من هذه الأمور .

---

(١) فى الأصل : الهوى .

ومعلوم أن المنىّ جسم صغير مشابه لهذا الذى فى الحيوان من الأعضاء المكسوَّة والمتنوعة فى أقدارها وصفاتها وحكمها وغاياتها ، هل يقول عاقل : إن هذا مضافٌ إلى عرض وصفة ؟ حالٌّ فى جسم صغير ؟ أو يضاف هذا إلى ذلك الجسم الصغير ؟ هذا من أفسد الأمور فى بديهة العقل .

ومعلوم أنه لا نسبه إلى خلق هذا من هذا ، وإلى ما يصنعه بنو آدم من الصور التى يصنعونها من المداد ، مثل الكتابة بالمداد ، ونسيج الثياب من الغزل ، وصنعة الأطعمه والبنيان من موادها (١) ، وهم مع ذلك لم يخلقوا المواد ولا يفنونها (٢) ، وإنما غايتهم حركة خاصة تعين على تلك الصورة ، ثم لو أضاف مضيف هذه الكتابة إلى المداد لكان الناس جميعا يستجهلونه ويستحمقونه . فالذى يضيف خلق الحيوان والنبات إلى مادتها ، أو ما فى مادتها من الطبع ، أليس هو أحمق وأجهل وأظلم وأكفر ؟!

وكذلك خلق السحاب والمطر من الهواء والبخار ، هو كذلك إضافة الزلزلة إلى احتقان البخار ، وإضافة حركة الرعد إلى مجرد اصطكاك أجرام السحاب ، إلى غير ذلك من الأسباب التى ضلُّوا فيها ضلالا مبينا ، حيث جعلوها هى العلة التامة فاعلا ، ولم يعرفوا (٣) الغاية ، فجهلوا الوضعين . ونازعهم طوائف من الناس فيما يُوجد من الأسباب والقوى التى فى الطباع ، وذلك أيضا جهل .

وإذا كانت المحبة والإرادة أصل كل عمل وحركة . وأعظمها فى الحق محبة الله / وإرادته بعبادته وحده لا شريك له ، وأعظمها فى الباطل أن يتخذ الناس من ص ١٥٣

---

(١) فى الأصل : من سوادها ، وهو تحريف .
(٢) فى الأصل : ينفونها ، وهو تحريف .
(٣) فى الأصل . ولم يعرف .

المحبة والإرادة أصل كل دين

دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، ويجعلون له عدلا وشريكا – عُلم أن المحبة والإرادة أصل كل دين ، سواء كان دينا صالحا أو دينا فاسدا ، فإن الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة ، والمحبة والإرادة أصل ذلك كله ، والدين هو الطاعة والعبادة والخُلُق ، فهو الطاعة الدائمة اللازمة التى قد صارت عادة وخُلُقا ، بخلاف الطاعة مرة واحدة ، ولهذا فُسِّر الدين بالعادة والخُلُق ، ويفسر الخلق بالدين أيضا ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم : ٤] (١) ، قال ابن عباس : على دين عظيم ، وذكره عنه سفيان بن عيينة ، وأخذه الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة وبذلك فسراه (٢) .

معانى كلمة « الدين »

وكذلك يفسر بالعادة ، كما قال الشاعر :

أهٰذا دينه أبدا ودينى ؟ (٣) .

ومنه « الدَّيْدَن » . يقال : هذا ديدنه ، أى عادته (٤) اللازمة (٥) ، فإن « ديدن » من دَانَ ، بمنزلة صلصل من : صَلَّ ، وكَبْكَبَ من كَبَّ ، هو تضعيف له ، والمضعَّف قد يكون مشدَّدا ، وقد يكون حرفَ لِينٍ ، وهم يعاقبون فى كلامهم

---

(١) فى الأصل : إنك ...

(٢) سبق الكلام على تفسير هذه الآية فى هذه المجموعة (ص : ٥٦) .

(٣) فى « لسان العرب » أن هذا الكلام للمُثقِّب العبدى يذكر ناقته وتمام البيت :

تقولُ إذا دَرَأْتُ لها وَضِينِى ... أَهٰذَا دِينُهُ أَبداً ودِينِى ؟

والبيت فى ديوان المثقب القصيدة رقم ٧٦ فى « المفضليات » (تحقيق الشيخ أحمد شاكر رحمه الله ، والأستاذ عبد السلام هارون ، ط . دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٧١/١٩٥٢) .

(٤) فى الأصل : عبادته ، وهو تحريف .

(٥) فى « اللسان » : « والدين : العادة والشأن ، تقول العرب : ما زال ذلك دينى ودَيْدَنى أى عادتى » .

كثيرا بين الحرف المشدَّد وحرف المثل [١] ، كما يُقال : تَقضِّى البَازِى وتقضَّضَ ، ويُقال : تَسَرَّر وتسرَّى [٢] .

ودان : يكون من الأعلى القاهر ، ويكون من المطيع . يُقال : دِنْتُه فدان ، أى : قهرتُه فذلَّ . كما قال :

هُوَ دَانَ الرِّبابَ [٣] إذْ كَرِهُو الدِّيـ ـنَ ، دِراكاً بعزة وصيـال [٤]

ويُقال فى الأعلى [٥] : « كما تدين تدان » . وأما دين المطيع فيستعمل متعديا ودائما ولازما ، يقال : دنت الله ، ودنت لله . ويقال : فلان لا يدين الله دِينا ، ولا يدين لله ، لأن فيه معنى الطاعة والعبادة ومعنى الذل . فإذا قيل : دان الله فهو قولك : أطاع الله ، وأحبه ، وإذا قيل : دان لله ، فهو كقولك : ذلْ لله ، وخشع لله .

وقد ذكرت أن اسم العبادة يتناول غاية الحب بغاية الذل ، وهكذا الدين

---

(١) كلمة « المثل » غير منقوطة فى الأصل ، وكتب فوقها كلمة « كذا » .

(٢) فى الأصل : تسورّ وتسرر ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : الذباب ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : فأضحوا بعزة وصيال . وفى « لسان العرب » مادة « دين » : قال الأعشى يمدح رجلا :

هُوَ دانَ الرِّبابَ ، إذ كرهوا الدِّيـ ـنَ دِراكاً بغـزوة وصيـالِ
ثم دانت بعدُ الرِّبابُ ، وكانت كعـذابٍ عُقوبـةُ الأقـوالِ

قال : هو دانَ الرباب يعنى أذلها ، ثم قال دانت بعدُ الربابُ ، أى ذلت له وأطاعته ، والدين لله من هذا إنما هو طاعته والتعبد له . ودانه دِينا أى أذله واستعبده . يقال : دِنْتُهُ فدانٍ .

والبيت فى « ديوان الأعشى » ، ص ١٢ ، القصيدة الأولى ، تحقيق رودلف جاير ، ط . فيينا ، ١٩٢٧ . وجاء فى رواية للبيت : بعزة وصيال .

(٥) فى الأعلى : كذا بالأصل ، ولعل الصواب : فى المثل .

الذى يدين به الناس فى الباطن والظاهر لابد فيه من الحب والخضوع ، بخلاف طاعتهم للملوك ونحوهم ، فإنها قد تكون خضوعا ظاهرا فقط .

والله سبحانه وتعالى سمّى يوم القيامة يوم الدِّين ، كما قال : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [سورة الفاتحة : ٤] ، وهو كما روى عن ابن عباس وغيره من السلف : « يوم يدين الله العباد بأعمالهم إن خيراً فخيراً ، وإن شرًّا فشرًّا » (١) . وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم .

فلهذا من قال : هو يوم الحساب ويوم الجزاء ، فقد ذكر بعض صفات الدين ، قال تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَاماً كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدينِ ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ [سورة الانفطار : ٩ - ١٩] .

ظ ١٥٣ / وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [سورة الواقعة : ٨٦ ، ٨٧] ، أى : مقهورين ، ومدبَّرين ، ومجزيين (٢) .

---

(١) فى الأصل : إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . وهذا الأثر فى تفسير الطبرى (ط . المعارف) ١٥٦/١ : « ... عن عبد الله بن عباس : (يوم الدين) ، قال : يوم حساب الخلائق ، وهو يوم القيامة ، يدينهم بأعمالهم ، إن خيراً فخيراً ، وإن شرًّا فشرًّا ، إلا من عفا عنه ، فالأمر أمره . ثم قال : (ألا له الخلق والأمر) [سورة الأعراف : ٥٤] .

(٢) يقول ابن الجوزى فى تفسيره « زاد المسير » ١٥٥/٨ - ١٥٦ : « قوله تعالى : (غير مدينين) فيه خمسة أقوال . أحدها : محاسبين ، رواه الضحَّاك عن ابن عباس وبه قال الحسن وابن جبير وعطاء وعكرمة . والثانى : موقنين ، قاله مجاهد . والثالث : مبعوثين ، قاله قتادة . والرابع : مجزيين . ومنه يقال : دنته ، وكما تدين تدان ، قاله أبو عبيدة . والخامس : مملوكين أذلاء ، من قولك : دنت له بالطاعة ، قاله ابن قتيبة » .

لابد لكل طائفة من بنى آدم من دين يجمعهم

وإذا كان كل عمل عن محبة وإرادة ، والترك يكون عن بغض وكراهة — وكل أحد همّام حارث له حب وبغض ، لا يخلو الحى عنهما [١] ، وعمله يتبع حبه وبغضه ، ثم قد يكون ذلك فى أمور هى له عادة وخلق ، وقد يكون فى أمور عارضة لازمة — عُلم أن [كل] [٢] طائفة من بنى آدم لابد لهم من دين يجمعهم ، إذ لا غنى لبعضهم عن بعض ، وأحدهم لا يستقل بجلب [٣] منفعته ودفع مضرته ، فلابد من إجتماعهم ، وإذا اجتمعوا فلابد أن يشتركوا فى اجتلاب ما ينفعهم كلهم ، مثل طلب نزول المطر ، وذلك محبتهم له ، وفى دفع ما يضرهم مثل عدوهم ، وذلك بغضهم له ، فصار ولابد أن يشتركوا فى محبة شىء عام ، وبغض شىء عام ، وهذا هو دينهم المشترك العام .

وأما اختصاص كل منهم بمحبة ما يأكله ويشربه وينكحه ، وطلب ما يستره [٤] باللباس ، فهذا يشتركون فى نوعه لا فى شخصه . بل كل منهم يحب نظير ما يحبه الآخر لا عينه ، بل كل منهم لا ينتفع فى أكله وشربه ونكاحه ولباسه بعين ما ينتفع به الآخر ، بل بنظيره .

وهكذا هى الأمور السماوية فى الحقيقة ، فإن عين المطر الذى ينزل فى أرض هذا ، ليس هو عين الذى ينزل فى أرض هذا ، ولكن نظيره ، ولا عين [٥] الهواء البارد الذى يصيب جسد أحدهم ، قد لا يكون نفس عين الهواء البارد الذى يصيب جسد الآخر ، بل نظيره .

---

(١) فى الأصل : عنها .

(٢) زدت « كل » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : لجلب .

(٤) فى الأصل : ما يضره ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : ولا من .

لكن الأمور السماوية تقع مشتركة عامة ، ولهذا تعلق حبهم وبغضهم بها عامة مشتركة . بخلاف الأمور التى تتعلق بأفعالهم كالطعام واللباس . فقد تقع مختصة وقد تقع مشتركة [١] .

وإذا كان كذلك فالأمور التى يحتاجون إليها يحتاجون أن يوجبوها على أنفسهم ، والأمور التى تضرهم يحتاجون أن يحرِّموها على نفوسهم ، وذلك دينهم ، وذلك لا يكون إلا باتفاقهم على ذلك ، وهو التعاهد والتعاقد .

الدين هو التعاهد والتعاقد

ولهذا جاء فى الحديث « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » [٢] .

فهذا هو من الدين المشترك بين جميع بنى آدم : من التزام واجبات ومحرمات ، وهو الوفاء والعهد ، وهذا قد يكون باطلا فاسدا ، إذا كان فيه مضرة لهم راجحة على منفعته ، وقد يكون دين حق إذا كانت منفعة خاصة أو راجحة .

كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [سورة الكافرون : ١ – ٦] .

وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ [سورة يوسف : ٧٦] [٣] .

---

(١) فى الأصل : فقد يقع مختصا وقد يقع مشتركا .

(٢) الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى مسند أحمد (ط . الحلبى) ١٣٥/٣ وأوله : « ... عن أنس بن مالك قال : ما خاطبنا نبى الله ﷺ إلا قال : لا إيمان لمن لا أمانة له .... » وهو أيضا فيه ١٥٤/٣ ، ٢١٠ ، ٢٥١ .

(٣) يقول ابن الجوزى فى « زاد المسير » ٢٦١/٤ : « فى المراد بالدين ها هنا قولان : أحدهما : أنه السلطان ، فالمعنى فى سلطان الملك ، رواه العوفى عن ابن عباس . والثانى : أنه القضاء ، فالمعنى فى قضاء الملك ، لأن قضاء الملك أن من سرق إنما يُضرب ويُغرَّم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس » . وانظر تفسير الطبرى للآية (ط . المعارف) ١٨٨/١٦ – ١٩٠ .

/ وقال تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ [سورة التوبة : ٢٩] . ص ١٥٤

الدين الحق هو طاعة الله وعبادته

والدين الحق هو طاعة الله وعبادته ، كما بيَّنا أن الدين هو الطاعة المعتادة التى صارت خُلقا ، وبذلك (١) يكون المطاع محبوباً مراداً (٢) ، إذ أصل ذلك المحبة والإرادة .

ولا يستحق أحد أن يُعبد ويطاع على الإطلاق إلا الله وحده لا شريك [له] (٣) ، ورسله وأولو الأمر أُطيعوا لأنهم يأمرون بطاعة الله ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث المتفق عليه : « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن عصى أميرى فقد عصانى » (٤) .

وأما العبادة فلله وحده ليس فيها واسطة ، فلا يعبد العبد إلا الله وحده ، كما قد بيّنا ذلك فى مواضع ، وبينّا أن كل عمل لا يكون غايته إرادة الله وعبادته فهو عمل فاسد غير صالح ، باطل غير حق ، أى لا ينفع صاحبه .

---

(١) فى الأصل : وذلك .

(٢) فى الأصل : محبوب مراد ، وهو خطأ .

(٣) له : ساقطة من الأصل .

(٤) جاء الحديث مختصرا ومطولا مع اختلاف فى الألفاظ عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٩/٦١ (كتاب الأحكام ، باب قول الله تعالى : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ....) ؛ مسلم ٣/١٤٦٥ ، ١٤٦٦ (كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية) ؛ سنن النسائى ٧/١٣٨ (كتاب البيعة ، باب الترغيب فى طاعة الإمام) ، ٨/٢٤٣ (كتاب الاستعاذة ، باب الاستعاذة من فتنة المحيا) ؛ سنن ابن ماجة ١/٤ (المقدمة ، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ) ، ٢/٩٥٤ (كتاب الجهاد ، باب طاعة الإمام) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٣/٥٢ ، ١٧٣ - ١٧٤ ، ١٤/٧٦ ، ١٦/٣٩ - ٤٠ ، ١٧/١٠٧ ، ١٨/٩٥ ، المسند (ط . الحلبى) ٢/٤٦٧ ، ٤٧١ ، ٥١١ .

وقد قال سبحانه : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [سورة البيّنة : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٣] .

وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [سورة التوبة : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ١٦١] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ [سورة التوبة : ١٢٢] .

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ

---

(١) الحديث عن ابن عباس وأبى هريرة ومعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهم فى : البخارى ٢١/١ (كتاب العلم ، باب من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين) ، ٨٤/٤ (كتاب الخمس ، باب قول الله تعالى فإن لله خمسه) ، ١٠١/٩ (كتاب الاعتصام ، باب قول النبى ﷺ لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ....) ؛ مسلم ٧١٨/٢ ، ٧١٩ (كتاب الزكاة ، باب النهى عن المسألة) ؛ سنن الترمذى ١٣٧/٤ (كتاب العلم ، باب إذا أراد الله بعبد خيرا فقهه فى الدين) وقال الترمذى : « وفى الباب عن عمر وأبى هريرة ومعاوية » ؛ سنن ابن ماجة ٨٠/١ (المقدمة ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم) ؛ سنن الدارمى ٢٩٧/٢ (كتاب الرقاق ، باب من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين) ؛ المسند (ط . المعارف) ٢٨٢/٤ ، ١٨٠/١٢ ، المسند (ط . الحلبى) ٩٢/٤ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ٢٨٢ .

أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيا وَالآخِرةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٧] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ الآية [سورة المائدة : ٥٤] .

وهو الدين الحق الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وطاعته وطاعة رسوله هو الإسلام العام الذى لا يقبل الله دينا غيره .

كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ ﴾ [سورة آل عمران : ١٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٨٥] .

ظ ١٥٤ / وقال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٨٣] .

وقال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [سورة الشورى : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٩] .

فإذا كان لابد لكل آدمى من اجتماع ، ولابد فى كل إجتماع من طاعة ودين ، وكل دين وطاعة لا يكون لله فهو باطل — فكل دين سوى الإسلام فهو باطل .

كل دين سوى الإسلام باطل

وأيضا فلابد لكل حى من محبوب ، هو منتهى محبته وإرادته ، وإليه تكون حركة باطنه وظاهره ، وذلك هو إلهه ، ولا يصلح ذلك إلا لله وحده لا شريك له ، فكل ما سوى الإسلام فهو باطل .

والمتفرقون أيضا فيه ، الذين أخذ كل منهم ببعضه وترك بعضه ، وافترقت أهواؤهم ، قد بَرِىء الله ورسوله منهم .

لابد فى كل دين من شيئين : العقيدة والشريعة أو المعبود والعبادة

ولابد فى كل دين وطاعة ومحبة من شيئين : أحدهما : الدين المحبوب المطاع . وهو المقصود المراد .

والثانى : نفس صورة العمل التى تُطاع (١) ويُعبد بها ، وهو السبيل والطريق والشريعة والمنهاج والوسيلة .

كما قال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [سورة هود : ٧] قال : أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا على ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، [حتى يكون خالصا صوابا] (٢) ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة .

فهكذا كان الدين يجمع هذين الأمرين : المعبود ، والعبادة . والمعبود إله واحد ، والعبادة طاعته وطاعة رسوله ﷺ ، فهذا هو دين الله الذى ارتضاه ، كما قال تعالى : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ [سورة المائدة : ٣] ، وهو دين المؤمنين من الأوَّلين والآخرين ، وهو الدين الذى لا يقبل الله من أحد غيره ، لأنه دين فاسد باطل ، كمن عبد من لا تصلح عبادته ، أو عبد بما لا يصلح أن يعبد به .

تنوع الناس فى المعبود وفى العبادة

ثم مع اشتراك الأوَّلين والآخرين فى هذا الدين فيتنازعون فى كل منهما ، فإن الله سبحانه له الأسماء الحسنى ، وله المثل الأعلى ، فقد تعرف هذه الأمة من أسمائه

---

(١) فى الأصل : يطاع .

(٢) ما بين المعقوفتين من كلام الفضيل بن عياض ، وسبق ورود هذا الكلام فى المجموعة الأولى ، ص : ٢٥٧ .

وصفاته ما لا تعرف به الأمة الأخرى ، فهم مشتركون فى عبادة نفسه ، وإن تنوّعوا فيما عرفوه وعبدوه به من أسمائه وصفاته .

وقد رفع الله بعضهم فوق / بعض درجات ، فهذا تنوعهم فى المعبود [١] ، وكذلك حالهم فى معرفة اليوم الآخر . ص ١٥٥

وأما تنوعهم فى العبادة والطاعة من الأقوال والأفعال ؛ فإنهم متنوّعون فى ذلك أيضا .

وقد قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [سورة المائدة : ٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الجاثية : ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِى الْأَمْرِ ﴾ [سورة الحج : ٦٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ [سورة الحج : ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ [سورة البقرة : ١٤٨] .

وهذان الأصلان قد جاءت شريعتنا فيهما [٢] بأنواع : فجاءت فى أسماء الله وصفاته بأنواع ، وجاءت فى صفات العبادات بأنواع . والأصل الأول ينضم إليه اليوم الآخر وما جاء فى نعته من الأسماء والصفات والوعد والوعيد .

---

(١) كتب فى أعلى هذه الصفحة إلى اليسار : « الثانى » .
(٢) فى الأصل : فيها .

وهذه الأصول الثلاثة : وهى الإيمان بالله ، وباليوم الآخر ، والعمل الصالح ، هى الموجبة (١) للسعادة فى كل ملة . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٦٢] . والشرع (٢) ما جاءت به الرسل ، وهو الأصل الرابع .

ذم الله التفرق والاختلاف فى الكتاب والسنة

فإن هذه الأصول الأربعة متلازمة ، والتفرق فى ذلك بالأمر فى بعضه ، والنهى عن بعض ، هو من التفرق والاختلاف الذى ذمه الكتاب والسنة من المختلفين .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِى الْكِتَابِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [سورة البقرة : ١٧٦] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٥] .

ولهذا غضب النبى ﷺ لما اختلفوا فى القراءة ، وقال : « كلاهما محسن » (٣) .

---

(١) فى الأصل : هو الموجب .

(٢) فى الأصل : والنوع .

(٣) الحديث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى موضعين فى : البخارى ٣/١٢٠ (كتاب الخصومات ، باب ما يذكر فى الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود) ، ٤/١٧٥ (كتاب الأنبياء ، الباب الأخير : حدثنا أبو اليمان ...) ونصه فى الموضع الأخير : « .... عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : =

وقال : « إن القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرؤوا منه ما تيسر » [(١)] .
وكذلك غضب لما تنازعوا فى القدر ، وأخذوا يعارضون بين الآيات معارضة تفضى إلى الإيمان ببعض دون بعض .

وهذا التفرّق والاختلاف يوجب الشرك ، وينافى حقيقة التوحيد الذى هو إخلاص الدين كله [لله] [(٢)] ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ﴾ [سورة الروم : ٣٠] ، ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [سورة الروم : ٣١ ، ٣٢] . ظ ١٥٥

فإقامة وجهة الدين حنيفا ، وعبادة الله وحده لا شريك له – وذلك يجمع الإيمان بكل ما أمر الله به وأخبر به – أن يكون الدين كله لله .

= سمعت رجلا قرأ وسمعت النبى ﷺ يقرأ خلافها ، فجئت به النبى ﷺ فأخبرته ، فعرفت فى وجهه الكراهية ، وقال : كلاكما محسن ، ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » .

والحديث عن ابن مسعود رضى الله عنه فى : المسند (ط . المعارف) ٣٢٤/٥ – ٣٢٥ ، ٥/٦ ، ٥ – ٦ ، ١٥٥ ، ١٦٩ . وجاء الحديث عن أبى بن كعب رضى الله عنه (وفيه بيان أنه كان هو الرجل الآخر وفى رواية أنه كان هناك قارىء ثالث) فى المسند ١٢٤/٥ فى عدة روايات .

(١) هذا جزء من حديث طويل عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى : البخارى ١٢٢/٣ (كتاب الخصومات ، باب كلام الخصوم بعضهم فى بعض) ، ١٨٤/٦ – ١٨٥ (كتاب فضائل القرآن ، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف) ، ١٧/٩ – ١٨ (كتاب المرتدين ، باب ما جاء فى المتأولين) ، ١٥٨/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : فاقرأوا ما تيسر من القرآن) ؛ مسلم ٥٦٠/١ (كتاب صلاة المسافرين ، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف) ؛ سنن الترمذى ٢٦٣/٤ – ٢٦٤ (كتاب القراءات ، باب ما جاء أن القرآن أنزل على سبعة أحرف) ؛ سنن أبى داود ٢/ ١٠١ – ١٠٢ (كتاب الوتر ، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف) ؛ سنن النسائى ١١٦/٢ – ١١٧ (كتاب افتتاح الصلاة ، باب جامع ما جاء فى القرآن) ؛ المسند (ط . المعارف) ٢٢٤/١ ، ٢٧٤ – ٢٧٥ ، ٢٨٣ – ٢٨٤ . وأول الحديث (البخارى ١٢٢/٣) : « .... سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها .... فجئت به رسول الله ﷺ فقلت : إنى سمعت هذا يقرأ على غير ما أقرأتنيها . فقال لى : أرسله . ثم قال : اقرأ .... الحديث » .

(٢) زدت « لله » ليستقيم الكلام .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً ﴾ ، وذلك أنه إذا كان الدين كله لله حصل الإيمان والطاعة لكل ما أنزله وأرسل به رسله ، وهذا يجمع كل حق ، ويُجمع عليه كل حق .

وإذا لم يكن كذلك فلابد أن يكون لكل قول ما يمتازون به ، مثل معظَّم مُطَاع ، أو معبود لم يأمر الله بعبادته وطاعته ، ومثل قول ودين ابتدعوه لم يأذن الله به ، ولم يشرعه ، فيكون كل من الفريقين مشركا من هذا الوجه .

وأيضا ففى قلوب بنى آدم محبة وإرادة لما يتألهونه ويعبدونه ، وذلك هو قوام قلوبهم وصلاح نفوسهم ، كما أن فيهم محبة وإرادة لما يطعمونه وينكحونه ، وبذلك تصلح حياتهم ، ويدوم شملهم . وحاجتهم إلى التألّه أعظم من حاجتهم إلى الغذاء ، فإن الغذاء إذا فُقد يفسد الجسم ، وبفقد التألّه تفسد النفس ، ولن يصلحهم إلا تأله الله وعبادته وحده لا شريك له ، وهى الفطرة التى فطروا عليها ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث المتفق عليه : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » (١) .

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه أنه قال : « إننى خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين (٢) ، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزّل به سلطانا » (٣) .

لكن أكثر الشرك فى بنى آدم بإيجاد إله آخر مع الله ، ودان بذلك كثير منهم فى أنواع كثيرة .

---

(١) جزء من حديث عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) فى الأصل : الشيطان ، وهو تحريف .

(٣) مسلم فى كتاب الجنة وصفه نعيمها باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار .

فصار كل طائفة من بنى آدم لابد لهم من دين لهذين الأمرين : لحاجة نفوسهم إلى الإله الذى هو محبوب مطلوب لذاته ولأنه ينفع ويضر ، ولحاجتهم إلى التزام ما يحبونه من الحاجات ويدفعون من المضرات .

وهم مشركون فى المحبة للأمور المنزّلة : أعيانها وأنواعها ، فهم مشركون فى محبة الإله الذى يعبدونه وتعظيمه ، ومحبة من يبلّغ عنه ما يختص به ، ومحبة أوامره ونواهيه . مشركون / فى محبة [١] غير ذلك ، ومشركون أيضا فى محبة جنس [٢] ما التزموه من الواجبات والمحرّمات العامة ، التى هى جلب المنفعة لهم جميعا ، ودفع المضرة عنهم جميعا .

ص ١٥٦

فهذه المحبة هى المحبة الدينية ، كحب الدين الذى هم عليه : حقًّا كان أو باطلا ، وكذلك محبة ما يعين على ذلك ويوصل إليه لأجل ذلك ، فهى [٣] أيضا محبة دينية .

يقول بعض المتفلسفة إن المقصود بالدين مجرد المصلحة الدنيوية

وليس المقصود بالدين الحق مجرد المصلحة الدنيوية من إقامة العدل بين الناس فى الأمور الدنيوية ، كما يقوله طوائف من المتفلسفة فى مقصود النواميس والنبوات : أن المراد بها مجرد وضع ما يحتاج إليه معاشهم فى الدنيا من القانون العدلى الذى ينتظم به معاشهم ، لكن هذا قد يكون المقصود فى أديان من لم يؤمن بالله ورسوله من أتباع الملوك المتفلسفة ونحوهم ، مثل : قوم نوح ، ونمرود ، وجنكيزخان [٤] وغيرهم [٥] .

---

(١) فى الأصل : فى محبته .

(٢) فى الأصل : حسن ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : هى .

(٤) فى الأصل : جنكيسخان ، وأشير إلى الهامش حيث كتب « جنكيز خان » وفوقها كلمة « صوابه » .

(٥) فى الأصل : وغيرها .

فإن كل طائفة من بنى آدم محتاجون إلى التزام واجبات ، وترك محرّمات ، يقوم بها معاشهم وحياتهم الدنيوية . وربما جعلوا مع ذلك ما به يستولون به على غيرهم من الأصناف ويقهرونه ، كفعل الملوك الظالمين مثل جنكيزخان [١] .

فإذا لم يكن مقصود الدين والناموس الموضوع إلا جلب المنفعة فى الحياة الدنيا ، ودفع المضرة فيها ، فليس لهؤلاء فى الآخرة من خلاق ، ثم إن كان مع ذلك جعلوه ليستولوا به على غيرهم من بنى آدم ويقهرونهم ، كفعل فرعون وجنكيزخان [١] ونحوهما ، فهؤلاء من أعظم الناس عذابا فى الآخرة .

كما قال تعالى : ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة القصص : ٣ ، ٤] . ظ ١٥٦

وقد قص الله سبحانه قصة فرعون فى غير موضع من القرآن ، وكان هو وقومه على دين لهم من دين الملوك ، كما قال تعالى فى قصة يوسف : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ ﴾ [سورة يوسف : ٧٦] وهذا الملك كان فرعون يوسف ، وكان قبل فرعون موسى . وفرعون اسم لمن يملك مصر من القِبْط [٢] ، وهو اسم جنس كقيصر وكسرى والنجاشى ونحو ذلك .

وهؤلاء المتفلسفة الصابئة المبتدعة من المشّائين ، ومن سلك مسلكهم من المنتسبين إلى الملل فى المسلمين واليهود والنصارى ، يجعلون الشرائع والنواميس

---

(١) فى الأصل : جنكيسخان .

(٢) فى « لسان العرب » : « والقِبْط : جيل بمصر ، وقيل : هم أهل مصر وبُنْكُها » .

والديانات من هذا الجنس [١] ، لوضع قانون تتم به مصلحة الحياة الدنيا ، ولهذا لا يأمرون فيها بالتوحيد ، وهو عبادة الله وحده ، ولا بالعمل للدار الآخرة ، ولا ينهون فيها عن الشرك ، بل يأمرون فيها بالعدل والصدق والوفاء بالعهد ، ونحو ذلك من الأمور التى لا تتم مصلحة الحياة الدنيا إلا بها [٢] ، ويشرعون التأله للمخلصين والمشركين .

وقد تكلمت على أقسام الديانات فى غير هذا الموضع ، وبيّنت الطبعى ، والملّى ، والشرعى . وإنما جاء ذكر هذا هنا مطردا .

ولهذا يقيمون النواميس بأنواع من الحيل والسحر والطلسمات [٣] ، كما وضعوه فى كتب ذلك ، ويقولون فى بعض الطيالسم : هذا يصلح لوضع النواميس ، كما [٤] تواصت القرامطة والباطنية ، وكما كان يفعله سحرة فرعون وغيرهم – وآثارهم موجودة بذلك إلى اليوم – وكما يفعله المشركون من الترك والهند فى بلادهم .

---

(١) فى الأصل : الجيش ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : ابهاً ، وهو تحريف .

(٣) فى « شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل » لشهاب الدين الخفاجى : مادة « طلسم » : « طلسم : لفظ يونانى لم يعربه من يوثق به ، وكونه مقلوبا من مسلط وَهْمٌ لا يعتد به . وفى « السر المكتوم » : هو عبارة عن علم بأحوال تمزيج القوى الفعالة السماوية بالقوى المنفعلة الأرضية لأجل التمكن من إظهار ما يخالف العادة والمنع مما يوافقها . انتهى » وانظر الصفدية ٦٦/١ . وفى « دستور العلماء » لعبد النبى بن عبد الرسول الأحمدنكرى (ط . حيدر آباد) ٢٧٨/٢ : « الطلسم علم يتعرف منه كيفية تمزيج القوى العالية الفعالة بالسافلة المنفعلة ليحدث عنها أمر غريب فى عالم الكون والفساد . واختلف فى معنى الطلسم . والمشهور أقوال ثلاثة : الأول : أن الطل بمعنى الأثر فالمعنى أثر اسم . الثانى : أنه لفظ يونانى معناه : عقد لا ينحل . الثالث : أنه كناية عن مسلط . وعلم الطلسمات أسرع تناولا من علم السحر وأقرب مسلكا ، وللسكاكى فى هذا الفن كتاب جليل القدر عظيم الخطر » .

(٤) فى الأصل : وكما .

والمتفلسفة الصابئة تجعل ذلك جنسا لما بُعثت به الرسل من الآيات ، ويجعلون موسى والسحرة والذين عارضوه من جنس واحد .

وهؤلاء كما قال تعالى فيهم : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] هم مقرُّون بأن منفعة ذلك لا تكون فى الآخرة ، وإنما يرجون منفعته فى الدنيا ، وإن كان فيه بلوغ بعض الأعراض من رئاسة أو شهوة [(١)] .

فهو كما قال الله تعالى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] إذ ما فيه من المضرة يربو [(٢)] على ما فيه من الخير [(٣)] . قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٣] ، ولهذا كان ما نهى عنه من هذا الجنس إنما هو / لكون الضرر فيه أغلب من المنفعة ، فأما ما ينفع الناس فلم ينه الله عنه . ص ١٥٧

ولهذا لما عرض على النبى ﷺ الرقى [(٤)] قال : « من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل » [(٥)] وقال : « لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك » [(٦)] .

---

(١) توجد فى أعلى الصفحة كلمات كتب بعضها فوق بعض غير واضحة وكأنها : « لدى غير الله شر كبير كله » .

(٢) فى الأصل : يزكى ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : الحظ ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : الرقا .

(٥) ورد الحديث عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى موضعين فى : مسلم ١٧٢٦/٤ (كتاب السلام ، باب استحباب الرقية من العين ...) . وجاء الحديث أيضا عنه فى المسند (ط . الحلبى) ٣٠٢/٣ ، ٣٣٤ ، ٣٨٢ ، ٣٩٣ .

(٦) فى الأصل : شر ، وهو تحريف . والحديث عن عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه فى : مسلم ١٧٢٧/٤ (كتاب السلام ، باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك) ؛ سنن أبى داود ١٥/٤ (كتاب الطب ، باب ما جاء فى الرقى) .

وذكر البخارى فى صحيحه فى استخراج السحر عن قتادة قال : « قلت لسعيد بن المسيب : رجل به طب أو يُؤَخَّذ عن امرأته : أَيُحَلُّ عنه أو يُنَشَّر ؟ قال : لا بأس به ، إنما يريدون به الإصلاح ، فأما ما ينفع الناس فلم يُنْهَ عنه [1] .

فصل

الحب أصل كل عمل والتصديق بالمحبة هو أصل الإيمان

وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل ، وهو [2] أصل الأعمال الدينية وغيرها ، وأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله ، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله ، فالتصديق بالمحبة هو [3] أصل الإيمان ، وهو قول وعمل ، كما قد بُيِّن فى غير هذا الموضع .

ومعلوم أن قوة [4] المحبة لكل محبوب يتفاوت الناس فيها تفاوتا عظيما ،

---

(١) جاء هذا الأثر فى : البخارى ١٣٧/٧ (كتاب الطب ، باب هل يستخرج السحر) . وقال ابن حجر فى : فتح البارى ٢٣٣/١٠ : « .... عن قتادة عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يرى بأسا إذا كان بالرجل سحر أن يمشى إلى من يطلق عنه ، فقال : هو صلاح . قال قتادة : وكان الحسن يكره ذلك يقول : لا يعلم ذلك إلا ساحر . قال : فقال سعيد بن المسيب : إنما نهى الله عمّا يضر ولم ينه عمّا ينفع . وقد أخرج أبو داود فى « المراسيل » عن الحسن رفعه : « النشرة من عمل الشيطان » ووصله أحمد وأبو داود بسند حسن عن جابر . قال ابن الجوزى : « النشرة حل السحر عن المسحور ، ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر . وقد سئل أحمد عمن يطلق السحر عن المسحور ، فقال : لا بأس به .... قوله : (به طب) بكسر الطاء أى سحر ، وقد تقدم توجيهه . قوله : (أويؤَخَّذ) بفتح الواو مهموز وتشديد الخاء المعجمة وبعدها معجمة : أى يحبس عن امرأته ولا يصل إلى جماعها . والأُخذة بضم الهمزة : هى الكلام الذى يقوله الساحر . وقيل : خرزة يرقى عليها ، أو هى الرقية نفسها . قوله : (أَوَيُحَلُّ عنه) بضم أوله وفتح المهملة . قوله : (أو يُنَشَّر) بتشديد المعجمة من النُّشرة بالضم ، وهى ضرب من العلاج يعالج به من يظن أن به سحرا أو مسًّا من الجن ، قيل لها ذلك لأنه يكشف بها عنه ما خالطه من الداء » .

(٢) فى الأصل : وهى .

(٣) فى الأصل : هى .

(٤) كلمة « قوة » غير واضحة فى الأصل ، وكذا استظهرتها .

ويتفاوت حال الشخص الواحد فى محبة [(١)] الشيء الواحد ، بحيث يقوى الحب تارة ويضعف تارة ، بل قد يتبدل أقوى [الحب] [(٢)] بأقوى البغض وبالعكس .

قال تعالى : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ ﴾ إلى قوله : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ [سورة الممتحنة : ١ - ٤] ، وإبراهيم هو إمام الحنفاء الذين يحبهم الله ويحبونه ، وهو خليل الله .

وقال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۞ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّى إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ٧٥ - ٧٧] .

وقال تعالى أيضا : ﴿ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٦] وقال بعد ذلك : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٩] .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] .

ولا ريب أن محبة المؤمنين لربهم أعظم المحبات ، وكذلك محبة الله لهم هى محبة عظيمة جدا ، كما فى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يقول الله تعالى : من عادى لى وليًّا فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرب إلىَّ عبدى

---

(١) فى الأصل : المحبة .

(٢) فى الأصل : أقوى ، وفوقها : كذا . ورأيت أن إثبات كلمة « الحب » يستقيم به الكلام .

بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى [١] يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينَّه ، ولئن [٢] استعاذنى لأعيذنّه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولابد له منه » [٣] .

تأويل طوائف من المسلمين للمحبة تأويلات خاطئة

وقد تأوّل الجهمية – ومن اتبعهم من أهل الكلام – محبة الله لعبده على أنها الإحسان إليه ، فتكون من الأفعال .

ظ ١٥٧

وطائفة أخرى من الصفاتية قالوا : هى إرادة / الإحسان . وربما قال كلا من القولين بعض المنتسبين إلى السنة من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم .

وسلف الأمة وأئمة السنة على إقرار المحبة على ما هى عليه .

وكذلك محبة العبد لربه يفسّرها كثير من هؤلاء بأنها إرادة العبادة له ، وإرادة التقرب إليه ، لا يثبتون أن العبد يحب الله .

وسلف الأمة ، وأئمة السنة ، ومشايخ المعرفة ، وعامة أهل الإيمان : متفقون على خلاف قول هؤلاء المعطِّلة لأصل الدين ، بل هم متفقون على أنه لا يكون شىء من أنواع المحبة أعظم من محبة العبد ربه .

كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] ، وقال

---

(١) فى الأصل : الذى .

(٢) فى الأصل : ولا .

(٣) مضى هذا الحديث من قبل فى هذه المجموعة (ص ٢٧ الصفات ١٠٧ شرح) .

تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] ، فلم يرض [إلا] (١) بأن يكون الله ورسوله أحب إليهم من الأهلين والأموال ، حتى يكون الجهاد فى سبيل الله الذى هو من كمال الإيمان .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [سورة الحجرات : ١٥] . ولهذا وصف الله المحبِّين له الذين يحبهم هو بالجهاد ، فقال تعالى : ﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] .

تنازع الناس فى لفظ « العشق »

وأما تنازع الناس فى لفظ « العشق » فمن الناس من أهل التصوف والكلام وغيرهم من أطلق هذا اللفظ فى حق الله ، كما روى عبد الواحد بن زيد (٢) فيما يؤثره عن [أحد أنبياء] الله(٣) أنه قال : « عشقنى وعشقته » .

---

(١) زدت « إلا » ليستقيم الكلام .

(٢) عبد الواحد بن زيد البصرى صوفى وواعظ لحق الحسن البصرى وغيره ، متروك الحديث ، وقال البخارى : عبد الواحد صاحب الحسن تركوه ، وقال الجوزجانى : سيىء المذهب ليس من معادن الصدق . توفى سنة ١٧٧ . انظر ترجمته وأقواله فى : العبر ١/٢٧٠ ؛ شذرات الذهب ١/٢٨٧ ؛ ميزان الاعتدال ٢/٦٧٢ – ٦٧٣ ؛ لسان الميزان ٤/٨٠ – ٨١ ؛ حلية الأولياء ٦/١٥٥ – ١٦٥ ؛ الطبقات الكبرى ١/٣٩ – ٤٠ .

(٣) فى الأصل : ىاىـره (غير منقوطة) عن الله . ولعل الصواب ما أثبته . وانظر كلام ابن تيمية بعد قليل (ص ٢٤٠) .

وقال هؤلاء : العشق هو المحبة الكاملة التامة ، وأَوْلى الناس بذلك هو الله ، فإنه هو الذى يجب أن يُحب أكمل محبة ، وكذلك هو يحب عبده محبة كاملة .

ولو قيل : إن العشق هو منتهى المحبة أو أقصاها ، أو نحو ذلك ، فهذا المعنى حق من العبد ، فإنه يحب ربه منتهى المحبة وأقصاها ، والله يحب عبده ، مثل إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم تسليما ، أقصى محبة تكون لعباده ومنتهاها ، وهما خليلا الله .

كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله قد اتخذنى خليلا ، كما اتخذ إبراهيم خليلا » [١] . وقال : « لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله » [٢] .

وذهب طوائف من أهل العلم والدين إلى إنكار ذلك فى حق الله . ولا رَيْب أن هذا اللفظ ليس مأثوراً عن أئمة السلف .

ص ١٥٨

والذين أنكروه لهم من جهة اللفظ / مأخذان ، ومن جهة المعنى مأخذان :

منكرو لفظ العشق لهم من جهة اللفظ مأخذان ومن جهة المعنى مأخذان

أما من جهة اللفظ : فإن هذا اللفظ ليس مأثورا عن السلف . وباب الأسماء والصفات يُتَّبع فيها الألفاظ الشرعية ، فلا نطلق [إلا] [٣] ما يرد به الأثر .

المأخذ الأول من جهة اللفظ

---

(١) ورد هذا الحديث مطولاً عن جندب رضى الله عنه فى مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهى عن بناء المساجد على القبور .

(٢) جاءت العبارات الأولى من هذا الحديث إلى قوله : « .... لاتخذت أبا بكر خليلا » جزءاً من أحاديث كثيرة عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم . ولكن الحديث بهذا النص جاء عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : مسلم ١٨٥٥/٤ (كتاب فضائل الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، باب من فضائل أبى بكر الصديق رضى الله عنه) .

(٣) زدت « إلا » ليستقيم الكلام .

والأوّلون يستدلون بمثل قول عبد الواحد بن زيد ونحوه .

وهؤلاء يقولون : هذا من الإسرائيليات التى لا يجوز الاعتماد عليها فى شرعنا ، فإن ثبوت مثل هذا الكلام عن الله لا يُعلم إلا من جهة نبينا ﷺ ، وذلك غير مأثور عنه . ونحن لا نصدِّق بما ينقل عن الأنبياء المتقدمين ، إلا أن يكون عندنا ما يصدِّقه ، كما لا نكذِّب إلا بما نعلم أنه كذب . وقد قال النبى ﷺ : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدِّقوهم ولا تكذِّبوهم ، فإما أن يحدثوكم بباطل فتصدّقوه ، وإما يحدثوكم بحق فتكذّبوه » (١) . وهذا الوجه يقتضى الامتناع من الإطلاق ، إلا [عند] (٢) الجزم بتحريمه فى جميع الشرائع .

المأخذ الثانى

المأخذ الثانى : أن المعروف من استعمال هذا اللفظ فى اللغة إنما هو فى محبة جنس النكاح ، مثل حب الإنسان الآدمى مثله ممن يستمتع به من امرأة

---

(١) جاء هذا الحديث بألفاظ مقاربة عن أبى نملة الأنصارى رضى الله عنه ونصه فى : سنن أبى داود ١٤٣٣/٣ (كتاب العلم ، باب رواية حديث أهل الكتاب) : « .... أخبرنى ابن أبى نملة الأنصارى عن أبيه أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ وعنده رجل من اليهود مرَّ بجنازة ، فقال : يا محمد ، هل تتكلم هذه الجنازة ؟ فقال النبى ﷺ : « الله أعلم » فقال اليهودى : إنها تتكلم . فقال رسول الله ﷺ : « ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله ورسله ، فإن كان باطلا لم تصدقوه ، وإن كان حقا لم تكذبوه » . وهو فى : المسند (ط . الحلبى) ١٣٦/٤ ؛ موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان لعلى بن أبى بكر الهيثمى (تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة ، ط . السلفية) ص ٥٨ . وضعف الألبانى الحديث فى « ضعيف الجامع الصغير وزيادته » ٩١/٥ وقال السيوطى : حم (المسند) ، د (سنن أبى داود) ، حب (صحيح ابن حبان) هق (سنن البيهقى) عن أبى نملة الأنصارى . على أن حديثا صحيحا مقاربا جاء عن أبى هريرة رضى الله عنه ونصه فى : البخارى ١٨١/٣ (كتاب الشهادات ، باب لا يُسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها) : « وقال أبو هريرة عن النبى ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أُنزل .... الآية » . وجاء هذا الحديث فى مواضع أخرى فى : البخارى ٢٠/٦ - ٢١ (كتاب التفسير ، سورة البقرة ، باب قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا ....) ، ١١١/٩ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبى ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب عن شئ) ، ١٥٧/٩ (كتاب التوحيد ، باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب العربية) .

(٢) زدت « عند » ليستقيم الكلام .

أو صبى . فلا يكاد يُستعمل هذا اللفظ فى محبة الإنسان لولده وأقاربه ووطنه وماله ودينه وغير ذلك ، ولا فى محبته لآدمى لغير صورته : مثل محبة الآدمى لعلمه ، ودينه ، وشجاعته ، وكرمه ، وإحسانه ، ونحو ذلك . بل المشهور من لفظ « العشق » هو محبة النكاح ومقدماته ، فالعاشق يريد الاستمتاع بالنظر إلى المعشوق ، وسماع كلامه أو مباشرته بالقبلة والحس والمعانقة أو الوطء (١) ، وإن (٢) كان كثير من العشاق لا يختار الوطء ، بل يحب [تقبيل ومعانقة] موطوءته (٣) ، فهو يحب مقدمات الوطء . وكم ممن اشتغل بالوسيلة عن المقصود .

ثم لفظ « العشق » قد يُستعمل فى غير ذلك ، إما على سبيل التواطؤ (٤) ، فيكون حقيقة فى القدر المشترك ، وإما على سبيل المجاز .

لكن استعماله فى محبة الله إما أن يُفهِم أو يُوهم المعنى الفاسد ، وهو أن الله يُحِب ويُحَب ، كما تحب صور الآدميين التى نستمتع بمعاشرتها ووطئها ، وكما (٥) تحب الحور العين التى فى الجنة .

وهذا المعنى من أعظم الكفر ، وإن كان قد بلغ إلى هذا الكفر الاتحادية ، الذين يقولون : « إنه عين الموجودات » (٦) ، ويقولون : « ما نكح سوى نفسه ، وهو الناكح والمنكوح » (٧) .

---

(١) فى الأصل : الوطى .

(٢) فى الأصل : إن .

(٣) فى الأصل : بل يحب رطوبته ، وكتب فوقها « كذا » . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٤) فى الأصل : التواطى .

(٥) فى الأصل : كما .

(٦) انظر ما سبق فى المجموعة الأولى ، ص ١٠٤ – ١٠٥ ، ٢٠٤ .

(٧) انظر ما سبق ١٦٥/١ .

ظ ١٥٨

وكذلك الذين يقولون بالحلول العام ، / والذين يقولون بالاتحاد فى صور معينة [١] ، أو بحلوله فيها [٢] ، كما يقوله الغالية من النصارى والرافضة وغالية النسّاك ، فإن هؤلاء يصفونه بما يوصف به البشر من النكاح ، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوا كبيرا ، هو الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

ومن هؤلاء من يعشق الصور الجميلة ، ويزعم أنه يتجلى فيها [٣] ، وأنه إنما يحب مظاهر جماله . وقد بسطنا الكلام فى كفرهم وضلالهم [٤] فى غير هذا الموضع . فمن زعم أن الله يحب أو يعشق وأشار إلى هذا المعنى ، فهو أعظم كفرا من اليهود والنصارى .

المأخذ المعنوى قيل إن العشق فساد فى الحب والإرادة

وأما المأخذ المعنوى : فهو أن العشق : هل هو فساد فى الحب والإرادة ، أو فساد فى الإدراك والمعرفة ؟ قيل : إن العشق هو الإفراط فى الحب حتى يزيد على القصد الواجب ، فإذا أفرط كان مذموما فاسدا ، مفسدا للقلب والجسم ، كما قال تعالى : ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٢] ، فمن صار [مُفْرِطاً صار مريضا] [٥] ، كالافراط فى الغضب والإفراط فى الفرح وفى الحزن .

وهذا الإفراط قد يكون فى محبة الإنسان لصورته ، وقد يكون فى محبته لغير ذلك ، كالإفراط فى حب الأهل والمال ، والإفراط فى الأكل والشرب وسائر أحوال

---

(١) فى أعلى هذه الصفحة إلى اليسار كتب عبارة كأنها « أصحاب الإمام كذلك التقرب » .
(٢) فى الأصل : أو ما كوله فيها ، وهو تحريف . وأحسب أن الصواب ما أثبته .
(٣) فى الأصل : أنه يتلجى ، وهو تحريف . والمقصود أنهم يقولون إن الله تعالى يتجلى فى الصور الجميلة .
(٤) فى الأصل : وظلالهم .
(٥) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

الإنسان ، وهذا المعنى ممتنع فى حق الله من الجهتين ، فإن الله لا يُحِبُّ محبة زيادة على العدل . ومحبة عباده المؤمنين له ليس لها حد تنتهى إليه ، حتى تكون الزيادة إفراطا وإسرافا ومجاوزة للقصد . بل الواجب أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه منه كما يكره أن يلقى فى النار » وفى رواية فى الصحيح « لا يجد عبد / حلاوة الإيمان حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .... » إلى آخره [١] ، وقال : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » [٢] .

ص ١٥٩

وفى الصحيح أن عمر قال له : يا رسول الله والله لأنت أحب إلىَّ من كل شيء إلا من نفسى ، فقال : « لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك » ، قال : فلأنت أحب إلى من نفسى ، قال : « الآن يا عمر » [٣] .

وقد تقدم دلالة القرآن على هذا الأصل بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] .

وقيل إن العشق فساد فى الإدراك والتخيل والمعرفة

وقيل : إن العشق هو فساد فى الإدراك والتخيل والمعرفة ؛ فإن العاشق يخيل

(١) مضى هذا الحديث من قبل فى هذه القاعدة ، ص (١٢) .
(٢) مضى هذا الحديث من قبل فى هذه القاعدة ، ص (١٢) .
(٣) مضى هذا الحديث من قبل فى هذه القاعدة ، ص (١٢) .

له المعشوق على خلاف ما هو به حتى يصيبه ما يصيبه من داء العشق ، ولو أدركه على الوجه الصحيح لم يبلغ إلى حد العشق ، وإن حصل له محبة وعلاقة .

ولهذا يقول الأطباء : العشق مرض وسواسى شبيه بالمالنخوليا ، فيجعلونه من الأمراض الدماغية التى تفسد التخيل كما يفسده المالنخوليا .

وإذا كان الأمر كذلك امتنع فى حق الله من الجانبين . فإن الله بكل شيء عليم . وهو سميع بصير ، مقدّس منزّه عن نقص أو خلل فى سمعه وبصره وعلمه . والمحبون [١] له عباده المؤمنون الذين آمنوا به وعرفوه بما تعرَّف به إليهم من أسمائه وآياته ، وما قذفه فى قلوبهم من أنوار معرفته ، فليست محبتهم إياه عن اعتقاد فاسد .

لكن قد يقال : إن كثيرا [٢] ممن يكون فيه نوع محبة لله ، قد يكون معها اعتقاد فاسد ، إذ الحب يستتبع الشعور ، لا يستلزم صريح المعرفة ، لا سيما من كان من عقلاء المجانين ، الذين عندهم محبة لله وتألّه ، وفيهم فساد عقل ، فهؤلاء قد يصيب أحدهم ما يصيب العشاق فى حق الله ، ومعهم حب شديد ، ونوع من الاعتقاد والفاسد .

وكثيرا [٣] ما يعترى أهل المحبة من السكر والفناء ، أعظم ما يصيب السكران بالخمر ، والسكران بالصور ، كما قال تعالى فى قوم لوط : ﴿ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [سورة الحجر : ٧٢] ، فالحب له سكر أعظم من سكر الشراب ، كما قيل :

---

(١) فى الأصل : والمحبوب . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : كثير ، وهو خطأ .

(٣) فى الأصل : وكثير .

سُكْرانِ : سكر هوىً وسكر مدامة   ومتى إفاقة من به سكران

ومعلوم أنه فى حال السكر والفناء تنقص المعرفة والتمييز ، ويضطرب العقل والعلم ، / فيحصل فى ضمن ذلك من الاعتقادات والتخيلات الفاسدة ، ما هو من جنس العشق الذى فيه فساد الاعتقاد .

ظ ١٥٩

وهؤلاء محمودون على ما معهم من محبة الله والأعمال الصالحة والإيمان به ، وأما ما معهم من اعتقاد فاسد وعمل فاسد لم يشرعه الله ورسوله ، فلا يُحمدون على ذلك . لكن إن كانوا مغلوبين على ذلك ، بغير تفريط [١] منهم ولا عدوان ، كانوا معذورين ، وإن كان ذلك لتفريطهم فيما أمروا به ، وتعديهم حدود الله ، فهم مذنبون فى ذلك ، مثل ما يصيب كثيرا ممن يهيج حبه عند [٢] سماع المكاء والتصدية والأشعار الغزلية ، فتتولد لهم أنواع من الاعتقادات والإرادات التى فيها الحق والباطل ، وقد يغلب هذا تارة وهذا تارة .

فباب محبة الله ضل فيه فريقان من الناس : فريق من أهل النظر والكلام والمنتسبين إلى العلم ، جحدوها وكذَّبوا بحقيقتها .

وفريق من أهل التعبد والتصوف والزهد ، أدخلوا فيها من الاعتقادات والإرادات الفاسدة ما ضاهوا [٣] بها المشركين .

فالأولون يشبهون المستكبرين . وهؤلاء يشبهون المشركين .

ولهذا يكون الأول فى أشباه اليهود ، ويكون الثانى فى أشباه النصارى .

وقد أمرنا الله تعالى أن نقول : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّين ﴾ .

---

(١) فى الأصل : تفرط .

(٢) فى الأصل : عن .

(٣) فى الأصل : طاهو ، وهو تحريف .

فصل

كل محبة وبغضة يتبعها لذة وألم

ومن المعلوم أن كل محبة وبغضة فإنه يتبعها لذة وألم ، ففى نيل المحبوب لذة ، وفراقه يكون فيه ألم ، وفى نيل المكروه ألم ، وفى العافية منه تكون فيه لذة . فاللذة تكون [١] بعد إدراك المشتهى [٢] ، والمحبة تدعو [٣] إلى إدراكه .

فالمحبة : العلة الفاعلة لإدراك الملائم المحبوب المشتهى . واللذة والسرور هى الغاية .

اللذات ثلاثة أجناس
الأول : اللذة الحسية

واللذات الموجودة فى الدنيا ثلاثة أجناس : فجنس بالجسد تارة : كالأكل والنكاح ونحوهما مما يكون بإحساس الجسد ، فإن [أنواع] [٤] المأكول والملبوس يباشرها الجسد .

الثانى : اللذة الوهمية

ص ١٦٠

و [جنس] يكون [٥] مما يتخيله ويتوهمه بنفسه ونفس غيره ، كالمدح له ، والتعظيم له ، والطاعة له . / فإن ذلك لذيذ محبوب له ، كما أن فوات الأكل والشرب يؤلمه ، وأكل ما يضره يؤلمه . وكذلك فوات الكرامة – بحيث لا يكون له قدر عند أحد ولا منزلة – يؤلمه ، كما يؤلمه ترك الأكل والشرب . ويؤلمه الذم والإهانة ، كما يؤلمه الأكل والشرب الذى يضره .

فالمأكول والمنكوح هى أجساد تُنال بالجسد ، يتلذذ بوجودها ، ويتألم بفقدها ولحصول ما يضر منها [٦] . وأما الكرامة فهى فى النفوس إذا كانت النفوس

---

(١) فى الأصل : يكون .
(٢) فى الأصل : المنتهى ، وهو تحريف .
(٣) فى الأصل : يدعوا .
(٤) زدت « أنواع » ليستقيم الكلام .
(٥) فى الأصل : ويكون .
(٦) فى الأصل : ما يصير منها .

ملائمة له وموافقة له ، بأن يعتقد فيه ما يسره ويوافقه بالمحبة والتعظيم ، كان ذلك مما يوجب لذته ، ولذته بإدراكه ذلك الملائم من الناس ، ومدحهم المظهر لاعتقادهم ، ومن طاعتهم وموافقتهم المظهرة لمحبتهم [١] وتعظيمهم .

الثالث : اللذة العقلية

والجنس الثالث أن يكون ما يعلمه بقلبه وروحه وبعقله كذلك [٢] ، كالتذاذه [٣] بذكر الله ، ومعرفته ، ومعرفة الحق ، وتألمه بالجهل : إما البسيط [٤] ، وهو عدم الكلام والذكر ، وإما المركب وهو اعتقاد الباطل ، كما يتألم الجسد بعدم غذائه [٥] تارة ، وبالتغذى بالمضار أخرى .

كذلك النفس تتألم بعدم غذائها [٦] ، وهو [٧] موافقة الناس وإكرامهم تارة ، وبالتغذى [٨] بالضد ، وهو [٩] مخالفتهم وإهانتهم . فكذلك القلب يتألم بعدم غذائه ، وهو العلم [١٠] الحق وذكر الله تارة ، والتغذى بالضد ، وهو ذكر الباطل واعتقاده أخرى .

قال النبى ﷺ : « إن كل أحد يحب أن تؤتى مأدبته ، وإن مأدبة الله هى القرآن » [١١] .

---

(١) فى الأصل : المظهر ومحبتهم .
(٢) فى الأصل : بذلك .
(٣) فى الأصل : كالتذاذ .
(٤) فى الأصل : البسيطة .
(٥) فى الأصل : غذاه .
(٦) فى الأصل : عذابها .
(٧) فى الأصل : وهى .
(٨) فى الأصل : وبالتعدى .
(٩) فى الأصل : وهى .
(١٠) فى الأصل : المعلم .
(١١) لم أجد حديثا بهذه الألفاظ ، ولكنى وجدت أثراً عن عبد الله بن مسعود فى : سنن الدارمى =

وهذه اللذات الثلاث : اللذات الحسية ، والوهمية ، والعقلية . وقد علمت أن كل ما خلقه الله فى الحى من قوى الإدراك والحركة فإنما خلقه لحكمة ، وفى ذلك من جلب المنفعة للحى ، ودفع المضرة عنه ، ما هو من عظيم نعم الله عليه .

والله سبحانه بعث الرسل لتكميل الفطرة وتقريرها ، لا بتحويلها وتغييرها ، وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، والله شرع من الدين ما فيه استعمال هذه القوى على وجه العدل والاعتدال ، الذى فيه صلاح الدنيا والآخرة .

ومن المعلوم أن قوى الحركة فى الجسد ، التى هى حركات طبعية ، متى لم تكن (١) على وجه الاعتدال ، وإلا فسد الجسد . وكذلك قوى الإدراك والحركة التى فيه وفى النفس متى لم تكن (٢) على وجه الاعتدال ، وإلا فسد الجسد . والحركة الطبعية ليس فيها حس ولا إرادة ، وهذه / لا تكون عن حركة إرادية كما تقدم ، لكن لا يكون ذلك فى نفس المتحرك بطبعه (٣) ، كحركة الغذاء قبل أن يصرفه الخارج من السبيلين وغير ذلك . ظ ١٦٠

= ٤٣٣/٢ (كتاب فضائل القرآن ، باب فضل من قرأ القرآن) ونصه : « عن ابن مسعود قال : ليس من مؤدب إلا وهو يحب أن يؤتى أدبه ، وإن أدب الله القرآن » . وجاءت آثار أخرى عن ابن مسعود منها ما ذكره الدارمى فى الموضع السابق : كان عبد الله يقول : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فمن دخل فيه فهو آمن » . ومنها أثر آخر عنه فى سنن الدارمى ٤٢٩/٢ أوله : « إن هذا القرآن مأدبة الله فخذوا منه ما استطعتم .... » ومنها جزء من أثر طويل جاء فى مجمع الزوائد للهيثمى ١٦٤/٧ أوله : وعن عبد الله – يعنى ابن مسعود – قال : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبة الله ما استطعتم » ، وفى نفس المكان أورد الهيثمى أثرا ثانيا أوله : « وعن أبى الأحوص قال : قال ابن مسعود : هذا القرآن مأدبة الله ، فمن استطاع أن يتعلم منه شيئا فليفعل .... » .

(١) فى الأصل : يكن .

(٢) فى الأصل : فى من لم يكن .

(٣) فى الأصل : بطبعية .

شرع الله من اللذات ما فيه صلاح حال الإنسان وجعل اللذة التامة فى الآخرة

والله سبحانه قد شرع من هذه اللذات ما فيه صلاح حال الإنسان فى الدنيا [(١)] ، وجعل اللذة التامة بذلك فى الدار الآخرة ، كما أخبر الله بذلك على ألسن رسله بأنها هى دار القرار ، وإليها تنتهى حركة العباد .

واللذة هى الغاية من الحركات الإرادية ، فتكون الغاية من اللذات عند الغاية من الحركات ، ولا يخالف ما يوجد فى الوسيلة والطريق ، فإن الموجود فيها من اللذات بقدر ما يعين على الوصول إلى المقصود التام ، وكل لذة ، وإن جلَّت ، هى فى نفسها مقصودة لنفسها ، إذ المقصود لنفسه هو اللذة . لكن من اللذات ما يكون عونا على ما هو أكثر منه أيضا ، فيكون مقصوداً لنفسه بقدره ، ويكون مقصودا لغيره بقدر ذلك الغير ، وهذا من تمام نعمة الله على عباده ، وكل ما يتنعمون به ، إذا استعملوه على وجه العدل الذى شرعه ، أوصلهم به إلى ما هو أعظم نعمة منه .

ولذات الجنه أيضا تتضاعف وتتزايد كما يشاء الله تعالى ، فإن الله يقول ، كما ذكره النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » [(٢)] وقد قال الله تعالى فى كتابه : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [سورة السجدة : ١٧] .

---

(١) فى الأصل : قد شرع الدنيا من ... فى الدنيا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى صحيح البخارى ١٤٤/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى « يريدون أن يبدلوا كلام الله ») ، ١١٨/٤ (كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة) ، ١١٦/٦ (كتاب تفسير القرآن ، باب تفسير سورة تنزيل السجدة) . وأول الحديث فى هذا الموضع الأخير : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادى .... والحديث فى : مسلم ٢١٧٤/٤ (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها) فى أربعة مواضع ؛ سنن الترمذى ٢٦/٥ (كتاب التفسير ، باب تفسير سورة السجدة) ؛ سنن ابن ماجة ١٤٤٧/٢ (كتاب الزهد ، باب صفة الجنة) ؛ سنن الدارمى ٣٣٥/٢ (كتاب الرقائق ، باب ما أعد الله لعباده الصالحين) ؛ المسند (ط . المعارف) ٤٦/١٧ ، ١٠٤/١٩ .

ولهذا بعث الله الرسل مبشِّرين ومنذرين : مبشِّرين بنعمة الله التامة فى جنته لمن أطاعهم ، فاتّبع الذكر الذى أنزل عليهم ، واستعمل [(١)] القسط الذى بعثوا به . ومنذرين بتعظيمهم عقاب الله لمن أعرض عن ذلك وعصاهم فكان من الظالمين .

قال تعالى : ﴿ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَىٰ ۞ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [سورة طه : ١٢٣ ، ١٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٣٨ ، ٣٩] .

غلط المتفلسفة ومن اتبعهم فى أمر هذه اللذات

وقد غلطت المتفلسفة من الصابئة والمشركين ونحوهم ، ومن حذا حذوهم ممن صنَّف فى أصناف هذه اللذات ، كالرازى [(٢)] وغيره فى أمر هذه اللذات فى الدنيا والآخرة ، حتى جرَّهم ذلك الغلط إلى الدين الفاسد فى الدنيا بالاعتقادات الفاسدة ، والعبادات والزهادات الفاسدة ، وإلى التكذيب بحقيقة ما أخبر الله به على ألسن رسله من وعده ووعيده ، / فصاروا تاركين لما ينفعهم من لذات الدنيا ، معرضين عما خلقوا له من لذات الآخرة ، ومعتاضين عن ذلك بأخذ ما يضرهم مما يظنون أنه لذة فى الدنيا ، أو موصل للذة فى الدنيا ، وهم فى ذلك : ﴿ إن

ص ١٦١

---

(١) فى الأصل : واستعمال .

(٢) لفخر الدين الرازى كتاب « أقسام اللذات » ومنه نسخة خطية فى برلين وأخرى فى أفغانستان . انظر : محمد صالح الزركان : فخر الدين الرازى وآراؤه الكلامية والفلسفية ، ص ٧٨ – ٧٩ ، ط . دار الفكر ، بيروت .

يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِهِمُ الْهُدَى ﴾ [سورة النجم : ٢٣] ، فجهلوا المقاصد والوسائل ، فكانوا ضالين يقصدون ما ينفعهم ويلذهم ، وهم لا يعرفون عين مقصودهم ولا الطريق إليه ، وصار عامتهم غواة منهمكين فى اللذات التى تضرهم .

ضل الأنصارى كذلك فى أمر اللذات

والنصارى ضارعوهم فى بعض ذلك حين كذّبوا بكثير مما وعدوا به فى الآخرة من اللذات ، وضلّوا بما ابتدعوه من العبادات ، فكانوا ضالين ، كما قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [سورة المائدة : ٧٧] ، ولهذا يغلب على عوامهم الغىّ واتباع شهوات الغى ، إذ لم يحرموا عليهم شيئا من المطاعم والمشارب .

اليهود أعلم لكنهم غواة قساة

وأما اليهود فهم أعلم بالمقصود وطريقه ، لكنهم غواة قساة ، مغضوب عليهم .

ويتبين ذلك بأصلين : أحدهما أنهم [١] اعتقدوا أن اللذات الحسية والوهمية ليست لذات فى الحقيقة ، وإنما هى دفع آلام ، وربما حسّنوا العبارة [٢] فقالوا : ليس المقصود بها التنعم ، وإنما المقصود بها دفع الألم ، بخلاف اللذات العقلية الروحانية ، فإنها هى اللذات فقط ، وهى المقصودة [٣] لذاتها فقط ، وعن هذا يدفعون أن تكون للنفوس بعد مفارقة الدنيا لذات حسية ، أو وهمية ، وإنما يكون لها لذات روحانية فقط .

---

(١) الكلام فيما يلى على الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام .

(٢) فى الأصل : العارة .

(٣) فى الأصل : المقصود .

تفصيل مقالة الفلاسفة في اللذة

ثم إن من دخل مع أهل الملل منهم وافق [(١)] المؤمنين بإظهاره للإقرار بما جاءت به الرسل ، وقال : إن ما [(٢)] أخبرت به الرسل من الوعد والوعيد إنما هو أمثال مضروبة لتفهم العامة المعاد الروحانى ، وما فيه من اللذة والألم الروحانيين ، وربما يغرب بعضهم فأثبت اللذات الخيالية ، بناءً على أن النفوس يمكن أن يحصل لها من إشراق الافلاك [عليها] [(٣)] ما يحصل لها به من اللذة ما هو من أعظم اللذات الخيالية ، التى قد يقولون : هى أعظم من الحسية .

ظ ١٦١

الأصل الثانى : / أن اللذات العقلية التى أقرُّوا بها لم تحصل لهم ، ولم يعرفوا الطريق إليها ، بل ظنوا أن ذلك إنما [هو] [(٤)] إدراك الوجود المطلق بأنواعه وأحكامه ، وطلبوا اللذة العقلية فى الدنيا بما هو من هذا النمط من الأمور العقلية ، وتكلموا فى الإلٰهيات بكلام حقه قليل وباطله كثير ، فكانوا طالبين للذة العقلية التى أثبتوها بالأغذية الفاسدة التى تضر وتؤلم ، أكثر من طلبها بالأغذية النافعة ، بل كانوا فاقدين لغذائها الذى لا صلاح لها إلا به ، وهو إخلاص الدين لله ، بعبادته [(٥)] وحده لا شريك له ، فإن هذا هو خاصة النفس التى خلقت له ، لا تصلح [إلا] [(٦)] به ، ولا تفسد [(٧)] فساداً مطلقا مع وجوده قط ، بل من بات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة .

كما ثبت ذلك فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال من وجوه متعددة — من

---

(١) فى الأصل : ناسو (بدون نقط) ولعل الصواب ما أثبته . والكلام هنا على الفلاسفة .

(٢) فى الأصل : وقال بما . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : يمكن أن يجعل لها من احترام الأفلاك ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) زدت « هو » ليستقيم الكلام .

(٥) فى الأصل : بعباده .

(٦) زدت « إلا » ليستقيم الكلام .

(٧) فى الأصل : يفسد .

حديث عثمان بن عفان ، وأبي ذر ، ومعاذ بن جبل ، وأبي هريرة وعتبان بن مالك ، وعبادة بن الصامت ، وغيرهم – : ولا يخلد فى النار من أهل التوحيد أحد ، بل يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال دينار من إيمان أو مثقال شعيرة من إيمان أو مثقال ذرة من إيمان (١) .

وقد تكلمت على رسالة المبدأ والمعاد التى صنفها أبو على بن سينا (٢) ، وزعم أن فيها من الأسرار المخزونة من فلسفتهم بما يناسب هذا مما ليس هذا موضعه ، وبينت ما دخل عليهم من الجهل والكفر فى ذلك من وجوه بيّنة من لغاتهم ومعارفهم التى يفقهون بها ، ويعلمون صحة ما عليه أهل الإيمان بالله ورسوله ، وبطلان ما هم عليه مما يخالف ذلك من الحقيقة ، وإن زعموا أنهم موافقون لأهل الإيمان .

نعم هم مؤمنون ببعض ، وكافرون ببعض ، كما قد بيّنت أيضا مراتب ما معهم ومع غيرهم من الكفر والإيمان فى غير هذا الموضع ، وذكرت ما كفروا به مما خالفوا به الرسل ، وما آمنوا به مما وافقوهم [فيه] (٣) .

---

(١) جاءت أحاديث كثيرة عن النبى ﷺ فيها تصديق لما ذكره ابن تيمية هنا . انظر مثلا قوله ﷺ من حديث أنس بن مالك : « .... فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من إيمان فاخرجوه ... فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه ... » فى : البخارى ١٣٠/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة ....) وهو بمعناه فى مسلم ١٦٩/١ – ١٧٠ (كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية) . وانظر قوله ﷺ من حديث آخر لأنس بن مالك : « .... فمن كان فى قلبه مثقال حبة من برّة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها ...) فى : مسلم ١٨٣/١ (كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها) . وانظر : المسند (ط . المعارف) ٢٤٣/٤ ، (ط . الحلبى) ١٧/٣ ، ٩٤ – ٩٥ ، ١١٦ ؛ سنن ابن ماجة ٢٣/١ ، ١٤٤٣/٢ .

(٢) وهى « الرسالة الأضحوية فى أمر المعاد » حققها الدكتور سليمان دنيا ، ط . دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٣٦٨/١٩٤٩ وقد تكلم عليها ابن تيمية فى « درء تعارض العقل والنقل » انظر جـ ١ ص ٩ ، جـ ٥ ص ١٠ – ١٧ ، ص ٥٠ .

(٣) زدت « فيه » ليستقيم الكلام .

ص ١٦٢

فإن الله أمرنا بالعدل ، وأمرنا / أن نعدل بين الأمم ، كما قال تعالى لرسوله : ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [سورة الشورى : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [سورة الحديد : ٢٥] .

فصل

حب الله أصل التوحيد العملى

وإذا كان أصل الإيمان العملى هو حب الله تعالى ورسوله ﷺ ، وحب الله أصل التوحيد العملى ، وهو أصل التأليه ، الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له ، فإن العبادة أصلها أكمل أنواع المحبة ، مع أكمل أنواع الخضوع ، وهذا هو الإسلام .

وأعظم الذنوب عند الله الشرك به ، وهو سبحانه لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، والشرك : منه جليل ودقيق ، وخفى وجلى .

كما فى الحديث : « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل . فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله : إذا كان أخفى من دبيب النمل فكيف نصنع به ؟ أو كما قال ، فقال : ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من قليله وكثيره ؟ قل : اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما [لا] (١) أعلم » (٢) .

---

(١) لا : ساقطة من الأصل ، وزدتها لأنها من ألفاظ الحديث .

(٢) لم أجد حديثا عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه بهذا المعنى ولكنى وجدت فى مسند الإمام أحمد ٤٠٣/٤ (ط . الحلبى) حديثا آخر عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ونصه : « .... عن أبى على رجل من بنى كاهل قال : خطبنا أبو موسى الأشعرى فقال : يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل . فقام إليه عبد الله بن حزن وقيس بن المضارب فقالا : والله لتخرجن مما قلت أو لتأتين عمر =

أصل الإشراك العملى بالله الإشراك فى المحبة

فمعلوم أن أصل الإشراك العملى بالله الإشراك فى المحبة ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلّٰهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] ، فأخبر أن من الناس من يشرك بالله ، فيتخذ أندادا يحبونهم كما يحبون الله ، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبًّا لله من هؤلاء ، والمؤمنون أشد حبا لله من هؤلاء لأندادهم ولله ، فإن هؤلاء أشركوا بالله فى المحبة ، فجعل المحبة مشتركة بينه وبين الأنداد ، والمؤمنون أخلصوا دينهم لله الذى أصله المحبة لله ، فلم يجعلوا لله عدلا فى المحبة ، بل كان الله ورسوله أحب إليهم [١] مما سواهما ، ومحبة الرسول هى من محبة الله ، وكذلك كل حب فى الله ، وهو الحب لله .

المؤمنون يحبون لله ويبغضون لله

كما فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان » [٢] وفى رواية فى الصحيح « لا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان فيه ثلاث خصال : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى فى النار » [٣] .

ولهذا / فى الحديث : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، ‏ ظ ١٦٢

= مأذون لنا أو غير مأذون . قال : بل أخرج مما قلت . خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : « يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل » . فقال له من شاء الله أن يقول : وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال : « قولوا : اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلم » .

(١) فى الأصل : إليه .

(٢) مضى الحديث من قبل (ص : ١٩٨ ، ٢٤٣) .

(٣) مضى الحديث من قبل (ص : ١٩٨ ، ٢٤٣) .

فقد استكمل الإيمان »[١] وفى الأثر : ما تحاب رجلان فى الله إلا كان أفضلهما أشدهما حبا لصاحبه . لأن هذه المحبة من محبة الله ، وكل من كانت محبته لله أشد كان أفضل .

وخير الخلق محمد رسول الله ﷺ ، وخير البرية بعده إبراهيم ، كما ثبت ذلك فى الحديث الصحيح ، وكل منهما خليل الله .

والخُلَّة تتضمن كمال المحبة ونهايتها ، ولهذا لم يصلح لله شريك فى الخلة ، بل قال ﷺ فى الحديث الصحيح : « لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله »[٢] وفى لفظ : « أنا أبرأ إلى كل خليل من خلته »[٣] .

فمحبة ما يحبه الله لله من الأعيان والأعمال من تمام محبة الله ، وهو الحب فى الله ولله ، وإن كان كثير من الناس يغلط فى معرفة كثير من ذلك أو وجوده ، فيظن فى أنواع من المحبة أنها محبة لله ، ولا تكون لله ، ويظن وجود المحبة لله فى أمور ، ولا تكون المحبة لله موجودة ، بل قد يعتقد وجود المحبة لله وتكون معدومة ، وقد يعتقد فى بعض الحب أنه لله ، ولا يكون لله ، كما يعتقد وجود العلم أو العبادة

---

(١) الحديث عن أبى أمامة رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ٣٠٤/٤ (كتاب السنة ، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه) وهو – بألفاظ مقاربة – عن سهل بن معاذ الجهنى عن أبيه فى سنن الترمذى ٧٨/٤ (كتاب صفة القيامة ، باب منه) وقال الترمذى : هذا حديث منكر حسن . ؛ وهو فى المسند عنه (ط. الحلبى) ٤٣٨/٣ ، ٤٤٠ . وصححه الألبانى فى « صحيح الجامع الصغير » ٢٢٩/٥ وقال : « د (سنن أبى داود) والضياء عن أبى أمامة » .

(٢) مضى هذا الحديث من قبل (ص : ٢٣٩) .

(٣) الحديث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : سنن ابن ماجة ٣٦/١ (المقدمة ، باب فى فضائل أصحاب رسول الله ﷺ) ونصه : قال رسول الله ﷺ : « ألا إنى أبرأ إلى كل خليل من خلته ، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، إن صاحبكم خليل الله » . قال وكيع : يعنى نفسه .

أو غير ذلك من الصفات فى بعض الأشخاص والأحوال ، ولا يكون ثابتا ، وقد يعتقد فى كثير من الأعمال أنه معمول لله ، ولا يكون لله .

فمحبة ما يحبه الله من الأعمال الباطنة والظاهرة ، وهى الواجبات والمستحبات : إذا أحببت لله كان ذلك من محبة الله ، ولهذا يوجب ذلك محبة الله لعبده .

وكما فى الحديث الصحيح عن الله تعالى : « من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرب إلىَّ عبدى بمثل أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرَّب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به [(١)] ، وبصره الذى يبصر به [(١)] ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، / وبى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولابد له منه » [(٢)] .

ص ١٦٣

وكذلك محبة كلام الله وأسمائه وصفاته ، كما فى الحديث الصحيح : فى الذى كان يصلّى بأصحابه فيقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ : إما أن يقرأها وحدها ، أو يقرأ بها مع سورة أخرى . فأخبروا بذلك النبى ﷺ ، فقال : « سلوه : لِمَ يفعل ذلك ؟ فقال : لأنى أحبها ، فقال : [إن] حبك [إياها أدخلك الجنة] » [(٣)] .

---

(١) فى الأصل : بها ، وهو تحريف .

(٢) مضى الحديث من قبل (ص : ٢٦ - ٢٧) .

(٣) فى الأصل : فقال : حبكا . والصواب ما أثبته ، وهو لفظ الحديث فى سنن الترمذى ٣٤٤/٤ . وقد جمع ابن تيمية هنا بين حديثين الأول عن عائشة رضى الله عنه ونصه فى : البخارى ١١٥/٩ (كتاب التوحيد ، باب ما جاء فى دعاء النبى ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى) : « عن عائشة أن النبى ﷺ بعث رجلا على سرية وكان يقرأ لأصحابه فى صلاته فيختم بقل هو الله أحد . فلما =

وكذلك محبة ملائكة الله وأنبيائه وعباده الصالحين ، كما كان عبد الله بن عمر يدعو بالمواقف فى حجه فيقول : « اللهم اجعلنى أحبك ، وأحب ملائكتك ، وأنبياءك [1] وعبادك الصالحين ، اللهم حببنى إليك وإلى ملائكتك وأنبيائك وعبادك الصالحين » .

محبة الله مستلزمة لمحبة ما يحبه من الواجبات

بل محبة الله مستلزمة لمحبة ما يحبه من الواجبات كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ٣١] ، فإن اتباع رسوله هو من أعظم ما أوجبه الله تعالى على عباده وأحبه ، وهو سبحانه أعظم شئ بغضا لمن لم يتبع رسوله . فمن كان صادقا فى دعوى محبة الله اتّبع رسوله لا محالة ، وكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

الذنوب تنقص من محبة الله

والذنوب تنقص من محبة الله تعالى بقدر ذلك ، لكن لا تزيل المحبة لله ورسوله إذا كانت ثابتة فى القلب ، ولم تكن الذنوب عن نفاق . كما فى صحيح البخارى عن عمر بن الخطاب : حديث حمار الذى كان يشرب الخمر ، وكان النبى ﷺ يقيم عليه الحد ، فلما كثر ذلك منه لعنه رجل ، فقال النبى ﷺ :

= رجعوا ذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال : « سلوه لأى شىء يصنع ذلك ؟ » فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال النبى ﷺ : أخبروه أن الله يحبه » . وهذا الحديث جاء أيضا فى : مسلم ٥٥٧/١ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها : باب فضل قراءة قل هو الله أحد) ؛ سنن النسائى ١٣٢/٢ (كتاب الافتتاح ، باب الفضل فى قراءة قل هو الله أحد) . وأما الحديث الثانى فهو عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وقد أورده الترمذى مرتين فى سننه ٢٤٣/٤ – ٢٤٤ ونص الرواية المختصرة : « عن أنس أن رجلا قال : يا رسول الله : إنى أحب هذه السورة : قل هو الله أحد . قال : إن حبك إياها أدخلك الجنة » .

(١) فى الأصل : وأنبيائك ، وهو خطأ .

« لا تلعنه ، فإنه يحب الله ورسوله » (١) . وفيه دلالة على أنا منهيون / عن لعنة أحد بعينه ، وإن كان مذنبا ، إذا كان يحب الله ورسوله . ظ ١٦٣

فكما أن المحبة الواجبة تستلزم لفعل الواجبات ، وكمال المحبة المستحبة تستلزم لكمال فعل المستحبات ، والمعاصى تنقض المحبة ، وهذا معنى قول الشبلى (٢) لما سئل عن المحبة ، فقال ما غنَّت به جارية فلان :

تعصى الإله وأنت تزعم حبه هذا محال فى القياس شنيع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن أحب مطيع (٣)

وهذا كقوله ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » (٤) وقد تكلمنا على هذا فى غير هذا الموضع .

---

(١) الحديث عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى : البخارى ١٥٨/٨ (كتاب الحدود ، باب ما يكره من لَعْن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة) .

(٢) هو أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى ، من أئمة الصوفية ، ولد سنة ٢٤٧ وتوفى سنة ٣٣٤ ببغداد ، تفقه على مذهب الإمام مالك ، وصحب الجنيد . انظر ترجمته وأقواله فى : الرسالة القشيرية ١٤٨/١ – ١٤٩ ؛ صفة الصفوة ٢٥٨/٢ – ٢٦١ (وذكر الخلاف فى اسمه واسم أبيه) ؛ حلية الأولياء ٣٦٦/١٠ – ٣٧٥ ؛ طبقات الصوفية ، ص ٣٣٧ – ٣٤٨ ؛ تاريخ بغداد ٣٨٩/١٤ – ٣٩٧ ؛ المنتظم ٣٤٧/٦ – ٣٤٩ ؛ الأعلام ٢٠/٣ – ٢١ .

(٣) نسب أبو حامد الغزالى هذين البيتين إلى عبد الله بن المبارك فى الإحياء ١٠٣/١٤ (ط . لجنة نشر الثقافة الإسلامية ، القاهرة ، ١٣٥٧) ورواهما :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرى فى الفعال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

ونسب الدكتور محمد مصطفى حلمى رحمه الله البيتين إلى رابعة العدوية فى كتابه « الحياة الروحية فى الإسلام ، ص ٧٧ ، ط . عيسى الحلبى ، القاهرة ، ١٣٦٤/١٩٤٥ .

(٤) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه – مع اختلاف فى الألفاظ – فى : البخارى ١٣٦/٣ =

والمقصود هنا أن نفرق بين الحب فى الله ولله ، الذى هو داخل فى محبة الله ، وهو من محبته (١) ، وبين الحب لغير الله الذى فيه شرك فى المحبة لله ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] ، فإن هؤلاء يشركون بربهم فى الحب ، عادلون به ، جاعلون له أندادا . وأولئك أخلصوا دينهم لله ، فكان حبهم الذى هو أصل دينهم كله لله ، وهذا هو الذى بعث الله به الرسل ، وأنزل به الكتب ، وأمر بالجهاد عليه .

كما قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٣] وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] . ص ١٦٤

وقد عُلم أن محبة المؤمنين لربهم أشد من محبة هؤلاء المشركين لربهم ولأندادهم ، ثم إن اتخاذ الأنداد هو (٢) من أعظم الذنوب ، كما فى الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال : قلت يا رسولَ الله أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك . قلت : ثم أى ؟ قال : ثم أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَمَ معك .

= (كتاب المظالم ، باب النهبى بغير إذن صاحبه) ، ١٠٤/٧ (كتاب الأشربة ، باب إنما الخمر والميسر ...) ، ١٥٧/٨ (كتاب الحدود ، باب لا يشرب الخمر) ، ١٦٤/٨ (كتاب الحدود ، باب إثم الزناة) ؛ مسلم ٧٦/١ ، ٧٧ (كتاب الإيمان ، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصى ....) ؛ سنن أبى داود ٣٠٦/٤ (كتاب السنة ، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه) ؛ سنن الترمذى ١٢٧/٤ (كتاب الإيمان ، باب لا يزنى الزانى وهو مؤمن) ؛ سنن ابن ماجة ١٢٩٨/٢ - ١٢٩٩ (كتاب الفتن ، باب النهى عن النهبة) ؛ سنن الدارمى ١١٥/٢ (كتاب الأشربة ، باب فى التغليظ لمن شرب الخمر) ؛ المسند (ط . المعارف) ٤١/١٣ .

(١) كلمة « محبته » غير واضحة فى الأصل وكذا استظهرتها .

(٢) فى الأصل : هى .

قلت : ثم أى ؟ قال : ثم أن تزانى بحليلة جارك » ، فأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ﴾ [سورة الفرقان : ٦٨] [١] ، فدعاء إلهٍ [٢] آخر مع الله هو اتخاذ ندٌّ من دون الله ، يحبه كحب الله ، إذ أصل العبادة المحبة .

والمحبة وإن كانت جنسا تحته أنواع ، فالمحبوبات المعظَّمة [٣] لغير الله قد أثبت الشارع فيها اسم التعبد ، كقوله ﷺ فى الحديث الصحيح : « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، إن أُعطِىَ رضى ، وإن مُنع سخط » [٤] .

فسمَّى هؤلاء الأربعة [الذين] إن أُعطوا رضوا ، وإن مُنِعوا سخطوا — لأنها محبتهم ومرادهم — عباداً لها [٥] ، حيث قال : عبد الدرهم ، وعبد الدينار ، وعبد القطيفة ، وعبد الخميصة .

---

(١) الحديث — بألفاظ متقاربة — عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : البخارى ١٨/٦ (كتاب التفسير ، سورة البقرة ، باب قوله تعالى : فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) ، ٨/٨ (كتاب الأدب ، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه) ، ١٦٤/٨ (كتاب الحدود ، باب إثم الزناة) ، ١٥٢/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : فلا تجعلوا لله أنداداً) ؛ مسلم ٩٠/١ ، ٩١ (كتاب الإيمان ، باب كون الشرك أقبح الذنوب) ؛ سنن الترمذى ١٧/٥ — ١٨ (كتاب التفسير ، تفسير سورة الفرقان) ؛ سنن أبى داود ٣٩٤/٢ (كتاب الطلاق ، باب فى تعظيم الزنا) ؛ سنن النسائى ٨٢/٧ — ٨٣ (كتاب التحريم ، باب ذكر أعظم الذنب) ؛ المسند (ط . المعارف) ٢١٧/٥ ، ٧٦/٦ ، ٨٦ — ٨٧ .

(٢) فى الأصل : إلهاً ، وهو خطأ .

(٣) فى الأصل : المعضمة ، وهو تحريف .

(٤) الحديث — مع اختلاف فى اللفظ — عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٣٤/٤ (كتاب الجهاد ، باب الحراسة فى الغزو فى سبيل الله) ؛ سنن ابن ماجه ١٣٨٦/٢ (كتاب الزهد ، باب فى المكثرين) وهو فى موضعين .

(٥) فى الأصل العبارة مضطربة هكذا : فسمى هؤلاء إن أعطوا رضوا وإن منعوا سخطوا لأنها محبتهم ومرضاهم إلى هذه الأتبعة عبادا لها ، ولعل الصواب ما أثبته .

مراتب العشق

فإذا كان الإنسان مشغوفا بمحبة بعض المخلوقات لغير الله ، الذى يرضيه وجوده ، ويسخطه عدمه — كان فيه من التعبد بقدر ذلك . ولهذا يجعلون العشق مراتب مثل : العلاقة ، ثم الصبابة ، ثم الغرام ، ويجعلون آخره التتيم : والتتيم : التعبد ، وتيم الله : هو عبد الله . فيصير العاشق لبعض الصور عبداً لمعشوقه .

ذكر الله العشق فى القرآن عن المشركين

والله سبحانه إنما ذكر هذا العشق فى القرآن عن المشركين ، فإن العزيز وامرأته وأهل مصر كانوا مشركين ، كما قال لهم يوسف عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَىْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ . يَا صَاحِبَىِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٣٧ — ٤٠] .

ظ ١٦٤

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُم فِى شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُم لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ . الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [سورة غافر : ٣٤ ، ٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة يوسف : ٣٠] .

وأما يوسف عليه السلام فإن الله ذكر أنه عصمه بإخلاصه الدين لله ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٢٤] ، فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء والفحشاء . ومن السوء عشقها ومحبتها ، ومن الفحشاء الزنا ، وقد يزنى بفرجه من لا يكون عاشقا ، وقد يعشق من لا يزنى بفرجه ، والزنا بالفرج أعظم من الإلمام بصغيرة كنظرة وقبلة .

وأما الإصرار على العشق ولوازمه : من النظر ونحوه ، فقد يكون أعظم من الزنا الواحد بشيء كثير ، والمخلصون يصرف الله عنهم السوء والفحشاء ، ويوسف عليه السلام كان من المخلصين ، حيث كان يعبد الله ، لا يشرك به شيئا ، وحيث توكل على الله ، واستعان به ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ۞ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [سورة يوسف : ٣٣ ، ٣٤] .

وهذا تحقيق قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۞ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل : ٩٨ - ١٠٠] ، فأخبر سبحانه أن المتوكلين على الله ليس للشيطان عليهم سلطان ، وإنما سلطانه على المتولّين له ، والمتولى من الولاية ، وأصله المحبة والموافقة ، كما أن العداوة أصلها البغض والمخالفة . فالمتولّون [١] له هم الذين يحبون ما يحبه الشيطان ويوافقه ، فهم مشركون [٢] به حيث أطاعوه وعبدوه بامتثال أمره ، كما قال تعالى :

المتولون للشيطان هم الذين يحبون ما يحبه

(١) فى الأصل : فالمتولين ، وهو خطأ .

(٢) فى الأصل : مشركين ، وهو خطأ .

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ اعْبُدُونى هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [سورة يس : ٦٠ ، ٦١] .

والشياطين شياطين الإنس والجن ، والعبادة فيها الرغبة والرهبة . قال تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ۝ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۝ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۝ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۝ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ۝ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [سورة ص : ٧٥ – ٨٥] فأقسم الشيطان ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

ص ١٦٥

وقد أخبر الله أنه ليس له سلطان على هؤلاء [١] فقال فى الحجر : ﴿ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [سورة الحجر : ٣٤ ، ٣٥] ، ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٣٩ ، ٤٠] قال تعالى ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِن الْغَاوِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٤٢] .

وقوله ﴿ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ استثناء منقطع فى أقوى القولين ، إذ العباد هم العابدون ، لا المعبودون . كما قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً ﴾ [سورة الفرقان : ٦٣] .

---

(١) فى أعلى ص ١٦٥ كتب إلى اليسار منها : « الثالث » .

وقال تعالى : ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ [سورة الإنسان : ٦] .

وقال تعالى : ﴿ الْأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ۝ يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَومَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ [سورة الزخرف : ٦٧ – ٦٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ ﴾ [سورة الجن : ١٩] .

وقال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [سورة الإسراء : ١] .

وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِى الْأَيْدِى وَالْأَبْصَارِ ﴾ [سورة صٓ : ٤٥] .

عباد الله المخلصون ليس للشيطان عليهم سلطان

وإذا كان عباد الله المخلصون ليس له (١) عليهم سلطان ، وأن سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ، وقد أقسم أن يغويهم إلا عباد الله المخلصين ، وأخبر الله أن سلطانه ليس على عباد الله ، بل على من اتبعه من الغاوين .

والغىُّ : اتّباع الأهواء والشهوات ، وأصل ذلك أن الحب لغير الله كحب الأنداد ، وذلك هو الشرك ، قال الله تعالى فيه : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل : ١٠٠] ، فبيّن أن صاحب الإخلاص ، مادام صادقا فى إخلاصه ، فإنه يعتصم من هذا الغى وهذا الشرك ، وإن الغى هو يضعف الإخلاص ، ويقوّى هواه (٢) الشرك . فأصحاب

---

(١) أى للشيطان .

(٢) أى هوى الإنسان .

العشاق يتولون الشيطان ويشركون به

العشق ، الذى يحبه الشيطان ، فيهم من تولّى الشيطان ، والإشراك به بقدر ذلك ، لما فاتهم من إخلاص المحبة لله ، والإشراك بينه وبين غيره فى المحبة ، حتى يكون فيه نصيب / من اتّخاذ الأنداد ، وحتى يصيروا عبيداً لذلك المعشوق ، فيفنون فيه [١] ويصرحون بأنّا عبيد له [٢] ، فيوجد فى هذا الحب والهوى ، واقتراف [٣] ما يبغضه الله ، وما حرَّمه من الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن يقولوا على الله ما لا يعلمون ، فيوجد فيه من الشرك الأكبر والأصغر ، ومن قتل النفوس بغير حق ، ومن الزنا ، ومن الكذب ، ومن أكل المال بالباطل ، إلى غير ذلك ما ينتظم هذه الأصناف التى يكرهها [٤] الله تعالى ، لأن أصله أن يكون حبه كحب الله ، وهو من ترك [٥] إخلاص المحبة ، ومن الإشراك بينه وبين غيره ، أو من جعل المحبة لغير الله ، فإذا عمل موجب ذلك ، كان ذلك هو اتّباع الهوى بغير هدىً من الله .

ظ ١٦٥

وفى الأثر : ما تحت أديم السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع . قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ۔ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [سورة الفرقان : ٤٣ ، ٤٤] .

ولهذا لا يبتلى بهذا العشق إلا من فيه نوع شرك فى الدين ، وضعف إخلاص لله . وسبب هذا ما ذكره بعضهم فقال : إنه ليس شىء من

---

(١) فى الأصل : فينمى فيه ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : بأنا عبيداً له ، وهو خطأ .

(٣) فى الأصل : واجتناب ، وهو خطأ ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : التى يكرهه ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : لأن أصله ما حبه كحب الله هو من ترك .... إلخ . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

المحبوبات يستوعب محبة القلب إلا محبة الله أو محبة بشر مثلك . أما محبة الله فهى التى خُلق لها العباد ، وهى سعادتهم ، وقد تكلمنا عليها فى غير هذا الموضع .

وأما البشر المتماثل ، من ذكر أو أنثى ، فإن فيه من المشاكلة والمناسبة ما يوجب أن يكون لكل شيء من الحب نصيب من المحبوب يستوعبه حبه ، ولهذا لا يُعرف لشيء [١] من المحبوبات التى تُحب لغير الله من الاستيعاب ما يعرف لذلك ، حتى يُزيل العقل ، ويُفقد الإدراك ، ويُوجب انقطاع الإرادة لغير ذلك المحبوب ، ويوجب مرض [٢] الموت ، وإنما يعرض هذا كله لضعف ما فى القلب من حب الله وإخلاص الدين له ، عبادةً واستعانةً ، فيكون فيه من الشرك ما يسلِّط الشيطان عليه ، حتى يغويه بهذا الغى ، الذى فيه من تولِّى الشيطان والإشراك به ، ما يتسلط به الشيطان .

ولهذا قد يطيع هذا المحب لغير الله محبوبه أكثر [٣] مما يطيع الله ، حتى يطلب القتل فى سبيله ، كما يختار المؤمن القتل فى سبيل الله ، وإذا كان محبوبه مطيعه من وجه وعبدا له ، [فهو أولى] [٤] بأن / يكون هو مطيعه وعبدا له من وجه آخر . ص ١٦٦

وإذا كان النبى ﷺ قال : « شارب الخمر كعابد وثن » [٥] . ومرّ علىّ

---

(١) فى الأصل : شيء . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : لمرض . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : لمحبوبه أو أكثر ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) زدت عبارة « فهو أولى » ليستقيم الكلام .

(٥) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : سنن ابن ماجة ١١٢٠/٢ (كتاب الأشربة ، باب مدمن الخمر) ونصه : « مدمن الخمر كعابد وثن » . وصححه الألبانى فى « صحيح الجامع الصغير » ٢٠٥/٥ .

رضى الله عنه [١] بقوم يلعبون بالشطرنج فقال : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ وأظنه قلب الرقعة [٢] .

وذلك أن الله جمع بين الخمر والميسر ، وبين الأنصاب والأزلام فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٩٠ ، ٩١] .

مع أن الخمر إذا سكر بها الشارب كان سكره يوما أو قريبا من يوم أو بعض يوم ، وأما سكر الشهوة والمحبة الفاسدة من العشق ونحوه فسكره قوى دائم . قال تعالى فى قوم لوط : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [سورة الحجر : ٧٢] .

فكيف إذا خرج عن حد السكر إلى حد الجنون ، بل كان الجنون المطبق لا الحمق [٣] ، كما أنشد محمد بن جعفر فى كتاب « اعتلال القلوب » [٤] قال : أنشدنى الصيدلانى :

قالت جُنِنْتُ على رأسى فقلت لها   العشق أعظم مما بالمجانينِ

---

(١) فى الأصل : ومر على عليلم . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) أورد ابن كثير هذا الخبر فى تفسيره لآية ٥٢ سورة الأنبياء عن ابن أبى حاتم .... قال : مر علىّ على قوم يلعبون بالشطرنج ، فقال : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ لأن يمس صاحبكم جمراً حتى يطفأ خير له من أن يمسّها .

(٣) فى الأصل : الحامق .

(٤) هو أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر السامرى الخرائطى ، محدث أديب ، ولد سنة ٢٤٠ وتوفى سنة ٣٢٧ ، من تصانيفه : « اعتلال القلوب » فى أخبار العشاق (وهو مخطوط) . انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد ٢/١٣٩ – ١٤٠ ؛ شذرات الذهب ٢/٣٠٩ ؛ الأعلام ٦/٢٩٧ ؛ معجم المؤلفين ٩/١٥٤ – ١٥٥ .

العشق ليس يفيق الدهر صاحبُه   وإنما يصرع المجنون فى الحينِ [(١)]

وقال الآخر :

سُكرانِ : سكرُ هوىً وسكر مُدَامة   ومتى إفاقة من به سكـرانِ

فصاحبه أحق بأن يشبه بعابد الوثن والعاكفين على التماثيل يعملونها [(٢)] على صورة آدمى .

وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [سورة يوسف : ٣٠] أى : شغفها حبه ، أى وصل حبه إلى شغاف القلب ، وهى جلدة فى داخله ، فهذا يكون قد اتخذ ندا يحبه كحب الله .

يوقع الشيطان العداوة والبغضاء بين المؤمنين بالعشق

وإذا كان الشيطان يريد أن يوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فالعداوة والبغضاء التى يريد أن يوقعها بالعشق ، وصدّه عن ذكر الله وعن الصلاة بذلك أضعاف غيره ، كما قد تكلمنا عليه فى غير هذا الموضع ، وبيّنا أن جميع المعاصى يجتمع فيها هذان الوصفان ، وأن ذكر ذلك فى الخمر والميسر اللذين هما من أواخر المحرمات — ينبّه على ما فى غيرهما من ذلك مما حُرِّم / قبلهما : كقتل النفوس بغير حق ، والفواحش ، ونحو ذلك . ظ ١٦٦

ومما يبين هذا أن الفواحش التى أصلها المحبه لغير الله ، سواء كان المطلوب المشاهدة أو المباشرة أو الإنزال أو غير ذلك ، هى فى المشركين أكثر منها فى

---

(١) أورد ابن الجوزى البيتين فى كتابه « ذم الهوى » ص ٣١٧ ، ونسبهما المحقق الأستاذ مصطفى عبد الواحد إلى مجنون ليلى (انظر الفهرس ص : ٧١١) .

(٢) فى الأصل : يعملونه ، وهو تحريف .

المخلصين ، ويوجد فيهم ما لا يوجد فى المخلصين لله .

قال الله تعالى : ﴿ يَا بَنِى آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ۔ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ۔ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۔ فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيهِمُ الضَّلاَلَةُ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٧ - ٣٠] ، فأخبر سبحانه أنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ، وهو قوله تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [سورة الكهف : ٥٠] وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل : ١٠٠] .

وإذا كان سلطانه على أوليائه الذين تولوه والذين هم به مشركون ، وهم الذين لا يؤمنون بالله – وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٤٢] – فيكون هؤلاء هم الغاوين ، وهم الذين قال الشيطان : لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين .

ولهذا أخبر سبحانه عن أوليائه أنهم ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٨] ، فأخبر عن أولياء الشيطان ، وهم الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون : أنهم إذا فعلوا فاحشة احتجوا بالتقليد

لأسلافهم ، وزعموا مع ذلك أن الله أمرهم [بها][1] ، فيتّبعون الظن – فى قولهم : إن الله أمرهم بها – وما تهوى الأنفس فى تقليد أسلافهم واتباعهم .

وهذا الوصف فيه بسط كثير لكثير من المنتسبين إلى القبلة من الصوفية والعبّاد ، والأمراء والأجناد ، والمتكلمة والمتفلسفة ، والعامة وغيرهم ، يستحلُّون من الفواحش ما حرّمه الله ورسوله ، وأصله العشق الذى يبغضه الله .

ص ١٦٧ / وكثير منهم يجعل ذلك دينا ، ويرى أنه يتقرب بذلك إلى الله ، إما لزعمه أنه يزكّى النفس ويهديها ، وإما لزعمه أنه يجمع بذلك قلبه على آدمى ، ثم ينتقل إلى عبادة الله وحده ، وإما لزعمه أن الصور الجميلة مظاهر الحق ومشاهده ، وربما اعتقد حلول الرب فيها واتحاده بها ، ومنهم من يخص ذلك بها ، ومنهم من يقول بإطلاق . وهؤلاء إذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها .

وكل هؤلاء فيهم من الإشراك بقدر ذلك ، ولهذا يظهر الافتتان بالصور وعشقها فيمن فيهم شرك : كالنصارى والرهبان والمتشبهين بهم من هذه الأمة : من كثير من المتفلسفة والمتصوفة الذين يفتنون بالأحداث وغيرهم ، فتجد فيهم قسطاً عظيما من اتخاذ الأنداد من دون الله ، يحبونهم كحب الله ، إما تدينا ، وإما شهوة ، وإما جمعا بين الأمرين . ولهذا تجد بين أغنيائهم [2] وفقرائهم ، وبين ملوكهم وأمرائهم تحالفا على اتخاذ أنداد [3] من دون الله من هذين الوجهين .

ولهذا تجدهم كثيرا ما يجتمعون على سماع الشعر والأصوات التى تهيج الحب المشترك : الذى يجتمع فيه محب الرحمٰن ، ومحب الأوثان ، ومحب الصلبان ، ومحب الإخوان ، ومحب الأوطان ، ومحب المردان ، ومحب النسوان .

---

(١) زدت « بها » ليستقيم الكلام .

(٢) أغنيائهم : ليست واضحة بالأصل ، وكذا استظهرتها .

(٣) فى الأصل : أندادا ، وهو خطأ .

وهذا السماع هو سماع المشركين ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [سورة الأنفال : ٣٥] .

وسبب ما ذكرنا أن الله خلق عباده لعبادته التى تجمع محبته وتعظيمه ، فإذا كان فى القلب ما يجد حلاوته من الإيمان بالله والتوحيد له ، احتاج إلى أن يستبدل بذلك ما يهواه ، فيتخذ إلٰهه هواه ، فيتخذ الشيطان وذريته أولياء من دون الله ، وهم لهم عدو ، بئس للظالمين بدلا .

ولهذا كان هذا ونحوه من تبديل الدين ، وتغيير فطرة الله التى فطر الناس عليها . قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [سورة الروم : ٣٠] وقال تعالى : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً ۝ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً ۝ لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً ۝ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ ﴾ [سورة النساء : ١١٦ - ١١٩] .

قال تعالى : ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾ [سورة الروم : ٣٠] . ونفس ما خلقه الله لا تبديل له : لا يمكن أن توجد المخلوقات على غير ما يخلقه الله عليها (١) ، ولا أن تخلق على غير الفطرة التى خلقها (٢) الله عليها ، لكن بعض الخلق قد يغير بعضها ، كما قال النبى ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة / فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه ، كما تُنتج البهيمة [بهيمة] (٣) جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » (٤) . ظ ١٦٧

---

(١) فى الأصل : عليه .

(٢) فى الأصل : خلقهم .

(٣) زدت كلمة « بهيمة » لأنها من ألفاظ الحديث .

(٤) مضى الحديث من قبل (ص : ٤٤)

أصل العبادة المحبة والشرك فيها أصل الشرك

ومما يبين ذلك أن أصل العبادة هى المحبة ، وأن الشرك فيها أصل الشرك ، كما ذكره الله فى قصة إمام الحنفاء إبراهيم الخليل ، حيث قال : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٦] ، وقال فى القمر : ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٧] فلما أفلت الشمس قال : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٨ ، ٧٩] .

ولهذا تبرأ إبراهيم من المشركين وممن أشركوا [١] بالله ، قال : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّى إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ٧٥ – ٧٧] وقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ [سورة الممتحنة : ٤] .

ومما يوضح ذلك أنه قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سورة الأنفال : ٣٩] فأمر بالجهاد حتى لا تكون فتنة وحتى يكون الدين كله لله ، فجعل المقصود عدم كون الفتنة ، ووجود كون الدين كله لله ، وناقض [٢] بينهما ، فكون الفتنة ينافى كون الدين لله ، وكون الدين لله ينافى كون

---

(١) فى الأصل : أشركوه ، وهو تحريف .

(٢) وناقض : فى الأصل الكلمة غير واضحة ، وكذا استظهرتها .

الفتنة . والفتنة قد فُسِّرت بالشرك ، فما حصلت به فتنة القلوب ففيه شرك ، وهو ينافى كون الدين كله لله .

الفتنة جنس تحته أنواع من الشبهات والشهوات

والفتنة جنس تحته أنواع من الشبهات والشهوات ، وفتنة الذين يتخذون من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله من أعظم الفتن . ومنه فتنة أصحاب العجل ، كما قال تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِىُّ ﴾ [سورة طه : ٨٥] قال موسى : ﴿ إِنْ هِىَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تَضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِى مَن تَشَاءُ ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٥] وقال تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [سورة البقرة : ٩٣] .

قيل لسفيان بن عيينه : إن أهل الأهواء يحبون ما ابتدعوه من أهوائهم حبا شديدا ، فقال : أنسيت قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] وقوله تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [سورة البقرة : ٩٣] أو كلاما هذا معناه ، وكل ما أُحِب لغير الله فقد يحصل به من الفتنة ما يمنع / أن يكون الدين لله .

ص ١٦٨

وعشق الصور من أعظم الفتن ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [سورة التغابن : ١٥] . ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] .

وقد قال سبحانه : ﴿ الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [سورة العنكبوت : ١ – ٣] .

ومما يبين ذلك أن رجلا قال للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت ، فقال : « أجعلتني لله ندا ، بل ما شاء الله وحده » [١] فأنكر عليه أن جعله ندا لله في هذه الكلمة التي جمع فيها بينه وبين الله في المشيئة ، إذ مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله ، فلا يكون شريكه ، لما يُعلم أن كون الشيء ندا لله قد يكون بدون أن يُعبد العبادة التامة ، فإن ذلك الرجل ما كان يعبد رسول الله تلك [٢] العبادة .

فصل

محبة الله توجب المجاهدة في سبيله

وبهذا يتبين أن محبة الله توجب المجاهدة في سبيله قطعا ، فإن من أحب الله وأحبه الله أحب ما يحبه الله ، وأبغض ما يبغضه الله ، ووالى من يواليه الله ، وعادى من يعاديه الله . لا تكون [٣] محبة قط إلا وفيها [٤] ذلك بحسب قوتها وضعفها ، فإن المحبة توجب الدنو من المحبوب ومحابّه ، والبعد عن مكروهاته ، ومتى كان مع المحبة نبذ [٥] ما يبغضه المحبوب فإنها تكون تامة .

موادة عدو الله تنافي المحبة

وأما موادة عدوه فإنها تنافي المحبة ، قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ

---

(١) لم أجد الحديث بهذا اللفظ ، ولكني وجدت حديثا مقاربا لفظه (في المسند (ط . المعارف) ٢٥٣/٢) عن ابن عباس أن رجلا قال للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت ! فقال النبي ﷺ : « أجعلتني والله عَدلاً ، بل ما شاء الله وحده » . والحديث بلفظ مقارب عن ابن عباس رضي الله عنهما في : المسند (ط . المعارف) ١٩٣/٤ ، ٨٥/٥ وجاء مختصرا ٢٩٦/٣ .

وذكر هذا الحديث ابن حجر في « فتح الباري » (ط . السلفية) ٥٤٠/١١ وقال إن الحديث في مسند أحمد والنسائي .

(٢) في الأصل : ذلك .

(٣) في الأصل : يكون .

(٤) في الأصل : وفيه .

(٥) نبذ : ليست واضحة بالأصل ، وكذا استظهرتها .

أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [سورة المجادله : ٢٢] ، فأخبر أن المؤمن – الذى لابد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، كما فى الحديث المتفق عليه : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » (١) – لا تجده (٢) موادا لمن حاد الله ورسوله ، فإن هذا جمع بين الضدين لا يجتمعان . ومحبوب الله ومحبوب معاديه لا يجتمعان .

فالمحب له (٣) لو كان موادًّا لمحاده لكان محبا لاجتماع مراد المتحادين المتعاديين وذلك ممتنع ، ولهذا لم تصلح هذه الحالة إلا لله ورسوله ، فإنه يجب على العبد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ولايكون مؤمنا إلا بذلك . ولا تكون هذه المحبة مع محبة من يحاد الله ورسوله ويعاديه أبدا ، فلا ولاء لله إلا بالبراءة من عدو الله ورسوله .

وأما المؤمنون الذين قد يقاتل بعضهم بعضا ، فأولئك ليسوا متحادين من كل وجه ، فإن مع كل منهما من الإيمان ما يحب عليه الآخر ، وإن كان يبغضه أيضا ، فيجتمع فيهما المحبة والبغضة ، وكذلك كل منهما / لا يجب أن تكون جميع أفعاله موافقة لمحبة [الله] (٤) وجميع أفعال الآخر موافقة لبغض الله ، بل لابد أن يفعل أحدهما ما لا يحبه الله وإن لم يبغضه ، و لابد أن يكون فى الآخر أيضا ما يحبه الله إذ هو مؤمن ، فيجب أن يعطى كل واحد من المحبة بقدر إيمانه ، ولا يجب أن يحب من أحدهما ما لا يحبه وإن كان لايبغضه بل ولا يحب [من] واحدهما (٥) ما كان خطأً

ظ ١٦٨

(١) مضى الحديث من قبل (ص : ١٢ ، ٥٧) .

(٢) فى الأصل : لا يجد ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : فالحب له . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٤) زدت كلمة الجلالة ليستقيم الكلام .

(٥) فى الأصل : بل ولا يحبه واحدهما ، ولعل الصواب ما أثبته .

أو ذنبا مغفورا ، وإن كان لا يبغض على ذلك ، فلا يحب إلا ما أحبه الله ورسوله ، فيحب ما كان من اجتهاده من عمل صالح .

وهذا الذى ذكرناه أمر يجده الإنسان من نفسه ويحسه : أنه إذا أحب الشئ لم يحب ضده ، بل يبغضه . فلا يتصور اجتماع إرادتين تامتين للضدين ، لكن قد يكون فى القلب نوع محبة وإرادة لشئ ، ونوع محبة وإرادة لضده ، فهذا كثير (١) ، بل هو غالب على بنى آدم ، لكن لا يكون واحد (٢) منهما تاما ، فإن المحبة والإرادة التامة توجب (٣) وجود المحبوب المراد مع القدرة ، فإذا كانت القدرة حاصلة ولم يوجد المحبوب المراد لم يكن الحب والإرادة تامة . وكذلك البغض التام يمنع وجود البغيض مع القدرة ، فمتى (٤) وجد مع إمكان الامتناع لم يكن البغض تاما .

ومن هنا يعرف أن قول النبى ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » (٥) على بابه : لو كان بغضه لما أبغضه الله من هذه الأفعال تاما لما فعلها . فإذا فعلها فإما أن يكون تصديقه بأن الله يبغضها فيه ضعف ، أو نفس بغضه لما يبغضه الله فيه ضعف ، وكلاهما يمنع تمام الإيمان الواجب .

محبة الله ورسوله على درجتين : واجبة ومستحبة

ومحبة الله ورسوله على درجتين : واجبة وهى درجة المقتصدين ، ومستحبة وهى درجة السابقين .

---

(١) فى الأصل : كثيرا ، وهو خطأ .

(٢) فى الأصل : واحدا ، وهو خطأ .

(٣) فى الأصل : توجد ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : فمن . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) مضى الحديث من قبل (ص : ٧٣) .

المحبة الواجبة وهى محبة المقتصدين

فالأولى تقتضى أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، بحيث لا يحب شيئا يبغضه ، كما قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [سورة المجادلة : ٢٢] ، وذلك يقتضى محبة جميع ما أوجبه الله تعالى ، وبغض ماحرَّمه الله تعالى ، وذلك واجب ، فإن إرادة الواجبات إرادة تامة تقتضى وجود ما أوجبه [1] ، [كما تقتضى عدم الأشياء التى نهى الله عنها] [2] ، وذلك مستلزم لبغضها التام .

فيجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه [3] الله ، ويبغض ما أبغضه الله . قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [سورة محمد : ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَاأُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُم زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [سورة التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] .

ص ١٦٩

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ [سورة الرعد : ٣٦] .

المحبة المستحبة وهى محبة السابقين

وأما محبة السابقين بأن يحب ما أحبه الله من النوافل والفضائل محبة تامة . وهذه حال المقرَّبين الذين قرَّبهم الله إليه . فإذا كانت محبة الله ورسوله الواجبة تقتضى بغض ما أبغضه الله ورسوله ، كما فى سائر أنواع المحبة ، فإنها توجب بغض

---

(١) فى الأصل : ما واجبه . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : ما أوجبه . ولعل الصواب ما أثبته .

الضد ، عُلم أن الجهاد من موجب محبة الله ورسوله ، فإن مقصود الجهاد تحصيل (١) ما أحبه الله ، ودفع ما أبغضه الله .

ترك الجهاد لعدم المحبة التامة وهو دليل النفاق

فمن لم يكن فيه داع إلى الجهاد ، فلم يأت بالمحبة الواجبة قطعا ، كان فيه نفاق (٢) ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [سورة الحجرات : ١٥] .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « من [مات] ولم يغز (٣) ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق » (٤) .

وكذلك جمع بينهما فى قوله تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ . يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة التوبة : ١٩ – ٢٢] ، فقرنه بالمحبة (٥) فى الآيتين من

---

(١) فى الأصل : يحصل ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : فيكن فيه نفاقا ، وهو خطأ .

(٣) فى الأصل : من لم يغز . والمثبت هو تمام الحديث .

(٤) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ٣/١٥١٧ (كتاب الإمارة ، باب ذم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو) ؛ سنن أبى داود ٣/١٥ – ١٦ (كتاب الجهاد ، باب كراهية ترك الغزو) ؛ سنن النسائى ٦/٧ – ٨ (كتاب الجهاد ، باب التشديد فى ترك الجهاد) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٧/٤١ .

(٥) أى فقرن الجهاد بالمحبة .

قوله : ﴿ قُلْ إن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] ، وفى قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَيَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] . فأخبر أن القوم الذين يحبهم الله ورسوله هم أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [سورة الفتح : ٢٩] ، فوصفهم بالذلة والرحمة لأوليائه [١] إخوانهم ، والعزة والشدة على أعدائه أعدائهم ، وأنهم يجاهدون فى سبيل الله .

والجهاد من الجُهد وهو الطاقة ، وهو أعظم من الجَهد الذى هو المشقه ، فإن الضم أقوى من الفتح ، وكلما كانت الحروف أو الحركات أقوى كان المعنى أقوى .

ظ ١٦٩ ولهذا كان الجُرح [٢] أقوى من الجَرح ، / فإن الجُرْح هو المجروح نفسه ، وهو غير [٣] الجَرْح ، مصدر ، وهو فعل .

وكذلك الكُره ، والمكروه ، والمكره ، كما قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾ [سورة الرعد : ١٥] .

فالجُهد : نهاية الطاقة والقدرة [٤] ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ ﴾ [سورة التوبة : ٧٩] .

---

(١) فى الأصل : لأولياة ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : الخرج ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : عين ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : القدرة .

وفى الحديث : « أفضل الصدقة جُهد من مقل يُسرُّه إلى فقير » [١] . ولهذا قال النبى ﷺ : « الجهاد سنام العمل » [٢] ، فإنه أعلى الإرادات فى نهاية القدرة ، وهذا هو أعلى ما يكون من الإيمان ، كالسنام الذى هو أعلى ما فى البعير ، وقد يكون بمشقة ، وقد لا يكون .

وأما الجَهد فهو المشقة ، وإن لم يكن تمام القدرة .

فالجهاد فى سبيل الله تعالى من الجُهد ، وهى المغالبة [فى سبيل] الله [٣] بكمال القدرة والطاقة ، فيتضمن شيئين ، أحدهما : استفراغ الوسع والطاقة . والثانى : أن يكون ذلك فى تحصيل محبوبات الله ودفع مكروهاته ، والقدرة والإرادة بهما يتم الأمر .

انقسام الناس إلى أربعة أقسام

وهنا [٤] انقسم الناس أربعة أقسام : فقوم لهم قدرة ، ولهم إرادة ومحبة غير

---

(١) الحديث بلفظ : « فأى الصدقة أفضل ؟ قال ﷺ : جهد المقل » عن عبد الله بن حُبْشى رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ٢/٩٣ – ٩٤ (كتاب الصلاة ، باب طول القيام) ؛ سنن النسائى ٥/٤٣ – ٤٤ (كتاب الزكاة ، باب جهد المقل) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٢/٤١١ – ٤١٢ . وصحح الألبانى هذا الحديث فى تعليقه على مشكاة المصابيح للتبريزى ٢/٣٥٧ . وجاء حديث آخر عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه فى المسند (ط . الحلبى) ٥/١٧٨ وفيه : « .... قلت : يا رسول الله فما الصدقة ؟ قال : أضعاف مضاعفة وعند الله مزيد . قلت : أيها أفضل يا رسول الله ؟ قال : جهد من مقل أوسر إلى فقير » . وجاء حديث ثالث بمعنى الحديث السابق فى المسند ٥/٢٦٥ عن أبى أمامة رضى الله عنه وضعف الألبانى هذا الحديث الأخير فى « ضعيف الجامع الصغير » ١/٣١٨ .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٣/١٠٤ ، ١٠٥ (كتاب الجهاد ، باب أى الأعمال أفضل) ونصه : « سئل رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ أو أى الأعمال خير ؟ قال : إيمان بالله ورسوله . قيل : ثم أى شىء ؟ قال : الجهاد سنام العمل . قيل : ثم أى شىء يا رسول الله ؟ قال : ثم حج مبرور » . ثم قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح ، وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ » . والحديث فى : المسند (ط . المعارف) ١٤/٢٤٩ .

(٣) فى الأصل : وهى الغالبة لله . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : هنا .

١ - قوم لهم قدرة وإرادة ومحبة غير مأمور بها

مأمور بها ، فهم يجاهدون ، ويستعملون جهدهم وطاقتهم ، لكن لا فى سبيل الله ، بل فى سبيل آخر : إما محرمة ، كالفواحش ماظهر منها وبطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، والإشراك بالله مالم ينزل به سلطانا ، والقول على الله بغير علم الحق .

وإما فى سبيل لا ينفع عند الله ، مما جنسه مباح ، لاثواب فيه ، لكن الغالب [أن] (١) مثل هذا كثيرا ما يقترن (٢) به من الشُّبه مايجعله فى سبيل الله أو فى سبيل الشيطان .

٢ - قوم لهم إرادة صالحة ومحبة كاملة لله وقدرة كاملة

وقوم لهم إرادة صالحة ، ومحبة كاملة لله ، ولهم أيضا قدرة كاملة ، فهؤلاء سادة المحبين المحبوبين ، المجاهدين فى سبيل الله ، لايخافون لومة لائم ، كالسابقين (٣) الأولين من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة .

٣ - قوم فيهم إرادة صالحة ومحبة قوية لكن قدرتهم ناقصة

والقسم الثالث : قوم فيهم إرادة صالحة ، ومحبة لله قوية تامة ، لكن قدرتهم ناقصة ، فهم يأتون بمحبوبات الحق من مقدورهم ولايتركون مما يقوون عليه شيئا (٤) ، لكن قدرتهم (٥) قاصرة ، ومحبتهم (٦) كاملة ، فهو مع القسم الذى قبله .

ومازال فى المؤمنين على عهد النبى ﷺ وبعده من هؤلاء خلق كثير . وفى مثل هؤلاء قال النبى ﷺ : « إن بالمدينة لرجالا ماسرتم مسيرا ولا سلكتم واديا

---

(١) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : يفترون ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : فالسابقين ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : ولا يأتون يتركون ما يقوون عليه شيئا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) فى الأصل : لكن قلوبهم . ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) فى الأصل : ومحبة . ولعل الصواب ما أثبتهم .

إلا كانوا معكم . قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة ، حبسهم العذر » (١) .

وقال له سعد بن أبى وقاص : يارسول الله الرجل يكون حامية القوم يسهم له مثلما يسهم لأضعفهم ؟ فقال : ياسعد وهل تنصرون إلا بضعفائكم ؟ بدعائهم وصلواتهم واستغفارهم (٢) » .

وروى أن النبى ﷺ كان يستفتح / بصعاليك المهاجرين ، وقال : « رب أشعث أغبر ، ذى طمرين ، مدفوع بالأبواب ، لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره » (٣) وهذا كثير .

ص ١٧٠

---

(١) الحديث عن أنس رضى الله عنه فى : البخارى ٢٦/٤ (كتاب الجهاد ، باب من حبسه العذر عن الغزو) ؛ سنن أبى داود ١٧/٣ – ١٨ (كتاب الجهاد ، باب فى الرخصة فى القعود من العذر) ؛ سنن ابن ماجة ٩٢٣/٢ (كتاب الجهاد ، باب من حبسه العذر عن الجهاد) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٠٣/٣ ، ١٦٠ ، ٣٠٠ ، ٣٤١ . وجاء حديث آخر بألفاظ مقاربة عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى : مسلم ١٥١٨/٣ (كتاب الإمارة ، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر) ؛ سنن ابن ماجة (فى الموضع السابق) .

(٢) الحديث عن مصعب بن سعد عن أبيه سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فى : البخارى ٣٦/٤ – ٣٧ (كتاب الجهاد ، باب من استعان بالضعفاء والصالحين فى الحرب) ونصه : « عن مصعب بن سعد قال : رأى سعد رضى الله عنه أن له فضلا على من دونه . فقال النبى ﷺ : هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟ » والحديث بألفاظ مقاربة فى : سنن النسائى ٣٧/٦ – ٣٨ (كتاب الجهاد ، باب الاستنصار بالضعيف) . وما رواه ابن تيمية هو أقرب إلى رواية المسند (ط . المعارف) ٥١/٣ : « عن سعد بن مالك (وهو سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه) قال : قلت : يا رسول الله ، الرجل يكون حامية القوم ، أيكون سهمه وسهم غيره سواء ؟ قال : ثكلتك أمك ابن أم سعد ! وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم ؟! » وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله فى تعليقه : « إسناده ضعيف لانقطاعه » ..

وقال ابن حجر فى « فتح البارى » ٨٨/٦ – ٨٩ عن رواية البخارى : « ثم إن صورة هذا السياق مرسل لأن صعبا لم يدرك زمان هذا القول ، لكن هو محمول على أنه سمع ذلك من أبيه ، وقد وقع التصريح عن مصعب بالرواية له عن أبيه عند الإسماعيلى .... ، وكذا أخرجه هو والنسائى .... » .

وجاء حديث آخر بألفاظ مقاربة عن أبى الدرداء رضى الله عنه فى سنن أبى داود ٣٢/٣ (كتاب الجهاد ، باب فى الانتصار برذل الخيل والضعفة) ؛ المسند (ط : الحلبى) ١٩٨/٥ .

(٣) الحديث بألفاظ مقاربة عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ٢٠٢٤/٤ (كتاب البر =

٤ - من قدرته وإرادته للحق قاصرة ، وفيه إرادة للباطل

والقسم الرابع : من قدرته قاصرة وإرادته للحق قاصرة ، وفيه من إرادة الباطل ما الله به عليم ، فهؤلاء ضعفاء المجرمين ، ولكن قد يكون لهم من التأثير بقلوبهم نصيب وحظ مع أهل باطلهم ، كما يوجد فى العلماء والعبّاد والزاهدين من المشركين وأهل الكتاب (١) ومنافقى هذه الأمة ما فيه مضاهاة (٢) لعلماء المؤمنين وعُبَّادهم (٣) ، وذلك أن الشيطان جعل [لكل] شيء (٤) من الخلق نظيرا فى الباطل ، فإن أصل الشر هو الإشراك بالله ، كما أن أصل الخير هو الإخلاص لله .

فإن الله سبحانه خلق الخلق ليعبدوه وحده لا يشركوا به شيئا ، وبذلك أرسل الرسل ، وبه أنزل الكتب ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [سورة النحل : ٣٦] .

العبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل

والعبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل ، فالعابد محب خاضع ، بخلاف من يحب من لا يخضع له ، بل يحبه ليتوسل به إلى محبوب آخر ؛ وبخلاف من يخضع لمن لا يحبه ، كما يخضع للظالم ، فإن كُلاًّ من هذين ليس عبادة محضة . وإن كل

= والصلة ، باب فضل الضعفاء) ، ٢١٩١/٤ (كتاب الجنة .... ، باب النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء) . وجاء حديث آخر عن معاذ بن جبل رضى الله عنه فى : سنن ابن ماجة ١٣٧٨/٢ (كتاب الزهد ، باب من لا يؤبه له) ونصه : « عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أخبرك عن ملوك الجنة ؟ قلت : بلى . قال : « رجل ضعيف مستضعف ، ذو طمرين ، لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره » . وضعف الألبانى هذا الحديث فى « ضعيف الجامع الصغير » ٢٤٢/٢ . وقال ابن الأثير فى « النهاية فى غريب الحديث والأثر » : « الطِّمْر : الثوب الخَلَق » . وانظر : المسند (ط . الحلبى) ١٤٥/٣ ، ٤٠٧/٥ .

(١) فى الأصل : الكتب .

(٢) فى الأصل : مظاهاة .

(٣) فى الأصل : وعبادتهم ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : لشيء ، ولعل الصواب ما أثبته .

محبوبَ لغير الله ، ومعظم لغير الله ، ففيه شوب من العبادة ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش » [١] .

وذلك كما جاء فى الحديث : « إن الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل » [٢] مع أنه ليس فى الأمم أعظم تحقيقا للتوحيد من هذه الأمة ، ولهذا كان شدَّاد بن أَوْس يقول : يا نعايا [٣] العرب يا نعايا [٣] العرب ، إن أخوف ما أخوف عليكم الرياء والشهوة الخفية » قال أبو داود : الشهوة الخفية : حب الرياسة [٤] .

وفى حديث الترمذى عن كعب بن مالك أن النبى ﷺ قال : « ماذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » قال الترمذى : حديث حسن صحيح [٥] . والحرص يكون على [قدر] [٦] قوة الحب والبغض .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [سورة يوسف : ١٠٦] ، وروى أن أبابكر الصديق رضى الله عنه قال للنبى ﷺ : إذا كان

---

(١) مضى هذا الحديث من قبل (ص : ٢٦١) .

(٢) مضى هذا الحديث من قبل (ص : ٢٥٤) .

(٣) نعايا : الكلمة فى الأصل غير منقوطة ، وكذا قرأتها ، وانظر التعليق التالى .

(٤) علقت على هذا الأثر فى المجموعة الأولى (ص ٢٣٣ ت ١) وذكرت فى تعليقى أن المنذرى فى « الترغيب والترهيب » ٤/٥٠ ذكر أن هذه ألفاظ حديث رواه عبد الله بن زيد رضى الله عنه عن النبى ﷺ وأن الحديث رواه الطبرانى بإسنادين أحدهما صحيح . وذكرت فى فهرس التصويبات والاستدراكات أن الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى نبهنى إلى أن القراءة الصحيحة هى « نعايا » لا « بغايا » (كما جاءت فى طبعة الترغيب والترهيب) وأحالنى إلى « النهاية » لابن الأثير ، و « الفائق » للزمخشرى . وانظر « النهاية » مادة « نعا » .

(٥) الحديث عن كعب بن مالك رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٤/١٦ - ١٧ (كتاب الزهد ، باب حدثنا سويد بن نصر) ؛ سنن الدارمى ٢/٣٠٤ (كتاب الرقاق ، باب ما ذئبان جائعان) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣/٤٥٦ ، ٤٦٠ .

(٦) زدت كلمة « قدر » ليستقم الكلام .

الشرك أخفى من دبيب النمل فكيف نتجنبه ؟ فقال النبى ﷺ : « ألا أعلمك / كلمة إذا قلتها نجوت من قليله وكثيره ، قل : اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، واستغفرك لما لا أعلم » (١) فأمره مع الاستعاذة من الشرك المعلوم بالاستغفار ، فإن الاستغفار والتوحيد بهما يكمل الدين .

ظ ١٧٠

كما قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [سورة محمد : ١٩] وقال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ . أَلَّا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وبَشِيرٌ ۔ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [سورة هود : ١ – ٣] .

وفى الحديث : « إن الشيطان قال : أهلكت بنى آدم بالذنوب ، وأهلكونى بلا إلٰه إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء ، فهم يذنبون ولا يستغفرون ، لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (٢) وهذا كذلك ، فإن من اتخذ إلٰهه هواه صار يعبد مايهواه ، وقد زُيِّن له سوء عمله فرآه حسنا .

قال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِى مِن دُونِى أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ۔ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۔ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [سورة الكهف : ١٠٢ – ١٠٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِى تَبَابٍ ﴾ [سورة غافر : ٣٧] .

---

(١) مضى هذا الحديث من قبل (ص : ٦٨) .

(٢) لم أجد هذا الحديث .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِّنكُمْ إِنِّى أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّى أَخَافُ اللهَ واللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ . إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة الأنفال : ٤٨ ، ٤٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ [سورة الأنعام : ١٣٧] .

وكمال الدين هو أداء الواجبات وترك المحرّمات ، والفعل والترك أصلهما الحب والبغض ، فإذا ترك مأمورا أو فعل محظورا (١) فإنما هو لنقص الإيمان الذى هو التصديق ، وحب ما يحبه الله وبغض ما يبغضه الله .

والمحبوبات على قسمين : قسم يُحب لنفسه ، وقسم يُحب لغيره . إذ لا بد من محبوب يحبُّ (٢) لنفسهْ ، وليس شيء شُرع أن يحب لذاته إلا الله تعالى ، وكذلك التعظيم لذاته ، تارة يعظم الشيء لنفسه ، وتارة يعظم لغيره ، وليس شيء يستحق التعظيم [لذاته] (٣) إلا الله تعالى .

وكل ما أمر الله أن يُحب ويُعظم فإنما محبته لله وتعظيمه عبادة لله ، فالله هو المحبوب المعظَّم فى المحبة والتعظيم ، المقصود المستقر الذى إليه المنتهى . وأما ما سوى ذلك فيحب لأجل الله ، أى لأجل محبة العبد لله : يحب ما أحبه الله ،

---

(١) فى الأصل : فعلا محضورا ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : يحبه ، وهو تحريف .

(٣) زدت « لذاته » ، ليستقيم الكلام .

فمن تمام محبة الشيء محبة محبوب المحبوب ، وبغض بغيضه ، ويشهد لهذا الحديث : « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله ، والبغض فى الله » (١)

وفى السنن « من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان » (٢) .

ص ١٧١

فمن أحب شيئا لذاته / أو عظّمه لذاته غير الله فذاك شرك به ، وإن أحبه ليتوصل به إلى محبوب آخر وتعظيم آخر سوى الله فهو من فروع هذا . والله سبحانه لم يشرع أن يعبد [الإنسان] (٣) شيئا من دونه ، أو يتخذ إلٰها ليتوصل بعبادته ، كما قال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَـٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [سورة الزخرف : ٤٥] وقال تعالى : ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٥١] .

من أحب شيئا كما يحب الله أو عظمه كما يعظم الله فقد أشرك

فمن أحب شيئا كما يحب الله ، أو عظّمه كما يعظم الله فقد جعله لله ندا ، وإن كان [يقول :] (٤) إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، وأنهم شفعاؤنا عند الله .

---

(١) الحديث – مع اختلاف فى بعض الألفاظ – فى مسند أحمد (ط . الحلبى) ٢٨٦/٤ عن البراء ابن عازب رضى الله عنه ولفظه « .... إن أوسط عرى الإيمان أن تحب فى الله وتبغض فى الله .... » . وحسنه الألبانى فى « صحيح الجامع الصغير » ١٨١/٢ وقال السيوطى : « حم (أحمد فى مسنده) ، ش (مصنف ابن أبى شيبة) ، هب (البيهقى فى شعب الإيمان) عن البراء » . وقال السيوطى فى « الجامع الكبير » : « أوثق عرى الإيمان الموالاة فى الله والحب فى الله والبغض فى الله » – (طب) = الطبرانى فى المعجم الكبير عن ابن عباس » .

(٢) مضى الحديث من قبل (ص : ٧٠) .

(٣) زدت كلمة « الإنسان » ليستقيم الكلام .

(٤) زدت كلمة « يقول » ليستقيم الكلام .

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] أى يحبونهم كما يحبون الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله منهم ، لأنهم أخلصوا لله ، فلم يجعلوا المحبة مشتركة بينه وبين غيره ، فإن الاشتراك فيها يوجب [(١)] نقصها ، والله لا يتقبل ذلك ، كما فى الحديث الصحيح يقول الله تعالى « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء ، وهو كله للذى أشرك » [(٢)] .

فالمؤمن – الذى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما – لابد أن يكون ما أحبه الله ورسوله أحب إليه مما لم يحبه الله ورسوله ، وأن يبغض ما يبغضه الله ورسوله ، فلا يكون ذلك البغيض أحب إليه من محبوب الله ورسوله .

والحب التام منا مستلزم للإرادة التامة الموجبة للفعل مع القدرة ، والبغض التام منا مستلزم للكراهة التامة المانعة للقدرة . فإذا كان العبد قادرا على محبات الحق ولا يفعلها فلضعف محبتها فى قلبه ، أو وجود ما يعارض الحق ، مثل محبته لأهله وماله ، فإن ذلك قد يمنعه عن فعل محبوب الحق .

كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] .

وقال ﷺ : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من

---

(١) فى الأصل : توجب .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ٢٨٨٩/٤ (كتاب الزهد ، باب من أشرك فى عمله غير الله) ؛ سنن ابن ماجه ١٤٠٥/٢ (كتاب الزهد ، باب الرياء والسمعة) ؛ المسند (ط . المعارف) – مع اختلاف يسير فى الألفاظ – ١٥٥/١٥ .

ولده ووالده والناس أجمعين » (١) . وقال له عمر : والله يارسول الله لأنت أحب إلىَّ من كل شيء إلا من نفسى . فقال : لا ياعمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك . قال : فأنت أحب إلىَّ من نفسى . قال : الآن ياعمر » (٢) وهذان الحديثان فى الصحيح .

فإن كانت واجبات نقص من درجة (٣) المقتصدين من أصحاب اليمين حتى يتوب أو يمحوها بشيء آخر ، وإن كانت نوافل – فإنها (٤) من القُرَب – بحسب ذلك . وإذا فعل مكروهات الحق فلضعف بعضها فى قلبه ، أو لقوة محبتها التى تغلب بعضها . فالإنسان لا يأتى شيئا من المحرَّمات – كالفواحش ماظهر منها ومابطن والإثم والبغى بغير الحق ، والشرك بالله مالم ينزل به سلطانا ، والقول على الله بغير علم – إلا لضعف الإيمان فى أصله أو كماله ، أو ضعف / العلم والتصديق ، وإما ضعف المحبة والبغض .

ظ ١٧١

الإنسان لا يفعل الحرام إلا لضعف إيمانه ومحبته

لكن إذا كان أصل الإيمان صحيحا ، وهو التصديق ، فإن هذه المحرمات [يفعلها المؤمن مع كراهته] وبغضه لها (٥) ، فهو إذا فعلها لغلبة الشهوة عليه ، فلابد أن يكون مع فعلها فيه بغض لها ، وفيه خوف من عقاب الله عليها ، وفيه رجاء لأن يخلص من عقابها ، إما بتوبة ، وإما حسنات ، وإما عفو ، وإما دون ذلك ، وإلا فإذا لم يبغضها ، ولم يخف الله فيها ، ولم يرج رحمته ، فهذا لا يكون مؤمنا بحال ، بل [هو] (٦) كافر أو منافق .

---

(١) مضى الحديث من قبل (ص : ١٢ ، ٥٧) .

(٢) مضى الحديث من قبل (ص : ١٢ ، ١٣ ، ٥٧)

(٣) فى الأصل : من حد . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : فإنه . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) فى الأصل جاءت هذه العبارات محرفة هكذا : لكن إذا كان إيمانكم صحيحا وهو تصديقه فإن هذه المحرمات وبغضه لها . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٦) زدت « هو » ليستقيم الكلام .

فكل سيئة يفعلها المؤمن لا بد أن تقترن بها حسنات له ، لكن قوة شهوته للسيئة وما زُيِّن له فيها ، حتى ظن أنها مصلحة له ، أوجب وقوعها ، وهو اتّباع الظن وما تهوى الأنفس ، وهذا القدر عَارَضَ بعض إيمانه فترجَّح عليه ، حتى ما هو ضد لبعض الإيمان ، فلم يبق مؤمنا الإيمان الواجب . كما قال النبى ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرِق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » (١) ، وهو فيما يفعله متبع للشيطان فيما زيَّنه له حتى رآه حسنا ، وفيما أمره به فأطاعه ، وهذا من الشرك بالشيطان ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [سورة الكهف : ٥٠] وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِى آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِى هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [سورة يس : ٦٠ ، ٦١] .

ولهذا لم يخلص من الشيطان إلا المخلصون لله ، كما قال تعالى عن إبليس : ﴿ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٣٩ ، ٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٤٢] وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل ٩٩ ، ١٠٠] .

فإذا كان الشيطان ليس له سلطان إلا على من أشرك به ، فكل من أطاع الشيطان فى معصية الله فقد تسلط الشيطان عليه ، وصار فيه من الشرك بالشيطان بقدر ذلك .

---

(١) مضى الحديث من قبل (ص : ٧٣ ، ٩١) .

والشيطان يوالى الإنسان بحسب عدم إيمانه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٧] وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۝ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ [سورة الزخرف : ٣٦ - ٣٨] وقال تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٢٤] .

ويشهد لهذا ما ثبت فى صحيح مسلم عن جابر عن النبى ﷺ : « إن الشيطان ينتصب عرشه على البحر ، ويبعث [١] سراياه [٢] » .

فجميع ما نهى الله عنه [هو] [٣] من شعب الكفر وفروعه ، كما أن كل ما أمر الله به هو من الإيمان والإخلاص / لدين الله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [سورة الأنفال : ٣٩] . ص ١٧٢

لكن قد يكون ذلك شركا أكبر ، وقد يكون شركا أصغر ، بحسب مايقترن [٤] به من الإيمان ، فمتى اقترن بما نهى الله عنه الإيمان لتحريمه وبغضه وخوف

---

(١) فى الأصل : ويبث . والذى أثبته هو لفظ الحديث .

(٢) الحديث عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ولكن جاء بثلاث روايات أولها : « سمعت النبى ﷺ يقول : إن عرش إبليس على البحر ، فيبعث سراياه فيفتنون الناس ، فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة » . والرواية الثالثة موافقة للرواية الأولى من قوله : « فيبعث ... إلخ » وأما الرواية الثانية فهى مطولة أولها : « إن إبليس يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه ، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة ... الحديث . وجاء الحديث برواياته فى مسلم ٢١٦٧/٤ (كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب تحريش الشيطان ....) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣١٤/٣ ، ٣٣٢ ، ٣٥٤ ، ٣٦٦ ، ٣٨٤ .

(٣) زدت « هو » ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : ما يفترون ، وهو تحريف .

العقاب ورجاء الرحمة لم يكن شركا أكبر ، وأما إن اتخذ [الإنسان مايهواه] [١] إلٰهًا من دون الله وأحبه [٢] كحب الله فهذا شرك أكبر ، والدرجات فى ذلك متفاوتة .

وكثير من الناس يكون معه من الإيمان بالله وتوحيده ماينجيه من عذاب الله ، وهو يقع فى كثير من هذه الأنواع ، ولا يعلم أنها شرك ، بل لا يعلم أن الله حرَّمها ، ولم تبلغه فى ذلك رسالة من عند الله ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [سورة الإسراء : ١٥] ، فهؤلاء يكثرون جدا فى الأمكنة والأزمنة التى تظهر فيها فترة الرسالة بقلة القائمين بحجة الله ، فهؤلاء قد يكون معهم من الإيمان ما يُرحمون به ، وقد لا يُعذّبون بكثير مما يُعذَّب [به] [٣] غيرهم ممن كانت عليه حجة الرسالة .

تزيين الشيطان لكثير من الناس أنواعا من الحرام ضاهوا بها الحلال

فينبغى أن يعرف أن استحقاق العباد للعذاب بالشرك فما دونه مشروط ببلاغ الرسالة فى أصل الدين وفروعه ، ولهذا لما كثر الجهل وانتشر، زيَّن الشيطان لكثير من الناس أنواعا من المحرمات ضاهوا [٤] بها الحلال ، وقد لا يعلمون أنها محرَّمة بغيضة إلى الله ، بل قد يظنون أن ذلك محبوب لله مأمور به ، وقد يظنون أن فيها هذا وهذا ، وهم فى ذلك يتّبعون الظن وما تهوى الأنفس . وقد يعلمون تحريم ذلك ، ويظهرون عدم الوجه المحرم خداعا ونفاقا . فهؤلاء غير المؤمن الذى يحب الله ورسوله ويأتى بالمحرم معتقدا أنه محرَّم ، وهو مبغض له [٥] ، خائف راج [٦] .

---

(١) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .
(٢) فى الأصل : وأحب .
(٣) زدت « به » ليستقيم الكلام .
(٤) فى الأصل : ظاهوا .
(٥) فى الأصل : يبغض له ، وهو تحريف .
(٦) فى الأصل : راجى ، وهو خطأ .

وهذه الأمور توجد فى الأقسام الثلاثة . ونحن نذكر أمثلة ذلك فى المحرَّمات التى ذكرها الله فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَابَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٣٣] فالله سبحانه قد حرَّم الفواحش كما ذكر .

وقد قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٥ ، ٦] ، فلم تُبح إلا المرأة التى هى زوج أو ملك يمين . وقد ذكر ما اشترطه فى الحلال بقوله : ﴿ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ [سورة النساء : ٢٥](١) ، وقوله ﴿ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِى أَخْدَانٍ ﴾ [سورة المائدة : ٥] .

كما فى الصحيح عن عائشة قالت : كان النكاح فى الجاهلية على أربعة أنحاء (٢) : وذكرت أصحاب الرايات ، وهن المسافحات ، وأن إلحاق النسب فى

---

(١) قال الطبرى فى تفسيره (ط . المعارف) ٨/١٩٣ : « غير مسافحات ولا متخذات أخدان : ذات الخليل الواحد . قال (أى ابن عباس رضى الله عنهما) : المسافحات : المعالنات بالزنا .... كان أهل الجاهلية يحرِّمون ما ظهر من الزنا ، ويستحلّون ما خفى ، يقولون : أما ما ظهر منه فهو لؤم ، وأما ما خفى فلا بأس بذلك » . وفى تفسير ابن كثير للآية : « وقال الضحاك : ولا متخذات أخدان : ذات الخليل الواحد المقرّة به » .

(٢) هذا الأثر عن عائشة رضى الله عنها جاء فى مواضع منها فى : البخارى ٧/١٥ - ١٦ (كتاب النكاح ، باب من قال : لا نكاح إلا بولى ....) ؛ سنن أبى داود ٢/٣٧٧ - ٣٧٨ (كتاب النكاح ، باب فى وجوه النكاح التى كان يتناكح بها أهل الجاهلية) . ونص هذا الأثر فى البخارى : « .... أخبرنى عروة ابن الزبير أن عائشة زوج النبى ﷺ أخبرته أن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء ، فنكاح منها نكاح الناس اليوم : يخطب الرجل إلى الرجل وليّته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها .

ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها : أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد ، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع . =

وطئهن كان بالقافة (١) ، وذكرت التى يطأها جماعة محصورة (٢) ، وأن الإلحاق كان بتعيين المرأة . وذكرت نكاح الاستبضاع (٣) ، وهو غير (٤) نكاح ذوات الأخدان . وذكرت النكاح الرابع ، وهو النكاح المعروف ، الذى أحلَّه الله .

فالشيطان جعل من الحرام / ما فيه مضاهاة للحلال ، وإن سُمِّىَ باسم آخر ، لكن المعنى فيه اشتراك ، فالله أباح للرجل امرأته ومملوكته (٥) ، وكل من الرجل والمرأة زوج الآخر (٦) ، فذوات الأخدان بينهن [وبين أخدانهن] (٧) نوع ازدواج واقتران كذلك ، ولهذا ميّز الله بين هذا وهذا . ظ ١٧٢

= ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ، ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم ، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان ، تُسمِّى من أحبت باسمه ، فيلحق به ولدها ، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل .

ونكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها ، وهن البغايا ، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون عَلَماً ، فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها ، جمعوا لها ودعوا لها القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاط به ودُعى ابنه لا يمتنع من ذلك .

فلما بُعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله ، إلا نكاح الناس اليوم » .

(١) قال ابن حجر فى « فتح البارى ١٨٥/٩ : « القافة : جمع قائف بقاف ثم فاء ، وهو الذى يعرف شَبَهَ الولد بالوالد بالآثار الخفية » .

(٢) فى الأصل : محضورة ، ولعل الصواب ما أثبته ، وانظر قول عائشة رضى الله عنها فى التعليق السابق : « يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها » .

(٣) فى الأصل : الاستمتاع ، وهو تحريف وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته ، وانظر خبر عائشة السابق رضى الله عنها .

(٤) فى الأصل : وهى من ، وهو تحريف ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته . وقد ذكر ابن حجر فى « فتح البارى » ١٨٤/٩ : « قوله (أربعة) : قال الداودى وغيره : بقى عليها (أى على عائشة رضى الله عنها) أنحاء لم تذكرها : الأول : نكاح الخدن ، وهو قوله تعالى : ﴿ ولا متخذات أخدان ﴾ [سورة النساء : ٢٥] . وانظر التفسير السابق لآية ٢٥ من سورة النساء .

(٥) فى الأصل : ومملوكيه .

(٦) فى الأصل : آخر .

(٧) فى الأصل : فذوات الأخدان بينهما ... إلخ . ولعل الصواب ما أثبته .

وأخفى [١] من ذلك مؤاخاة كثير من الرجال لكثير من النساء أو لكثير من الصبيان ، وقولهم : إن هذه مؤاخاة لله إذا لم تكن [٢] المؤاخاة على فعل الفاحشة كذوات الأخدان ؛ فهذا الذى يظهرونه للناس الذين يوافقونهم ويقرّونهم على ذلك ، ويرَوْن كلهم أن من أحب صبيا – أو امرأة – لصورته وحسنه من غير فعل فاحشة ، فإن هذا محبة لله .

فهذا من الضلال والغىّ وتبديل الدين ، حيث جعل ماكرهه الله محبوبا لله ، وهو نوع من الشرك ، والمحبوب المعظّم بذلك طاغوت .

وذلك أن اعتقاد أن التمتع بالمحبة والنظر أو نوع من المباشرة إلى المرأة الأجنبية والصبيان هو لله وهو حب فى الله ، كفر وشرك ، كاعتقاد أن محبة الأنداد حب لله ، وأن الاجتماع على الفاحشة تعاون على البر والتقوى ، وأن الإقامة على ذلك بالعبادة [٣] هى عبادة لله ، ونحو ذلك .

فاعتقاد أن هذه الأمور التى حرمها الله ورسوله تحريما ظاهرا : أنها دين الله ومحبة الله ، نوع من الشرك والكفر .

ثم قد يكون منها – من خفيِّها – أشياء تروج على من لم يبلغه العلم ، كما اشتبه على كثير من العلماء والعباد أن استماع أصوات الملاهى تكون عبادة لله ، واشتبه [٤] على من هو أضعف علما وإيمانا أن التمتع بمشاهدة هذه الصور يكون عبادة لله .

ثم بعد هذا الضلال ومافيه من الغى هم أربعة أقسام :

---

(١) فى الأصل : واخفا .
(٢) فى الأصل : لم يكن .
(٣) فى الأصل : بالقيادة .
(٤) فى الأصل : اشتبه .

قوم يعتقدون أن هذا لله ويقتصرون عليه ، كما يوجد مثل ذلك فى كثير من الأجناد والمتنسكة والعامة .

وقوم يعلمون أن هذا ليس لله ، وإنما يظهرون هذا الكلام نفاقاً وخداعا ، لئلا يُنكر عليهم ، وهؤلاء من وجه أمثل ، لما يُرجى لهم من التوبة ، ومن جهة أخبث ، لأنهم يعلمون التحريم ويأتون المحرم .

وقوم مقصودهم ماوراء ذلك من الفاحشة الكبرى ، فتارة يكونون من أولئك الظالمين الذين يعتقدون أن هذه المحبة التى لاوطء فيها لله ، فيفعلون شيئا لله ، ويفعلون هذا لغير الله ، وتارة يكونون [1] من أولئك الغاوين المنافقين الذين يظهرون أن هذه المحبة لله ، وهم يعلمون أنها للشيطان ، فيجمع هؤلاء بين هذا الكذب وبين الفاحشة الكبرى . وهؤلاء فى هذه المخادنة [2] والمؤاخاة يضاهون النكاح [3] ، فإنه يحصل بين هذين من الاقتران والازدواج مايشبه اقتران الزوجين ، ويزيد عليه تارة ، وينقص عنه أخرى . وما يشبه اقتران المتحابين فى الله والمتآخين [4] فى الله ، لكن الذين / آمنوا أشد حبا لله . ص ١٧٣

فالمتحابان فى الله يعظم تحابهما ويقوى ويثبت ، بخلاف هذه المؤاخاة الشيطانية ، فإنه يترتب عليها أنواع من الفساد . ثم هذا قد يظهر وينتشر حتى قد يسمونه زواجا ، ويقولون [5] : تزوج هذا بهذا ، كما يفعل ذلك بعض المستهزئين

(١) فى الأصل : يكون ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : المحادثة ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : يظاهون للنكاح ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : المتواخيين .

(٥) فى الأصل : ويقول ، وهو تحريف .

بآيات الله من فجّار الفساق (١) والمنافقين ، ويقرّه الحاضرون على ذلك ويضحكون ، وربما أعجبهم مثل هذا المزاح .

كما أن اعتقاد أن هذه المحبة لله أوجب لمن كان من فجّار الفساق والمنافقين أن يقول لهم : الأمرد حبيب الله ، والملتحى عدو الله ، وذلك يعجبهم ويضحكون منه ، وحتى اعتقد كثير من المردان أن هذا حق ، وهو داخل فى قول النبى ﷺ : « إذا أحب الله العبد نادى فى السماء : يا جبريل إنى أحب فلانا (٢) » ، فيصير يعجبه أن يُحب ويعتقد الغاوى أنه محبوب .

وذلك أن من فقهاء الكوفة من لا يوجب فى اللوطية الحد بل التعزير ، إلا إذا أسرف (٣) فيه فإنه يبيح قتله سياسة ، ومن الفقهاء من يوجب فيه حد الزانى ، كأشهر قَوْلى الشافعى ، وإحدى الروايتين عن أحمد ، وقول أبى يوسف ومحمد . وأكثر فقهاء الحجاز وأهل الحديث يوجبون قتلهما جميعا ، كمذهب مالك ، وظاهر مذهب أحمد .

وزعم بعض الفقهاء أن فجور [الرجل] بمملوكه (٤) شبهة فى درء (٥) الحد ، وهو موجب للتعزير ، كما هو أحد القولين فى وطء أمته المحرَّمة عليه برضاع

---

(١) فى الأصل : من فجار الفجار ، وستتكرر العبارة بعد قليل كما أثبتها هنا .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله فى : البخارى ١١١/٤ (كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة) ، وبقية الحديث فيه : « .... فلانا فأحببه فيحبه جبريل ، فينادى جبريل فى أهل السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض » . والحديث أيضا فى : البخارى ١٤/٨ (كتاب الأدب ، باب المقه من الله تعالى) ، ١٤٢/٩ (كتاب التوحيد ، باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة) ؛ مسلم ٢٠٣٠/٤ (كتاب البر والصلة والآداب ، باب إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده) ؛ سنن الترمذى ٣٧٨/٤ (كتاب تفسير القرآن ، سورة مريم) ؛ المسند (ط . المعارف) ٤٨/١٤ ، ٢٠٩/١٦ ، ٨١/١٨ - ٨٢ ، (ط . الحلبى) ٥١٤/٢ .

(٣) فى الأصل : أشرف ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : أن الفجور بمملوكه . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) فى الأصل : دار ، وهو تحريف .

أو محرَّمته . وأيضا فالعقوبة بالقتل إنما تكون فى حق البالغ (١ ، وأما الصبى – وأمثاله – فيجوز قتله إذا قاتل مع الكفار ١) ، فأما بمجرد فعله هو بنفسه فلا يقتل بل يعاقب بما يزجره (٢) .

وكذلك النوع الثانى من الحلال ، وهو ملك اليمين ، فإن المرأة قد تملك الرجل ، والرجل قد يملك الصبى ، وقد يكون فى هذا الملك نوع من ملك الرجل الأمة ، فربما استمتعت المرأة بمملوكها بمقدمات النكاح ، أو بالنكاح ، مضاهاة لاستمتاع الرجل بمملوكته (٣) ، وربما تأوَّلت القرآن على ذلك ، واعتقدت أن ذلك داخل فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ [سورة المؤمنون : ٦] ، كما رفع إلى عمر ابن الخطاب امرأة تزوجت عبدها ، وتأوَّلت هذه الآية ، ففرَّق بينهما ، وأدَّبه ، وقال : ويحك إنما هذه للرجال لا للنساء (٤) .

وكذلك كثير من جهَّال الترك وغيرهم قد يملك من الذكران من يحبهم ويستمتع بهم ، وقد يتأوَّل بعضهم على ذلك : ﴿ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ [سورة المؤمنون : ٦] ، ومن المعلوم أن هذا كفر بإجماع المسلمين ، فالاعتقاد بأن (٥) الذكران حلال – بملك أو غير ملك – باطل وكفر بإجماع المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم .

(١ – ١) : هذه العبارات مضطربة محرفة فى الأصل ، وكذا استظهرتها .

(٢) انظر فى حكم اللواط : المغنى لابن قدامة ٣١/٩ – ٣٢ (ط . مطبعة العاصمة ، القاهرة ، بدون تاريخ) ؛ نيل الأوطار للشوكانى ٢٨٦/٧ – ٢٨٨ (ط . المنيرية ، ١٣٤٤) ؛ المحلّى لابن حزم ٣٨٠/١١ – ٣٨٦ (ط . المنيرية ، ١٣٥٢) .

(٣) فى الأصل : بمملوكه ، وهو تحريف .

(٤) انظر : تفسير الطبرى (دار المعارف) ٥٨٦/٩ ؛ تفسير ابن كثير ٤٥٧/٥ وقال ابن كثير عن هذا الأثر : « هذا أثر غريب منقطع » .

(٥) فى الأصل : فاعتقاد بيان ، وهو تحريف .

ثم من هؤلاء من يتأول هذه الآية ، ومنهم من يتأول : ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ ﴾ [سورة البقرة : ٢٢١] ولا يفرق بين المنكوح والناكح ، كما سألنى مرة بعض الناس عن هذه الآية ، وكان ممن يقرأ القرآن ويطلب العلم ، وقد ظن أن معناها إباحة ذكران المؤمنين .

وآخرون قد يجتمع بهم من يقول لهم : إن فى هذه المسألة [١] خلافا ، ويكذب / أئمة المسلمين الذين لاتكون مذاهبهم ظاهرة فى بلاده ، مثل من يكون بأرض الروم فيكذب على مذهب مالك ويقول : هو مباح فى مذهب مالك ، ومنهم من يقول : هذا مباح للضرورة ، مثل أن يبقى الرجل أربعين يوما [٢] ، إلى أمثال هذه الأمور التى خاطبنى فيها ، وسألنى عنها ، طوائف من الجند والعامة والفقراء ، وكان عندهم من هذه الاعتقادات الفاسدة ألوان مختلفة ، قد صدتهم عن سبيل الله .

ظ ١٧٣

ومنهم من قد بلغه خلاف بعض العلماء فى وجوب الحد فى بعض الصور ، فيظن أن ذلك خلاف فى التحريم ، فربما قال ذلك أو اعتقده ، ولا يفرِّق بين الخلاف على الحد المقدَّر والتحريم ، وأن الشيء قد يكون من أعظم المحرَّمات ، كالدم والميتة ولحم الخنزير ، وليس فيه حدٌّ مقدر .

ثم ذلك الخلاف قد يكون قولا ضعيفا [٣] ، فيتولد من ذلك القول الضعيف - الذى هو خطأ بعض المجتهدين [٤] ، وهذا [٥] الظن الفاسد الذى هو خطأ بعض الجاهلين - ومن الكذب الذى هو فرية بعض الظالمين ، تبديل

---

(١) فى الأصل : المسلمة .
(٢) أربعين يوما : كذا بالأصل . والمقصود أن يبقى الرجل أربعين يوما بدون نكاح .
(٣) فى الأصل : معينا ، وهو تحريف .
(٤) فى الأصل : المجتهد ، وهو تحريف .
(٥) فى الأصل : وهو .

الدين ، وطاعة الشياطين ، وسخط رب العالمين ، حتى نُقل أن كثيرا من المماليك يتمدّح بأنه لا يعرف إلا سيده ، كما تتمدح الأمة بأنها لا تعرف إلا سيدها وزوجها ، وكذلك كثير من المردان [١] الأحداث يتمدّح بأنه لا يعرف إلا خدينه وصديقه أو مؤاخيه ، كما تتمدح المرأة بأنها لاتعرف إلا زوجها . وكذلك كثير من الزناة بالمماليك والأحداث من الصبيان ، قد يتمدح بأنه عفيف عمَّا سوى خدنه ، الذى هو قرينة كالزوجة ، أو عمَّا سوى مملوكه الذى هو قرينه [٢] ، كما يتمدح المؤمن بأنه عفيف [إلا] [٣] عن زوجته أو ما ملكت يمينه .

ولا ريب أن الكفر والفسوق والعصيان درجات ، كما أن الإيمان والعمل الصالح درجات : ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٦٣] . وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ [سورة التوبة : ٣٧] ، وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [سورة التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [سورة الصف : ٥] ، كما قال تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٧] وقال ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾ [سورة المائدة : ٦٨] ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ ﴾ [سورة الرعد : ٣٦] .

فالمتخذ خدنا من الرجل والنساء أقل شرا من المسافح ، لأن الفساد فى ذلك أقل ، والمستخفى بما يأتيه أقل إثما من المجاهر المستعلن ، كما فى الحديث عن

---

(١) فى الأصل كأنها : اللصفا . ولعل الصواب ما أثبته . وانظر : إغاثة اللهفان لابن القيم ، ١٤٦/٢ (ط . الفقى ، القاهرة ١٩٣٩/١٣٥٨) .

(٢) فى الأصل الكلمة غير واضحة كأنها « كربنه » ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) زدت « إلا » ليستقيم الكلام .

النبى ﷺ أنه قال : « من ابتلى من هذه القاذورات بشىء فليستتر بستر الله ، فإنه من يبد لنا صفحته نُقِمْ عليه كتاب الله » [١] .

وقد قال ﷺ : « من ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة » [٢] .

ص ١٧٤ وفى الحديث : / « إن الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها ، ولكن إذا أعلنت فلم تنكر ضرت الجماعة [٣] » .

وفى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال : « كل أمتى معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يبيت [٤] الرجل على الذنب وقد ستره الله ، فيصبح فيتحدث بذنبه [٥] ، ويقول : يا فلان فعلت الليلة كيت وكيت » ، أو كما قال [٦] .

---

(١) الحديث عن زيد بن أسلم رضى الله عنه فى : الموطأ ٢/٨٢٥ (كتاب الحدود ، باب ما جاء فيمن اعترف على نفسه بالزنا) ولفظه : أن رجلا اعترف على نفسه بالزنا .... فأمر به رسول الله ﷺ فجلد . ثم قال : أيها الناس ، قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله . مَن أصاب من هذه القاذورات .... الحديث .

(٢) الحديث بهذا اللفظ جزء من حديث طويل عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ٤/٢٠٧٤ (كتاب الذكر ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن) وأوله : « من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا .... الحديث . وهو – مع اختلاف فى اللفظ – فى : سنن أبى داود ٤/٣٩٣ (كتاب الأدب ، باب فى المعونة للمسلم) ؛ سنن ابن ماجة ١/٨٢ (المقدمة ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم) ٢/٨٥٠ (كتاب الحدود ، باب الستر على المؤمن ودفع الحدود بالشبهات) ؛ سنن الترمذى ٢/٤٣٩ (كتاب الحدود ، باب ما جاء فى الستر على المسلم) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٣/١٦١ ، ١٥/٨٦ وفى مواضع أخرى فيه .

(٣) ذكر السيوطى فى « الجامع الكبير » هذا الحديث بلفظ : « الخطية إذا أخفيت لا تضر إلا صاحبها ، وإذا ظهرت فلم تغيَّر ضرت العامة » ثم قال السيوطى : « الديلمى عن أبى هريرة » .

(٤) فى الأصل : أن ببت (بغير نقط) .

(٥) فى الأصل : سيه ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٨/١٩ – ٢٠ (كتاب الأدب ، باب ستر المؤمن على نفسه) ونصه : « كل أمتى معافىً إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ، =

فالإقلال والاستخفاء خير من هذه الوجوه ، ولكن قد يقترن بها ما يكون أعظم من بعض المسافحة والمجاهرة ، وهى المحبة والتعظيم التى توجب محبة ما يحبه الخدن ، وتعظيم مايعظمه ، وموالاة من يواليه ، ومعاداة من يعاديه ، والاستسرار بذلك والنفاق فيه ، فقد تكون فى هذه الموالاة والمعاداة والنفاق من العدوان والضرر على المسلمين ، أعظم مما فى المجاهرة والمسافحة ، ويكون (١) ذلك بمنزلة الكافر المعلن كفره ، وهذا بمنزلة المنافق . فأما إذا لم يكن عدوان على الناس وتضييع لحقوقهم لانتفاء المحبة أو لغير ذلك ، فالأول أخبث وأفحش . وتفاوت الشرور فى القدر والصفة كثير ، كما يتفاضل الخير أيضا فى القدر والوصف ، والواجب استعمال (٢) الكتاب والسنة فى جميع الأمور (٣) .

ولا ريب أن هذه المخادنة وملك اليمين ونحو ذلك مما فيه اشتراك فى محرم مضاد للحلال ، لابد أن يتضمن من (٤) المباح ما يصير فيه من الشبه بالحلال ، و [من] التمييز (٥) عن الحرام المحض مايكون فيه رواج له ، إذ الحرام المحض من كل وجه لا يشتبه بالحلال المحض من كل وجه ، بل يقتنى (٦) الرجل المملوك لنوع من الاستخدام ، ويضم إلى ذلك الاستمتاع ، وقد يكون هذا أغلب فى نفسه من

= ثم يصبح وقد ستره الله ، فيقول : يا فلان عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه » . والحديث أيضا فى : مسلم ٢٢٩١/٤ (كتاب الزهد ، باب النهى عن هتك الإنسان ستره) .

(١) فى الأصل الكلمة غير واضحة كأنها : مراده . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : واستعمال .

(٣) فى الأصل كأنها : والدارين .

(٤) فى الأصل : فى ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : والتمييز . ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) فى الأصل : يقى . ولعل الصواب ما أثبته .

الآخر ، وقد يكون بالعكس . وذلك الاستخدام قد يكون مباحا فى الشريعة ، وقد يكون فيه نوع من الظلم والعدوان ، إما باسترقاق الأحرار ، وإما باشتراء المماليك لنفسه بالمال المغصوب [١] من بيت المال أو غيره ، وإما فى استخدامهم على وجه الكبرياء والعلو فى الأرض بإذلاله لهم [٢] فى غير طاعة الله ، وإذلال الناس بهم فى غير طاعة الله ، إلى أمثال ذلك من الوجوه التى يكون فيها من الظلم والعدوان أمور عظيمة ، وينضم إلى ذلك الفاحشة .

وكذلك فى المخادنة التى صورتها مؤاخاة ، قد تكون لأجل الاستئجار لصناعة ونحوها ، وقد تكون لتعلم صناعة أو كتابة أو قراءة أو علم أو تأديب وتنوير ، وغير ذلك من الأمور المباحة والمستحبة والواجبة فى الدين ، وقد تكون لكفالة وتربية ، إما ليتم ذلك الصبى أو غربته ، أو لقرابة بينهما ، أو غير ذلك ، وقد يكون اشتراكا محضا فى صناعة أو تجارة أو بحمل مال ، أو مجاورة وصلة [٣] ، أو تعلم أو تأدب أو غير ذلك مما يشترك الناس فيه لغير فاحشة بشركة مباحة أو مأمورٍ بها أو منهيٍّ [٤] عنها ، ويكون بينهم فى ذلك من التعاقد والتحالف ما يكون بين المشتركين فى الأمور ، وقد يسمى ذلك صديقا ورفيقا ، وسمى بالتركية / خوشداشا وغير ذلك ، وهو من قسم التحالف ، فيكون بين المشتركين فى الحلال والحرام [٥] من المعاوضة والمشاركة ، [إما] [٦] على غير فاحشة ، وإما [٧]

ظ ١٧٤

---

(١) فى الأصل : المال لنفسه المغضوب ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : بإذلالهم له ، وهو خطأ . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل الكلمة غير واضحة وكذا استظهرتها .

(٤) فى الأصل : أو منهيا ، وهو خطأ .

(٥) فى الأصل : فى المشتركين فى الحرم ، والكلام ناقص ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) زدت « إما » ليستقيم الكلام .

(٧) فى الأصل : إما .

معاوضة بتلك ، فتكون شبهة مع الشهوة . فغالب وقوع المحرمات من هذا الباب ، وقد لُبِّس فيه الحق بالباطل ، وأُشْرِك [١] فيه الحق بالباطل .

موقف المؤمن من الشرور والخيرات وما يجب عليه حيالها

والمؤمن ينبغي له أن يعرف الشرور الواقعة ، ومراتبها فى الكتاب والسنة ، كما يعرف الخيرات الواقعة ، ومراتبها فى الكتاب والسنة ، فيفرِّق [بين] [٢] أحكام الأمور الواقعة الكائنة ، والتى يُراد إيقاعها فى الكتاب والسنة ، ليقدِّم ما هو أكثر خيراً وأقل شرًّا على ما هو دونه ، ويدفع أعظم الشرين باحتمال أدناهما ، ويجتلب أعظم الخيرين بفوات أدناهما ، فإن من لم يعرف الواقع فى الخلق ، والواجب فى الدين ، لم يعرف أحكام الله فى عباده ، وإذا لم يعرف ذلك كان قوله وعمله بجهل ، ومن عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح .

وإذا عَرَف ذلك فلابد أن يقترن بعلمه العمل الذى أصله محبته لما يحبه الله ورسوله ، وبغضه لما يبغضه الله ورسوله . وما اجتمع فيه الحبيب والبغيض ، المأمور به والمنهى عنه ، أو الحلال والمحظور [٣] ، أعطى كل ذى حق حقه ليقوم الناس بالقسط ، فإن الله بذلك أنزل الكتاب ، وأرسل الرسل ، فالعلم بالعدل قبل فعل العدل .

فإذا علم وأحب [٤] ، كان من تمامه الجهاد عليه ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [سورة الحديد : ٢٥] [٥] ، والعلم

---

(١) فى الأصل : وأشركه .

(٢) زدت « بين » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : والمحضور .

(٤) فى الأصل : واجب .

(٥) جاءت الآية فى الأصل محرّفة .

هو طريق إلى العمل وسبب ، كما قيل فى قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ [سورة الكهف : ٨٤] أى علما .

فالعلم بالخير سبب إلى فعله ، والعلم بالشر سبب إلى منعه ، هذا مع حسن النية ، وإلا فالنفس الأمَّارة بالسوء قد يكون علمها (١) بالسوء سبب لفعله ، وبالخير سبب لمنعه ، وكذلك الإثم والبغى بغير الحق ، مثل الخمر الذى اتُّخذ منه أنواع من المسكرات ، وقيل : إنها حلال ، وسُمِّيت بغير أسماء الخمر ، وهى من الخمر .

وكذلك ظلم العباد فى النفوس والأموال والأعراض ، فيه ما قد سمى حقًّا وعدلاً (٢) وشرعا وسياسة وجهادا فى سبيل الله ، وهو من الكفر والفسوق والعصيان ما لا يحصيه إلا الله . وكذلك الإشراك بالله بغير حق ، والقول بما لا يُعلم ، مثل أنواع الغلو فى الدين ، واتخاذ العلماء والعباد أربابا من دون [الله ، والقول] (٣) بتحريم الحلال ، وتحليل الحرام ، وأنواع الإشراك بالمخلوقات : عبادة لها ، واستعانة بها ، وغُلُوا فيها ، وقولا على الله فى أسمائه وصفاته وأحكامه ما (٤) قد دخل فى ذلك من الباطل الذى سُمِّىَ بأسماء محمودة أو غير مذمومة : كالعبادة ، والزهادة ، والتحقيق ، وأصول الدين ، والفقه ، والعلم ، والتوحيد ، والكلام ، / والفقر والتصوف ما لا يحصيه إلا الله (٥) . ص ١٧٥

ومما ينبغى أن يُعرف أن كل تبديل يقع فى الأديان ، بل كل اجتماع فى العالم ، لابد فيه من التحالف ، وهو الاتفاق والتعاقد على ذلك ، من اثنين فصاعدا .

---

(١) فى الأصل : عملها ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : وعده . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

(٤) بعد « ما » كتب « وبها » ويبدو أنها زائدة ، ونسى الناسخ حذفها .

(٥) فى أعلى صفحة ١٧٥ إلى اليسار كتب : الرابع .

بنو آدم لا يمكن عيشهم إلا بالتعاقد والتحالف

فإن بنى آدم لا يمكن [١] عيشهم إلا بما يشتركون فيه من جلب منفعتهم ودفع مضرتهم . فاتفاقهم على ذلك هو التعاقد والتحالف .

ولهذا كان الوفاء بالعهود من الأمور التى اتفق أهل الأرض على إيجابها لبعضهم على بعض ، وإن كان منهم القادر الذى لا يوفِّى بذلك ، كما اتفقوا فى إيجاب العدل والصدق ، فإذا اتفقوا وتعاقدوا على اجتلاب الأمر الذى يحبونه ، ودفع الأمر الذى يكرهونه ، أعان بعضهم بعضا على اجتلاب المحبوب ، ونصر بعضهم بعضا على دفع المكروه ، ولو لم يتعاقدوا بالكلام ، فنفس اشتراكهم فى أمر يوجب عليهم اجتلاب ما يصلح ذلك الأمر المشترك ، ودفع ما يضره ، كأهل النسب الواحد ، وأهل البلد الواحد ، فإن التناسب والتجاور يوجب التعاون على جلب المنفعة المشتركة ، ودفع الضرر المشترك .

فصار الاشتراك بينهم تارة يثبت بفعلهم ، وهو التعاقد على ما فيه خيرهم [٢] ، وتارة يثبت بفعل الله تعالى . وقد جمع الله عز وجل هٰذين الأصلين فى قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ [سورة النساء : ١] ، وذكر فى هذه السورة [الأمور] [٣] التى بينهم من جهة الخلق ، وهى من جهة العقود ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْرًا ﴾ [سورة الفرقان : ٥٤] .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۝ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ [سورة الرعد : ٢٠ ، ٢١] الآية .

---

(١) فى الأصل : لا تمكن .

(٢) بعد كلمة « التعاقد » يوجد فى المصورة كلمات غير واضحة كأنها : لعطارد عنها . ولعل ما أثبته يستقيم به المعنى .

(٣) زدت « الأمور » ليستقيم الكلام .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلاَّ الفَاسِقِينَ . الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ به أن يُوصَلَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٦ ، ٢٧] .

وإذا كان لابد فى كل ما يشتركون فيه ، من تحالف وغير تحالف ، من التعاون على جلب المحبوب ، والتناصر لدفع المكروه ، فالمحبوب هو الموالى ، والمكروه هو المعادى ، فلابد لكل بنى آدم من وِلاية وعداوة ، ولهذا جميعهم يتادحون بالشجاعة والسماحة ؛ فإن السماحة إعانة على وجود المحبوب بالأموال والمنافع وغير ذلك ، والشجاعة نصر لدفع المكروه بالقتال وغيره ، ولا قوام لشىء من أمور بنى آدم إلا بذلك ، ومبنى ذلك بينهم على العدل فى المشاركات والمعاوضات .

فظهر أن جميع أمور بنى آدم لابد فيها من تعاون بينهم ، ودفع ومنع لغيرهم ، فلابد لهم من عقد وقدرة ، والعقد أصله الإرادة كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ ﴾ [سورة النساء : ١] / أى يتعاهدون ويتعاقدون [١] ، والقدرة : القدرة .

ظ ١٧٥

ومعلوم أنه لابد فى كل فعل من إرادة وقدرة ، والمشتركون لابد من اتفاقهم فى إرادة وفى قدرة . فالذى يناله بعضهم من جلب محبوب ودفع مكروه من بعض ، هو بالإرادة والطوع ، والذى ينالونه من غيرهم من جلب محبوب ودفع مكروه ، وهو بالقدرة على ذلك العدو المكروه منه ، كما أن [٢] الوطء [٣] بملك النكاح الذى هو عقد ، أصله الإرادة والطوع ، وبملك اليمين ، الذى هو قهر بالقدرة على سبيل الكره ، واشتراكهم فى الجلب والدفع إما أن يكون تبعا لتعاقدهم ، وإما أن

---

(١) فى تفسير الطبرى للآية عن الضحاك والربيع : اتقوا الله الذى به تعاقدون وتعاهدون .
(٢) فى الأصل : كما لو أن ....
(٣) فى الأصل : الوطى .

يكون بأمر آمر مطاع فيهم ، فالأول : هو التحالف . والثانى : ما يطاع بغير تحالف ، سواء كانت طاعته بحق أو بغير حق .

فالذى بحق ما أمر الله بطاعته من أنبيائه وأولى الأمر من المؤمنين ، وطاعة الوالدَيْن ، ونحو ذلك ، وما يُجاب به بعضهم إلى مراد بعض بحق ، فإن ذلك هو معنى الطاعة ، إذ المقصود بها موافقة المطلوب .

وأما بغير حق فكطاعة الطواغيت ، وهو كل ما عُظِّم بباطل .

التحالف يكون وفقا الشريعة منزلة أو شريعة غير منزلة أو سياسة

وكل قوم لا تجمعهم طاعة مطاع فى جميع أمورهم ، فلابد لهم من التعاقد والتحالف فيما لم يأمرهم به المطاع .

ولهذا كانت الشريعة المنزَّلة من عند الله الأفعال فيها التى تجب لله ، وتجب لبعض الناس على بعض : تارة تجب بإيجاب الله ، وتارة تجب بالعقد : كالنذر ، وكعقود المفاوضات والمشاركات ، فلا واجب فى الشريعة إلا بشرع أو عقد .

وإذا لم يكونوا على شريعة منزَّلة من عند الله ، فإما أن يكونوا على شريعة [غير] (١) منزَّلة أو سياسة وضعها بعض المعظَّمين (٢) فيهم بنوع قدرة وعلم ونحو ذلك ، وما بقدرة من هذه الأمور الجامعة أوجب التحالف بينهم ، فإنه لا ينتظم لهم أمر إلا بطاعة آمرٍ متحالفون عليه ، أو يأمرهم به من يطيعونه ، ولهذا أُنكر التحالف فى الأمم الخارجة عن الشريعة ، وفى الخارجين عنها ، وفى الأمور التى لا تُرَدُّ إلى الشريعة ، وإنما يظهر ذلك حيث تدرس آثار النبوة المطاعة ، فيتحالف قوم على طاعة مَلِك أو شيخ ، أو طاعة بعضهم لبعض فى (٣) أمور

---

(١) زدت « غير » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : المعضمين .

(٣) فى الأصل : من .

يتفقون عليها ويتحالفون ، كما كان العرب فى جاهليتهم (١) يتحالفون . ومنه الحليف الذى يكون فى القبيلة / فيصير منهم . ص ١٧٦

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ [سورة النساء : ٣٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [سورة النحل : ٩١ ، ٩٢] .

وكذلك ما يوجد من التحالف بالتآخى وغير التآخى للملوك والمشايخ وأهل الفتوة ورماة البندق ، وسائر المتفقين على بعض الأمور ، هو داخل فى هذا . وأيمان (٢) التعاقد والتحالف عام لبنى آدم ، وهم فى جاهليتهم تارة يتحالفون تحالفاً يحبه الله ، كما قال النبى ﷺ : « لقد شهدت حلفا مع عمومتى (٣) فى دار عبد الله بن جُدْعَان ما يسرنى بمثله حُمْر النَّعَم ، أو قال : [ما] (٤) يسرنى حُمْر النَّعَم وأن أنقضه (٥) ، ولو دُعيت إلى مثله فى الإسلام لأجبت » (٦) .

---

(١) فى الأصل : كما كان فى العرب جاهليتهم ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : ... هذا إيمان .

(٣) فى الأصل : فى عمومتى . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته . وعبارة « مع عمومتى » جاءت فى حديث آخر ، كما سوف أبينه بعد قليل إن شاء الله .

(٤) زدت « ما » ليستقيم الكلام .

(٥) فى الأصل : وإن نقضه . ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) لم أجد هذا الحديث فى كتب السنة ، ولكن جاء فى سيرة ابن هشام ١٤١/١ – ١٤٢ =

وفى مثل هذا ما رواه [مسلم] عن [جبير بن مطعم ، عن] النبى ﷺ (١) أنه [قال :] (٢) « لا حلف فى الإسلام ، وما كان من حلف فى الجاهلية فلم يزده الإسلام إلا شدة » (٣) .

= ونصه : « قال ابن إسحاق : فحدثنى محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ التيمى أنه سمع طلحة بن عبد الله ابن عوف الزهرى يقول : قال رسول الله ﷺ : لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدعان حلفاً ما أحب أن لى به حُمْر النَّعم ، ولو أُدعى به فى الإسلام لأجبت » .

وذكر الخبر ابن سعد فى « الطبقات الكبرى » ١/١٢٨ - ١٢٩ (ط . بيروت ، ١٩٥٧/١٣٧٦) ونصه فيه : « قال : وأخبرنا محمد بن عمر قال : فحدّثنى محمد بن عبد الله عن الزهرى عن طلحة بن عبد الله بن عوف عن عبد الرحمن بن أزهر عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : ما أحب أن لى بحلف حضرته بدار ابن جُدعان حُمْرَ النَّعَم وأنى أغدر به ، هاشم وزُهرة وتَيْم تحالفوا أن يكونوا مع المظلوم ما بَلَّ بحر صوفة ، ولو دُعيت به لأجبت . وهو حلف الفضول » .

(١) فى الأصل : ما رواه (كذا) عن جابر عن النبى ﷺ . وكتبت كلمة « كذا » فوق البياض . والصواب ما أثبته إن شاء الله .

(٢) زدت « قال » ليستقيم الكلام .

(٣) الحديث عن جبير بن مطعم رضى الله عنه فى : مسلم ١٩٦٠/٤ (كتاب فضائل الصحابة ، باب مؤاخاة النبى ﷺ بين أصحابه رضى الله تعالى عنهم) ونصه فيه : « لا حلف فى الإسلام ، وأيّما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة » . والحديث أيضا فى : سنن أبى داود ١٧٧/٣ - ١٧٨ (كتاب الفرائض ، باب فى الحلف) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٨٣/٤ .

على أن هذا الحديث يقابله حديث آخر عن أنس رضى الله عنه جاء فى : البخارى ٩٦/٣ (كتاب الكفالة ، باب قول الله تعالى : والذين عاقدت أيمانكم ....) ونصه : « ... حدثنا عاصم ، قال : قلت لأنس رضى الله عنه : أبلغك أن النبى ﷺ قال : لا حلف فى الإسلام ؟ فقال : قد حالف النبى ﷺ بين قريش والأنصار فى دارى » . وجاء هذا الحديث أيضا فى : سنن أبى داود ١٧٨/٣ (كتاب الفرائض ، باب فى الحلف) وفى مواضع أخرى فى كتب السنة .

وقال النووى فى شرحه على مسلم ٨١/١٦ - ٨٢ : « قال القاضى : قال الطبرى : لا يجوز الحلف اليوم ، فإن المذكور فى الحديث والموارثة به وبالمؤاخاة كله منسوخ لقوله تعالى : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض ﴾ [سورة الأنفال : ٧٥] . وقال الحسن : كان التوارث بالحلف ، فنسخ بآية المواريث . قلت : أما ما يتعلق بالإرث فيستحب فيه المخالفة عند جماهير العلماء . وأما المؤاخاة فى الإسلام ، والمحالفة على طاعة الله تعالى ، والتناصر فى الدين ، والتعاون على البر والتقوى وإقامة الحق ، فهذا باقٍ لم ينسخ » .

وهذا الحلف يسمى حلف المُطَيِّبين [١] ، كان يقدم إلى مكة من يظلمه بعض أكابرها ، فيستصرخ فلا ينصره أحد ، حتى أنشد بعض القادمين :

يا آل مكة مظلوم بضاعته ببطن مكة بين الركن والحجر

وكان عبد الله بن جدعان [٢] من خيارهم ، فاجتمعت قبائل من قريش فى بيته على التحالف للتعاون على العدل ونصر المظلوم ، ووضعوا أيديهم فى قصعة فيها طيب ، فسمى حلف المطيِّبين [٣] .

---

(١) جاء ذكر حلف المطيبين فى مسند أحمد فى موضعين الأول ٣/١٢١ - ١٢٢ (ط . المعارف) ونصه : « ... عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف عن النبى ﷺ قال : شهدت حِلف المُطَيِّبين مع عمومتى وأنا غلام ، فما أحب أن لى حُمْر النَّعم وأنى أنكثه . قال الزهرى : قال رسول الله ﷺ : لم يُصب الإسلام حلفا إلا زاده شدة ، ولا حلف فى الإسلام ، وقد ألف رسول الله ﷺ بين قريش والأنصار » . والحديث الثانى ٣/١٣٦ (ط . المعارف) وهو مختصر للحديث الأول وصحح الشيخ أحمد شاكر الحديثين (والقسم الذى يبدأ بكلام الزهرى مرسل) ، وذكر أن الحديث فى مجمع الزوائد ٨/١٧٢ وأن ابن كثير نقله فى تاريخه ٢/٢٩٠ - ٢٩١ وأن ابن كثير نقل عن البيهقى قوله : « وزعم بعض أهل السير أنه أراد حلف الفُضُولِ ، فإن النبى ﷺ لم يدرك حلف المطيبين » ووافق ابن كثير البيهقى (انظر كلامه فى ذلك) ، ولكن الشيخ أحمد شاكر رحمه الله خالفه وقال : « ولا شك أن الحلف الذى كان عقيب موت قصى قديم ، ولكن هذا لا ينفى أن يسمى الحلف الذى شهده رسول الله « حلف المطيبين » فهو حلف آخر كان قبل البعثة ، ولعله كان توكيداً للحلف القديم . انظر : النهاية ١/٢٤٩ - ٢٥٠ وفيها : « وكان رسول الله ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه من المطيبين ، وكان عمر رضى الله عنه من الأحلاف » . ونحو هذا فى قاموس الفيروزابادى فى مادة (ط ى ب) » .

(٢) انظر ما ذكره ابن كثير فى تاريخه من أخبار عبد الله بن جُدْعان ٢/٢١٧ - ٢١٨ = ١/١١٦ - ١١٧ (السيرة النبوية لابن كثير ، تحقيق الأستاذ مصطفى عبد الواحد ، ط . عيسى الحلبى ، ١٣٨٤/١٩٦٤) .

(٣) قال ابن كثير فى تاريخه ٢/٢٩١ - ٢٩٢ = السيرة النبوية ١/٢٥٨ - ٢٥٩ : « قالوا : وكان حلف الفضول قبل المبعث بعشرين سنة فى شهر ذى القعدة ، وكان بعد حرب الفِجار بأربعة أشهر ، وذلك لأن الفجار كان فى شعبان من هذه السنة . وكان حلف الفُضُول أكرم حلف سُمِع به ، وأشرفه فى العرب ، وكان أول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب . وكان سببه أن رجلا من زَبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدى الأحلاف : عبد الدار =

فأما إذا كان القول على الشريعة التى بعث الله بها رسوله فى دينهم ودنياهم فإن ذلك يغنيهم عن [١] التحالف إلا عليها ، فعليها يكون تحالفهم وتعاقدهم وتعاونهم وتناصرهم ، كما وصف الله به المحبين المحبوبين فى قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] .

وعلى ذلك يُبَايِعُ المطاعون [٢] فيهم من الأمراء والعلماء وغيرهم ، كما قال أبو بكر الصديق فى خطبته للمسلمين : « أطيعونى ما أطعت الله [ورسوله] [٣] ، فإذا عصيت الله [ورسوله] [٣] فلا طاعة لى عليكم » [٤] .

= ومخزوماً وجُمحاً وسهماً وعديَّ بن كعب ، فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل ، وزبروه – أى انتهروه – فلما رأى الزبيدى الشر أوفى على أبى قُبيس عند طلوع الشمس ، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فنادى بأعلى صوته :

يا آل فِهْر لمظلوم بضاعتَــه ... ببطن مكة نائى الدار والنفَرِ
ومُحرِمٍ أشعثٍ لم يقْضِ عُمْرته ... يا للرجال وبين الحجر والحِجرِ
إن الحرام لمنْ تمَّت كرامتَــه ... ولا حَرام لثوب الفاجر الغَدِرِ

فقام فى ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال : ما لهذا مَتْرك . فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرَّة فى دار عبد الله بن جُدعان فصنع لهم طعاماً ، وتحالفوا فى ذى القعدة فى شهر حرام ، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونُنّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدىَّ إليه حقه ما بَلَّ بحرٌ صوفةً ، ومارسى ثَبير وحِرَاء مكانها ، وعلى التآسى فى المعاش . فسمت قريش ذلك الحلفَ حلفَ الفضول ، وقالوا : لقد دخل هؤلاء فى فضلٍ من الأمر ... » .

(١) فى الأصل : يغنيهم على . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : الطاعون ، وهو تحريف ظاهر .

(٣) ورسوله : ساقطة من الأصل ، وهى من تمام خطبة أبى بكر رضى الله عنه .

(٤) فى الأصل : فيكم ، وهو خطأ . وقد أورد ابن كثير فى « تاريخه » ٦/٣٠١ الخطبة كاملة وسندها : « وقال محمد بن إسحاق بن يسار ، حدثنى الزهرى ، حدثنى أنس بن مالك قال ... » وأول الخطبة : « أما بعد أيها الناس فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم .... » وقال ابن كثير : « وهذا إسناد صحيح » .

وبذلك أمر الله ورسوله فى طاعة أولى الأمر ، فقال النبى ﷺ : « على المرء المسلم السمع والطاعة : فى عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه [١] ، ما لم يؤمر بمعصية الله ، فإذا أمر بمعصية / الله فلا سمع ولا طاعة » [٢] . وقال النبى ﷺ : « إنما الطاعة فى المعروف » [٣] ، و « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » [٤] .

ظ ١٧٦

وفى الصحيح أن عبد الله بن عمر كتب بيعته إلى عبد الملك بن مروان لما اجتمع الناس عليه : « لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين ، إنى قد أقررت لك بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت ، وقد أقرَّ بَنِيَّ لما أقررت به » [٥] فأخبره أنه يعاقده على ما أمر الله به من الطاعة له فى طاعة الله بحسب قدرته ، وهذا واجب عليه بالشرع .

---

(١) فى الأصل : ومكروهه . والمثبت هو لفظ الحديث .

(٢) جمع ابن تيمية هنا بين حديثين . الأول عن ابن عمر رضى الله عنهما ونصه (فى مسلم) : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » . وسبق هذا الحديث فى المجموعة الأولى ، ص ٢٧٤ ت ٣ . والحديث الثانى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، ونصه فى مسلم ١٤٦٧/٣ ، (كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية ....) : « عليك السمع والطاعة ، فى عسرك ويسرك ، ومنشطك ومكرهك ، وأثرة عليك » ، وهو فى : سنن النسائى ١٢٦/٧ (كتاب البيعة ، باب البيعة على الأثرة) .

(٣) سبق ورود هذا الحديث فى المجموعة الأولى من « جامع الرسائل » ص ٢٧٤ وذكرت نصه وتكلمت عليه فى (ت ١) . والحديث أيضا عن علىّ رضى الله عنه فى : البخارى ١٦١/٥ (كتاب المغازى ، باب بعث النبى ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى خزيمة) ، ٨٨/٩ (كتاب الآحاد ، باب ما جاء فى إجازة خبر الواحد الصدوق فى الآذان والصلاة ....) ؛ سنن أبى داود ٥٥/٣ (كتاب الجهاد ، باب فى الطاعة) ؛ سنن النسائى ١٤٢/٧ (كتاب البيعة ، جزاء من أمر بمعصية فأطاع) ؛ المسند (ط . المعارف) ٤٦/٢ ، ٩٨ ، ٢٢١ .

(٤) أورده التبريزى فى مشكاة المصابيح ٢ / ٣٢٣ وهو حديث صحيح .

(٥) فى الأصل : وقد أمرتنى لما أقررت به . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته . وجاء هذا الأثر مرتين فى : صحيح البخارى ٧٧/٩ ، ٧٨ (كتاب الأحكام ، باب كيف يبايع الإمام الناس) عن عبد الله ابن دينار عن عبد الله بن عمر أنه كتب « إنى أقر بالسمع والطاعة لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت ، وإنَّ بَنِيَّ قد أقروا بذلك » . وجاء الأثر بمعناه فى : الموطأ ٩٨٣/٢ (كتاب البيعة ، باب ما جاء فى البيعة) .

فهو تعاقد على ما أمر الله بمنزلة نفس الدخول فى الإسلام ، وبيعة النبى ﷺ ، كما بايعه الأنصار ، وكما بايعه المسلمون تحت الشجرة ، وكما كان يبايع المسلمين على السمع والطاعة ويلقّنهم : فيما استطعتم [١] .

وطاعة الرسول واجبة على الخلق بإيجاب الله بمعاقدتهم على ذلك : معاقدة على طاعة الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٨١] .

لكن هذا إنما كان ظاهرا فى أيام الخلفاء الراشدين ، وبعدهم كثرت العقود الموافقة للشريعة تارة ، والمخالفة لها أخرى ، فلا جرم كان الحكم العام فى جميع هذه العقود أنه يجب الوفاء فيها بما كان طاعةً لله ، ولا يجوز الوفاء فيها بما كان معصية لله ، كما قال النبى ﷺ فى الأحاديث الصحيحة : « ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله ، ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل ، وإن كان مائة شرطٍ . كتاب الله [٢] أحق ، وشرط الله أوثق » [٣] وقال ﷺ : « من نذر أن

---

(١) جاءت أحاديث متعددة ذكر فيها أن النبى ﷺ كان يقول لصحابته إذا بايعوه على السمع والطاعة (أو يلقنهم) : « فيما استطعت » أو « فيما استطعتم » وللنساء : « فيما استطعتن وأطقتن » . وانظر هذه الأحاديث المتعددة التى جاءت عن عبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك وأميمة بنت رُقَيْقَة رضى الله عنهم جميعا فى : البخارى ٩/٧٧ ، ٧٨ (كتاب الأحكام ، باب كيف يبايع الإمام الناس) ؛ مسلم ٣/١٤٩٠ (كتاب الإمارة ، باب البيعة على السمع والطاعة) ؛ سنن النسائى ٧/١٣٦ - ١٣٧ (كتاب البيعة ، باب البيعة فيما يستطيع الإنسان) ؛ سنن ابن ماجة ٢/٩٥٨ (كتاب الجهاد ، باب البيعة) ؛ الموطأ ٢/٩٨٢ - ٩٨٣ (كتاب البيعة ، باب ما جاء فى البيعة) ؛ المسند (ط . المعارف) ٧/١٩٣ ، ٢٨٨ - ٢٨٩ ، ٨/١٣٠ ، ٩/١١٢ .

(٢) فى الأصل : ما به من شرط كان الله . والتصحيح من روايات الحديث الصحيحة .

(٣) هذا جزء من حديث عن عائشة رضى الله عنها وأوله (وهذا لفظ البخارى ١/٩٤) عن =

يطيع [الله] [١] فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » [٢] ، وفى السنن « المسلمون على شرطهم ، إلا شرطا أحلَّ حراما أو حرَّم حلالا » [٣] .

فأما أمر الدين وما يحبه الله ويقرِّب إليه ، فليس لعقود بنى آدم فيه أثر ، بل المرجع فى ذلك إلى أمر الله ورسوله ، فلا دين إلا ما أمر الله به ، ومن اتّبع فى ذلك عقود بنى آدم ، فهم الذين اتّبعوا شركاءهم ، الذين شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن الله / به ، وهذه حال جميع ما ابتُدع من الدين ، فإن الذى ابتدعه وافقه عليه غيره وحالفه ، فاتخذوه دينا ، فتدين هذا فيه يظهر حال جميع [أهل] [٤] البدع المخالفة للكتاب والسنة وأن [٥] الموافقة عليها هى من هذا الباب .

ص ١٧٧

= عائشة قالت : أتتها بريرة تسألها فى كتابتها . فقالت : إن شئت أعطيت أهلك ويكون الولاء لى .... فلما جاء رسول الله ﷺ ذكرته ذلك ، فقال : « ابتاعيها فأعتقيها ، فإن الولاء لمن أعتق » ثم قام رسول الله ﷺ على المنبر ... الحديث . وهو فى : البخارى ٩٤/١ (كتاب الصلاة ، باب ذكر البيع والشراء على المنبر فى المسجد) وهو فى مواضع أخرى فى البخارى ١٢٤/٨ ؛ مسلم ١١٤٢/٢ – ١١٤٣ (كتاب العتق ، باب إنما الولاء لمن أعتق) ؛ سنن أبى داود ٢١/٤ (كتاب العتق ، باب فى بيع المكاتب إذا فسخت الكتابة) ؛ سنن النسائى ٢٦٨/٧ (كتاب البيوع ، باب بيع المكاتب) ؛ سنن ابن ماجة ٨٤٢/٢ – ٨٤٣ (كتاب العتق ، باب المكاتب) ؛ الموطأ ٧٨٠/٢ – ٧٨١ (كتاب العتق ، باب مصير الولاء لمن أعتق) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٨٢/٦ .

(١) لفظ الجلالة غير موجود بالأصل .

(٢) الحديث عن عائشة رضى الله عنها فى : البخارى ١٤٢/٨ (كتاب الأيمان والنذور ، باب النذر فى الطاعة ، باب النذر فيما لا يملك وفى معصية) ؛ سنن أبى داود ٢٣٢/٣ (كتاب الأيمان والنذور ، باب ما جاء فى النذر فى المعصية) ؛ سنن النسائى ١٦/٧ (كتاب الأيمان والنذور ، باب النذر فى الطاعة ، باب النذر فى المعصية) ؛ سنن ابن ماجة ٦٨٧/١ (كتاب الكفارات ، باب النذر فى المعصية) ؛ الموطأ ٤٧٦/٢ (كتاب النذور ، باب ما لا يجوز من النذور فى معصية الله) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣٦/٦ ، ٤١ ، ٢٢٤ .

(٣) هذا جزء من حديث عن عمرو بن عوف المزنى عن أبيه عن جده رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٤٠٣/٢ (كتاب الأحكام ، باب ما ذكر عن رسول الله ﷺ فى الصلح بين الناس) . وأول الحديث : « الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا حرّم حلالا أو أحل حراما ، والمسلمون على شروطهم ... الحديث . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » وذكر المباركفورى فى شرحه ٥٨٤/٤ – ٥٨٥ (ط . السلفية ، المدينة المنورة ، ١٣٨٥/١٩٦٥) أقوال العلماء فى هذا التصحيح وخلاصتها أن طرق الحديث يشهد بعضها لبعض وأقل أحوالها أن يكون المتن الذى اجتمعت عليه حسنا .

(٤) زدت « أهل » ليستقيم الكلام .

(٥) فى الأصل : أن .

وأكثر ما ينفق بين المسلمين ما فيه حق وباطل ، إذ الباطل المحض لا يبقى بينهم ، وذلك يتضمن التحالف على غير ما أمر الله به ، والتبديل لدين الله بما لُبِّس من الحق بالباطل ، وهذه حال اليهود والنصارى وسائر أهل الضلال ، فإنهم عدلوا عمَّا أمرهم الله باتّباعه ، فلبَّسوه بباطل ابتدعوه ، بدَّلوا به دين الله ، وتحالفوا على ذلك الذى ابتدعوه .

وأما المعاملات فى الدنيا فالأصل فيها أنه لا يَحْرُم منها إلا ما حرَّمه الله ورسوله ، فلا حرام إلا ما حرَّم الله ، ولا دين إلا ما شرعه . وإذا لم يَحْرُم إلا ما حرَّمه الله ورسوله فكأنّ ما كان بدله بدون التعاقد يجب بالتعاقد ، فإن العقد يوجب على كل واحد من المتعاوضين والمتشاركين ما أوجبه الآخر على نفسه له ، ولهذا قال النبى ﷺ : « المسلمون على شروطهم إلا شرطا أحلَّ حراما ، أو حرَّم حلالا » .

المسلمون على شروطهم إلا شرطا أحلّ حراما أو حرّم حلالا

وهذا الموضع كثر [١] فيه غلط كثير من الفقهاء بتحريم عقود وشروط لم يحرِّمها الله ، كما كثر [٢] فى الأول غلط كثير من العبَّاد والعلماء بابتداع دين لم يشرعه الله ، وإيجابه بالتعاقد عليه ، حتى يوجبون طاعة شخص معين ميتٍ أو حيٍّ من العلماء فى كل شيء ، ويحرِّمون طاعة غيره فى كل شيء نازعه فيه ، لمجرد عقد العامى الذى انتسب إلى هذا دون هذا .

وكذلك فى المشايخ ، حتى قد يأمرونه بمخالفة ما تبيَّن له من الشريعة لأجل العقد الذى التزمه للمذهب والطريقة ، فيشترطون شروطا ليست فى كتاب الله ، ويأمرون بطاعة المخلوق فى معصية الخالق ، وأكثر ذلك يدخله نوع من الاجتهاد

---

(١) فى الأصل : كبير ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : كبر ، وهو تحريف .

الظاهر الذى فيه نوع من اتّباع الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى .

والواجب فى جميع هذه الأمور أن ما يتبين أنه طاعة لله ورسوله وجب اتّباعه ، وما اشتبه على الإنسان حاله سلك فيه مسلك الاجتهاد بحسب قدرته ، ولا يكلّف الله نفسا إلا وسعها ، واجتهاد العامة هو طلبهم للعلم من العلماء بالسؤال والاستفتاء بحسب إمكانهم .

فإذا كان جميع ما عليه بنو [١] آدم لابد فيه من تعاون وتناصر ، وفيه ما هو شرك بالله ، وفيه ما هو قول على الله بغير علم ، وفيه ما هو إثم وبغى ، وفيه ما هو من الفواحش – علم أنه لابد فى الإيمان من التعاون والتناصر على فعل ما يحبه الله تعالى ، ودفع ما يبغضه الله تعالى ، وهذا / هو الجهاد فى سبيله ، وأن أمر الإيمان لا يتم بدون ذلك ، كما لا يتم غير الإيمان إلا بما هو من نوع ذلك . ظ ١٧٧

فكل المتعاونين المتناصرين يجاهدون ، ولكن فى سبيل الله تارة ، وفى سبيل غير الله تارة ، ولا صلاح لبنى آدم إلا بأن يكون الدين كله لله ، وتكون كلمة الله هى العليا .

قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ ﴾ [سورة الأنفال : ٣٩] وهؤلاء الذين تولوا الله فتولاهم [٢] الله ، والذين يدينون لغير الله هم ظالمون بتولّى بعضهم بعضا ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ • إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِىُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة الجاثية :

---

(١) فى الأصل : بنى .

(٢) فى الأصل : يولاهم .

١٨ ، ١٩] ، ولا يتم لمؤمن ذلك إلا بأن يجمع بين ما جمع الله بينه ، ويفرق بين ما فرّق الله بينه ، وهذه حقيقة الموالاة والمعاداة ، التى مبناها على المحبة والبغضة .

فالموالاة تقتضى التحاب [١] والجمع ، والمعاداة تقتضى التباغض والتفرق . والله سبحانه قد ذكر الموالاة والجمع بين المؤمنين ، فقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٥٥] . وذكر العداوة بينهم وبين الكفار فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ والنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٥١] ثم ذكر حال المستنصرين بهم [٢] فإن الموالاة موجبها التعاون والتناصر .

فلا يُفرَّق بين المؤمنين لأجل ما يتميز به بعضهم عن بعض ، مثل الأنساب والبلدان ، والتحالف على المذاهب والطرائق والمسالك والصداقات وغير ذلك ، بل يُعطَى كلٌّ من ذلك حقه ، كما أمر الله ورسوله ، ولا يُجمع بينهم وبين الكفار الذين قطع الله الموالاة بينهم وبينه ، فإن دين الله هو الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

والله سبحانه أرسل رسله بالبينات ، وأنزل معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، فيحتاج المؤمن إلى معرفة العدل ، وهو الصراط المستقيم ، وإلى العمل به ، وإلا وقع إما فى جهل وإما فى ظلم .

---

(١) فى الأصل : التجات ، وهو تحريف .

(٢) وهو قوله تعالى فى الآية التالية : ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِم يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِن عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِم نَادِمِينَ ﴾[سورة المائدة : ٥٢] . وانظر تفسير الطبرى للآية ١٠/٤٠٢ - ٤٠٧ (ط . المعارف) .

وذلك إنما وقع من التبديل والعقود الفاسدة ، كما ذكرنا من لبس الحق بالباطل ، حيث صارت المحرَّمات : من الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير / الحق ، والإشراك بالله ما لم يُنزِّل به سلطانا ، والقول على الله بغير علم – قد لُبِّس بها من الحق المأذون فيه ما صارت بسببه شبيهة [١] للحق الحسن ، وإن كانت مشتملة مع ذلك على الباطل السيىء ، وإن صار أصحابها بين عمل صالح وآخر سيئ ، فقوم ينكرون ذلك كله لما علموا فيه من المنكر البغيض ، وأقوام يقرُّون ذلك كله لما فيه من المحبوب .

ص ١٧٨

وهذه القاعدة قد ذكرناها غير مرة ، وهى اجتماع الحسنات والسيئات ، والثواب والعقاب ، فى حق الشخص الواحد ، كما عليه أهل جماعة المسلمين من جميع الطوائف ، إلا من شذَّ عنهم من الخوارج والوعيدية ، من المعتزلة ونحوهم ، وغالب المرجئة .

فإن هؤلاء ليس للشخص عندهم إلا [أن] [٢] يثاب أو يُعاقب ، محمود من كل وجه ، أو مذموم من كل وجه . وقد بيَّنا فساد هذا فى غير هذا الموضع ، بدلائل كثيرة من الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة ، وذكرنا أيضا الكلام [٣] فى الفعل الواحد نوعا وشخصا [٤] .

والغرض هنا أن هؤلاء الذين لبَّسوا الحق والباطل ، حصل فى مقابلتهم من أعرض [٥] عن الحق والباطل جميعا ، فصار هؤلاء مذمومين على فعل السيئات ،

---

(١) فى الأصل : سببه شبهه . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : فى الكلام .

(٤) انظر ما ذكره ابن تيمية فى ذلك فى كتابه « الإيمان » .

(٥) فى الأصل : مع من أعرض .

محمودين على فعل الحسنات ، وأولئك يُذمُّون على ترك الحسنات الواجبات ، ويمدحون على ما قصدوا تركه لله من السيئات .

وسبب ذلك أن الإنسان فيه ظلم وجهل ، فإذا غلب عليه رأى أو خُلُق ، استعمله فى الحق والباطل جميعا ، لم يحفظ حدود الله . ولهذا يأمر الله بحفظ حدوده .

مثال ذلك أن من الناس من يكون فى خلقه سماحة ولين ومحبة ، فيسمح بمحبته وبتعظيمه ونفعه وماله للحَسَن الذى يحبه الله ويأمر به ، كمحبة الله ورسوله وأوليائه المؤمنين ، والإنفاق فى سبيله ، ونحو ذلك . ويسمح أيضا بمحبة الفواحش والإنفاق [فيها] [١] ، فتجده [٢] يحب الحق والباطل جميعا ، ويصدِّق بهما ، ويعين عليهما .

ومنهم من يكون فى خلقه قوة ، فيمتنع من فعل الفواحش ويبغضها ، ويمتنع مع ذلك من محبة نفع الناس والإحسان إليهم والحلم عن سيئاتهم ، فتجده يبغض الحق والباطل جميعا ، ويكذِّب بهما ، ولا يعين على واحد منهما ، بل ربما صدَّ عنهما .

وذلك لأن النفس أمَّارة بالسوء ، والشيطان يزيِّن للمرء سوء عمله فيراه حسنا ، وهو متبع هواها . وما فيها من العلم والإيمان [يدعوه إلى الخير حتى] تذهب الحسنات بالسيئات [٣] ، وإنما يفعل من الحسنات ما أقبلت عليه [٤] إرادته ومحبته / دون ما أبغضته . ظ ١٧٨

---

(١) زدت « فيها » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : فيجده .

(٣) فى الأصل : .... والإيمان يجب أن تذهب الحسنات بالسيئات . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٤) فى الأصل : ما تيسر عليها . ولعل الصواب ما أثبته .

وفى الإنسان قوتان : قوة الحب ، وقوة البغض . وإنما خلق ذلك فيه ليحب الحق الذى يحبه الله ، ويبغض الباطل الذى يبغضه الله ، وهؤلاء هم الذين يحبهم الله ويحبونه .

والنفس تميل إلى الإشراك بحسب الإمكان ، فإذا غلب على النفوس قوة المحبة لما يناسبها ، فأحبت الحق ، فقد تنجذب [١] بسبب ذلك إلى محبة ما يقارنه من الباطل .

ومن هنا مال كثير من النساك إلى محبة الأصوات والصور وغير ذلك ، بسبب ما فيهم من المحبة ، التى فيها ما هو لله ، لكن لبَّسوا فيها الحق بالباطل . وكذلك قد يكون الشخص بالمحبة يميل إلى شهوات الغى فى بطنه وفرجه وإنفاق الأموال فيها ، ثم إنه بسبب ما فيه من الحب والدين يحب الحق وأهله ويعظمهم . فتجد [١] كثيرا من أهل الشهوات ، وفيهم من المحبة لله ورسوله ما لا يوجد فى كثير من النساك ، كما قال النبى ﷺ فى حمار الذى كان يشرب الخمر كثيرا : « لا تلعنه ، فإنه يحب الله ورسوله » والحديث فى صحيح البخارى وغيره [٢] .

فصل

المقصود الأول من كل عمل هو التنعم واللذة

وإذا كان كل عمل أصله المحبة والإرادة ، والمقصود [منه] التنعم [٣] بالمراد المحبوب ، فكل حى إنما يعمل لما فيه تنعمه ولذته ، فالتنعّم هو المقصود الأول من كل قصد ، كما أن التعذّب والتألم هو المكروه أولا [وهو سبب] كل بغض [٤] وكل

---

(١) فى الأصل : فيجرا ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) مضى الحديث فى هذه القاعدة من قبل (ص : ٢٥٨ - ٢٥٩) .

(٣) فى الأصل : والمقصود والتنعم . وكتب كلمة « كذا » فوق كلمة « التنعم » . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : أولا فكل بغض .... إلخ . ولعل الصواب ما أثبته .

حركة امتناع . لكن وقع الجهل والظلم فى بنى آدم ، فعمدوا إلى الدين الفاسد [١] والدنيا الفاجرة : طلبوا بهما النعيم ، وفى الحقيقة فإنما فيهما [٢] ضده .

وبيان ذلك أن الأعمال التى يعملها جميع بنى آدم إما أن يتخذونها دينا ، أو لا يتخذونها دينا . والذين يتخذونها دينا إما أن يكون الدين بها دين حق ، أو دين باطل . فنقول [٣] : النعيم التام هو [٤] فى الدين الحق .

النعيم التام هو فى الدين الحق

فأهل الدين الحق هم الذين لهم النعيم الكامل ، كما أخبر الله بذلك فى كتابه فى غير موضع ، كقوله : ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ [سورة الفاتحة : ٦ ، ٧] .

وقوله عن المتقين المهتدين : ﴿ أُوْلَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٥] .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ۝ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾ [سورة طه : ١٢٣ - ١٢٦] .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٣٨] .

---

(١) فى الأصل العبارة مضطربة ومحرفة كأنها : .... فى بنى آدم يحتسين بالدين الفاسد ... إلخ . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٢) فى الأصل : فيها .

(٣) فى الأصل : فيقول .

(٤) فى الأصل : هى .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [سورة الانفطار : ١٣ ، ١٤] .

ص ١٧٩

ووَعْدُ أهل الإيمان والعمل / الصالح بالنعيم التام فى الدار الآخرة ، ووعد الكفار بالعذاب التام فى الدار الآخرة أعظم من أن [١] يذكر هنا ، وهذا مما لم ينازع فيه أحد من أهل الإسلام .

من الخطأ الظن بأن نعيم الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور

ولكن تذكر [٢] هنا نكتة نافعة ، وهو أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيراً من أهل الإيمان والإسلام فى الدنيا من المصائب ، وما يصيب كثيرا من الكفار والفجار فى الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك ، فيعتقد أن النعيم فى الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور ، وأن المؤمنين ليس لهم فى الدنيا ما يتنعَّمون به إلا قليلا ، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة قد تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين . وإذا سمع ما جاء فى القرآن من أن العزة لله ورسوله وللمؤمنين ، وأن العاقبة للتقوى ، وقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [سورة الصافات : ١٧٣] وهو ممن يصدِّق بالقرآن — حمل هذه الآيات على الدار الآخرة فقط ، وقال : أما الدنيا فما نرى بأعيننا [إلا] [٣] أن الكفار والمنافقين فيها يظهرون ويغلبون المؤمنين ، ولهم العزة والنصرة ، والقرآن لا يَرِدُ بخلاف المحسوس ، ويعتمد على هذا فيما إذا أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين أو الظالمين ، وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى ، فيرى أن صاحب الباطل قد علا [٤]

---

(١) فى الأصل : أعظم ممن .

(٢) فى الأصل : يذكر .

(٣) زدت « إلا » ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : على .

على صاحب الحق ، فيقول : أنا على الحق وأنا مغلوب ، وإذا ذكره [إنسان] (١) بما وعده الله من حسن (٢) العاقبة للمتقين ، قال : هذا فى الآخرة فقط . وإذا قيل له : كيف يفعل الله بأوليائه مثل هذه الأمور ؟ قال : يفعل ما يشاء ، وربما قال بقلبه أو لسانه ، أو كان حاله يقتضى أن هذا من نوع الظلم ، وربما ذكر قول بعضهم : ما على الخلق أضر من الخالق ، لكن يقول : يفعل الله ما يشاء . وإذا ذُكِّر برحمة الله وحكمته لم يقل (٣) إلا أنه يفعل ما يشاء . فلا يعتقدون أن (٤) صاحب الحق والتقوى منصور ومؤيد (٥) ، بل [يعتقدون أن الله] (٦) يفعل ما يشاء .

وهذه الأقوال مبنية على مقدمتين : إحداهما : حسن ظنه بدين نفسه / نوعا أو شخصا (٧) واعتقاد أنه قائم (٨) بما يجب عليه ، وتارك ما نهى عنه فى الدين الحق ، واعتقاده فى خصمه ونظيره خلاف ذلك : أن (٩) دينه باطل نوعا أو شخصا ، [لأنه] (١٠) ترك المأمور وفعل المحظور . ظ ١٧٩

والمقدمة الثانية : أن الله قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره . وقد لا يجعل له العاقبة فى الدنيا ، فلا ينبغى الاغترار بهذا .

---

(١) زدت « إنسان » ليستقيم الكلام .
(٢) فى الأصل : حق ، وهو تحريف .
(٣) فى الأصل : لم يستعد .
(٤) فى الأصل : فلا يعتمدون على . ولعل الصواب ما أثبته .
(٥) فى الأصل : موبدا ، وهو تحريف .
(٦) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .
(٧) فى الأصل : تسوعا أو سحضا ، وهو تحريف .
(٨) فى الأصل : قائما ، وهو خطأ .
(٩) فى الأصل : أنه .
(١٠) زدت « لأنه » ليستقيم الكلام .

المؤمن يطلب نعيم الدنيا والنعيم التام فى الآخرة

ومن المعلوم أن العبد وإن أقر بالآخرة فهو يطلب حسن [١] عاقبة الدنيا ، فقد يطلب ما لابد منه من دفع الضرر ، وجلب المنفعة ، وقد يطلب من زيادة النفع ودفع الضرر ما يظن أنه مباح ، فإذا اعتقد أن الدين الحق قد ينافى ذلك لزم من ذلك إعراض القلب عن الرغبة فى كمال الدين الحق ، وفى حال السابقين والمقربين ، بل قد يعرض عن حال المقتصدين أصحاب اليمين ، فيدخل مع الظالمين ، بل قد يكفر ويصير من المرتدين المنافقين أو المعلنين بالكفر ، وإن لم يكن هذا فى أصل الدين كان فى كثير من أصوله وفروعه ، كما قال النبى ﷺ : « يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ، أو يمسى مؤمنا ويصبح كافرا ، يبيع دينه بعرض من الدنيا » [٢] ، وذلك إذا اعتقد أن الدين لا يحصل إلا بفساد دنياه ، ولذلك فإنه يفرح بحصول الضرر له ويرجو ثواب ضياع ما لابد له من المنفعة [٣] .

وهذه الفتنة التى [٤] صدت أكثر بنى آدم عن تحقيق الدين ، وأصلها الجهل بحقيقة الدين ، وبحقيقة النعيم ، الذى هو مطلوب النفوس فى كل وقت ، إذ قد ذكرنا أن كل عمل فلابد فيه من إرادةٍ به لطلب ما ينعِّم ، فهناك عمل يُطلب به النعيم ، ولابد أن يكون المرء عارفا [٥] بالعمل الذى يعمله ، وبالنعيم الذى يطلبه .

---

(١) فى الأصل : من . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه وأوله (فى مسلم) : « بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل ... الحديث وهو فى : مسلم ١/١١٠ (كتاب الإيمان ، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٥/١٧٩ - ١٨٠ ، (ط . الحلبى) ٢/٣٧٢ .

(٣) فى الأصل العبارة سقيمة ونصها : .... دنياه لحصول ضرره يحتمل ثواب ما لابد منه من المنفعة . وأرجو أن تكون العبارات التى أثبتها أقرب شىء إلى ما قصده ابن تيمية .

(٤) فى الأصل : الذى .

(٥) فى الأصل : فالذى يطلب به النعيم فلابد أن يكون المرء عارف .... ، ولعل الصواب ما أثبته .

ثم إذا عَلِمَ هذين الأصلين ، فلابد أن تكون فيه إرادة جازمة على العمل بذلك ، وإلا فالعلم بالمطلوب وبطريقه لا يحصلان المقصود إلا مع الإرادة الجازمة [١] . والإرادة الجازمة لا تكون إلا مع الصبر ، ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [سورة العصر : ١ - ٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [سورة السجدة : ٢٤] .

فاليقين هو العلم الثابت المستقر ، والصبر [لابد منه لتحقيق الإرادة الجازمة] [٢] .

والمقدمتان اللتان [٣] التى بنيت عليهما هذه البليّة مبناهما [٤] على الجهل بأمر الله ونهيه ، / وبوعده ووعيده . فإن صاحبهما [٥] إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق ، فقد اعتقد أنه فاعل للمأمور [٦] ، تارك للمحظور ، [وهو على العكس من ذلك] [٧] ، وهذا يكون من جهله بالدين الحق .

ص ١٨٠

من الخطأ الاعتقاد أن الله ينصر الكفار فى الدنيا ولا ينصر المؤمنين

وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله فى الدنيا ، بل قد تكون العاقبة فى الدنيا للكفار على المؤمنين ، ولأهل الفجور على أهل البر - فهذا من جهله بوعد الله تعالى .

---

(١) فى الأصل : .... وبطريقه لا يحصله إن لم يعلم ، وهو كلام لا يستقيم ، ولعل ما أثبته أقرب شيء إلى المقصود .

(٢) فى الأصل : والصبر الصبر . ولعل ما أثبته بين معقوفتين يستقيم به الكلام .

(٣) فى الأصل : والمقدمتان المقدمتان التى ، وهو تحريف ، ولعل الصواب نا أثبته .

(٤) فى الأصل : مبناها .

(٥) فى الأصل : صاحبها .

(٦) فى الأصل : فقد اعتقد أنه قائم بالأمور ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٧) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

أما الأول ، فما أكثر من يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجوبها ، وما أكثر من يفعل محرمات لا يعلم بتحريمها ، بل ما أكثر من يعبد الله بما حَرَّم ويترك ما أوجب ، وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه ، وأن خصمه هو الظالم المبطل من كل وجه ، ولا يكون الأمر كذلك ، بل يكون معه نوع من الباطل والظلم ، ومع خصمه نوع من الحق والعدل .

وحبك الشيء يعمي ويصم ، والإنسان مجبول على محبة نفسه ، فهو لا يرى إلا محاسنها ، ومبغض لخصمه ، فلا يرى إلا مساوئه . وهذا الجهل غالبه مقرون بالهوى والظلم ، فإن الإنسان ظلوم جهول .

وأكثر ديانات الخلق إنما هى عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم ، وتقليدهم فى التصديق والتكذيب ، والحب والبغض ، والموالاة والمعاداة .

كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [سورة لقمان : ٢١] وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ ۝ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ ﴾ [سورة الأحزاب : ٦٦ ، ٦٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [سورة الشورى : ١٤] (١) .

وأما الثانى ، فما أكثر من يظن أن أهل الدين الحق فى الدنيا يكونون أذلاء معذبين بما فيه ، بخلاف من فارقهم إلى طاعة أخرى وسبيل آخر ، ويكذِّب بوعد الله بنصرهم .

---

(١) جاءت الآيات السابقة فى الأصل محرفة .

والله سبحانه قد بين بكتابه كلا المقدمتين فقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [سورة غافر : ٥١] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ . وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [سورة الصافات : ١٧١ – ١٧٣] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [سورة المجادلة : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ . كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [سورة المجادلة : ٢٠ ، ٢١] .

/ وقال تعالى فى كتابه : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٥٥ ، ٥٦] . ظ ١٨٠

وذم من يطلب النصرة بولاء غير هؤلاء ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ . وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٥١ – ٥٣] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً . الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ﴾ [سورة النساء : ١٣٨ ، ١٣٩] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة المنافقون : ٨] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [سورة فاطر : ١٠] .

وقال فى كتابه : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً ﴾ [سورة الفتح : ٢٨] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِها الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۞ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَّائِفَةٌ مِّن بَنِى إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [سورة الصف : ١٠ — ١٤] .

ص ١٨١ وقال تعالى فى كتابه : ﴿ يَا عِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [سورة آل عمران : ٥٥] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً . سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ [سورة الفتح : ٢٢ ، ٢٣] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ [سورة الحشر : ٢] إلى قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [سورة الحشر : ٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٣٩] .

وَقَالَ تعالى لما قص قصة نوح ، وهى نصره على قومه فى الدنيا ، فقال تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة هود : ٤٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [سورة طه : ١٣٢] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ [سورة آل عمران : ١١٨] إلى قوله ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [سورة آل عمران : ١٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٢٥] .

وقال يوسف وقد نصره الله فى الدنيا لما دخل عليه إخوته : ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِى قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٩٠] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [سورة الأنفال : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ [سورة الطلاق ٢ ، ٣] .

وقد روى عن أبى ذر عن النبى ﷺ أنه قال : « لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لوسعتهم » رواه ابن ماجة وغيره (١) .

وأخبر أن ما يحصل له من مصيبة انتصار العدو وغيرها ، إنما هو بذنوبهم ، / فقال تعالى فى يوم أحد : ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ١٦٥] . ظ ١٨١

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ١٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [سورة الشورى : ٣٠] .

---

(١) الحديث عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه فى : سنن ابن ماجة ١٤١١/٢ (كتاب الزهد ، باب الورع والتقوى) ونصه : « حدثنا هشام بن عمار وعثمان بن أبى شيبة ... عن أبى ذر قال قال رسول الله ﷺ : « إنى لأعرف كلمة (وقال عثمان : آية) لو أخذ الناس كلهم بها لكفتهم » قالوا : يا رسول الله ، أية آية ؟ قال : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » . قال المعلق : « فى الزوائد : هذا الحديث رجاله ثقات ، غير أنه منقطع ، وأبو السليل لم يدرك أبا ذر ، قاله فى التهذيب » . وذكر ابن كثير الحديث فى تفسير الآية وزاد : « قال : فجعل يتلوها ويرددها على حتى نعست . ثم قال : « يا أبا ذر كيف تصنع إذا خرجت من المدينة ؟ .... الحديث » .

وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [سورة النساء : ٧٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [سورة الروم : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ [سورة الشورى : ٣٤] .

وذم فى كتابه من لا يثق بوعده لعباده المؤمنين ، وذكر ما يصيب الرسل والمؤمنين ، فقال تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ۞ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ۞ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً ۞ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب : ١٠ – ١٤] .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٤] .

[وقال تعالى :] (١) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ۞ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ

---

(١) زدت عبارة « وقال تعالى » ليستقيم الكلام .

الْمُجْرِمِينَ . لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة يوسف : ١٠٩ - ١١١] .

ولهذا أمر الله رسوله والمؤمنين باتباع ما أنزل إليهم ، وهو طاعته ، وهو المقدمة الأولى . وأمرهم / بانتظار وعده ، وهى المقدمة الثانية . وأمرنا بالاستغفار والصبر ، لأنهم لابد أن يحصل لهم تقصير وذنوب [١] فيزيله الاستغفار ، ولابد مع انتظار الوعد من الصبر ، فبالاستغفار تتم الطاعة ، وبالصبر [٢] يتم اليقين بالوعد ، وإن كان هذا كله يدخل فى مسمى الطاعة والإيمان .

ص ١٨٢

قال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ ﴾ [سورة يونس : ١٠٩] .

وقال [٣] تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة هود : ٤٩] .

وأمرهم أيضا بالصبر إذا أصابتهم مصيبة بذنوبهم ، مثل ظهور العدو ، وكما قال تعالى فى قصة أُحد : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ

---

(١) فى الأصل : من نصر وسكون ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : فالاستغفار يتم الطاعة ، والصبر ...

(٣) فى الأصل : قال .

الظَّالِمِينَ ۝ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٣٩ – ١٤١] .

وأيضا فقد قص سبحانه فى كتابه نصره لرسله ولعباده المؤمنين على الكفّار فى قصة نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وفرعون وغير ذلك . وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِى الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة يوسف : ١١١] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [سورة النور : ٣٤] .

ما سبق يتبين بأصلين : الأصل الأول : حصول النصر وغيره من أنواع النعيم لا ينافى وقوع القتل أو الأذى

وهذا يتبين بأصلين : أحدهما أن حصول النصر وغيره من أنواع النعيم لطائفة أو شخص لا ينافى ما يقع فى خلال ذلك من قتل بعضهم وجرحه ومن أنواع الأذى ، وذلك أن الخلق كلهم يموتون ، فليس فى قتل الشهداء مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبنى آدم ، فمن عد القتل فى سبيل الله مصيبة مختصة بالجهاد كان من أجهل الناس ، بل الفتن التى تكون بين الكفار وتكون بين المختلفين من أهل القبله ليس مما يختص بالقتال ، / فإن الموت يعرض لبنى آدم بأسباب عامة ، وهى المصائب [١] التى تعرض لبنى آدم من مرض بطاعون وغيره ، ومن جوع وغيره ، وبأسباب خاصة ، فالذين يعتادون القتال لا يصيبهم أكثر مما يصيب من لا يقاتل ، بل الأمر بالعكس ، كما قد جرّبه الناس .

ظ ١٨٢

ثم موت الشهيد من أيسر الميتات ، ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝ قُلْ مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً ﴾ [سورة الأحزاب : ١٦ ، ١٧] .

---

(١) فى الأصل : وهى الطوفات . ولعل الصواب ما أثبته .

فأخبر سبحانه أن الفرار من القتل أو الموت لا ينفع ، فلا فائدة فيه ، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلا ، إذ لا بد من الموت .

وأخبر أن العبد لا يعصمه من الله [أحد] (١) إن أراد به سوءا أو أراد به رحمة ، وليس له من دون الله ولى ولا نصير ، فأين نفر من أمره وحكمه ؟ ولا ملجأ منه إلا إليه ، قال تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّى لَكُم مِّنهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سورة الذاريات : ٥٠] وهذا أمر يعرفه الناس من أهل طاعة الله وأهل معصيته ، كما قال أبو حازم الحكيم : « لما يلقى الذى لا يتقى الله من معالجه الخلق أعظم مما يلقاه الذى يتقى الله من معالجة التقوى » .

والله تعالى قد جعل أكمل المؤمنين إيمانا أعظمهم بلاء ، كما قيل للنبى ﷺ : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه ، وإن كان فى دينه رقة خُفِّف عنه ، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة » (٢) .

ومن هذا أن الله شرع من عذاب الكفّار بعد نزول التوراة بأيدى المؤمنين فى الجهاد ما لم يكن قبل ذلك ، حتى إنه قيل : لم ينزل بعد التوراة عذاب عام من السماء للأمم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا

---

(١) زدت كلمة « أحد » ليستقيم الكلام .

(٢) الحديث – مع اختلاف فى الألفاظ – عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٢٨/٤ (كتاب الزهد ، باب الصبر على البلاء) وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » ؛ سنن ابن ماجة ١٣٣٤/٢ (كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء) ؛ سنن الدارمى ٣٢٠/٢ (كتاب الرقاق ، باب فى أشد الناس بلاء) ؛ المسند (ط . المعارف) ٤٥/٣ – ٤٦ ، ٥٢ ، ٧٨ ، ٩٧ . وجعل البخارى أحد عناوين كتاب الطب (المرضى) فى صحيحه ١١٥/٧ : باب أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

﴿ الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة القصص : ٤٣] .

فإنه قبل (١) ذلك قد أهلك قوم فرعون وشعيب ولوط وعاد وثمود وغيرهم ، ولم يهلك الكفار بجهاد المؤمنين . ولما كان موسى أفضل من هؤلاء ، وكذلك محمد ، وهما الرسولان المبعوثان بالكتابين العظيمين ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾ [سورة المزمل : ١٥] . / وقال تعالى : ﴿ قَالُوا لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ ﴾ [سورة القصص : ٤٨] إلى قوله ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ ﴾ [سورة القصص : ٤٩] .

ص ١٨٣

وأمر الله هذين الرسولين بالجهاد على الدين . وشريعة محمد ﷺ أكمل ، فلهذا كان الجهاد فى أمته أعظم منه فى غيرهم .

قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٦] .

وقال (٢) تعالى : ﴿ وَلَوْ يَشَاءَ اللهُ لاَنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [سورة محمد : ٤] .

وقال تعالى للمنافقين : ﴿ وَنَحْن نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِه أَوْ بِأَيْدِينا ﴾ [سورة التوبة : ٥٢] .

---

(١) فى الأصل : قيل .
(٢) فى الأصل : قال .

فالجهاد للكفار أصلح من هلاكهم بعذاب سماءٍ من وجوه : أحدها : أن ذلك أعظم فى [(١)] ثواب المؤمنين وأجرهم وعلو درجاتهم ، لما يفعلونه من الجهاد فى سبيل الله ، لأن تكون كلمة الله هى العليا ، ويكون الدين كله لله .

الثانى : أن ذلك أنفع للكفار أيضا ، فإنهم قد يؤمنون من الخوف ، ومن أُسر منهم وسيم [(٢)] من الصغار يُسلم أيضا ، وهذا من معنى قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [سورة آل عمران : ١١٠] قال أبو هريرة : « وكنتم خير الناس للناس تأتون بهم فى الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة » [(٣)] فصارت الأمة بذلك خير أمة أخرجت للناس ، وأفلح بذلك المقاتلون ، وهذا هو مقصود الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهذا من معنى كون محمد ﷺ ما أُرسل إلا رحمة للعالمين ، فهو رحمة فى حق كل أحد بحسبه حتى المكذِّبين له ، هو فى حقهم رحمة أعظم مما كان غيره .

ولهذا لما أرسل الله إليه ملك الجبال وعرض عليه أن يقلب عليهم الأخشبين قال : « لا ، استأنى بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له » [(٤)] .

---

(١) فى الأصل : من .

(٢) فى الأصل : وستى .

(٣) ورد هذا الأثر فى : البخارى ٦/٣٧ - ٣٨ (كتاب التفسير ، سورة آل عمران ، باب كنتم خير أمة أخرجت للناس) ونصه فيه : « .. عن أبى هريرة رضى الله عنه : كنتم خير أمة أخرجت للناس . قال : خير الناس للناس تأتون بهم فى السلاسل فى أعناقهم حتى يدخلوا فى الإسلام » . وانظر تفسير ابن كثير للآية ٢/٧٧ (ط . دار الشعب) .

(٤) هذه العبارة بمعنى جزء من حديث ورد فى البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها ونصه فى : البخارى ٤/١١٥ (كتاب بدء الخلق ، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة فى السماء ...) عن عائشة : « ... أنها قالت للنبى ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت =

الوجه الثالث : أن ذلك أعظم عزة للإيمان وأهله ، وأكثر لهم ، فهو يوجب من علو الإيمان وكثرة أهله ما لا يحصل بدون ذلك ، وأمر المنافقين والفجار بالمعروف ونهيهم عن المنكر هو من تمام الجهاد ، وكذلك إقامة الحدود .

ظ ١٨٣

ومعلوم أن فى الجهاد وإقامة / الحدود من إتلاف النفوس والأطراف والأموال ما فيه ، فلو بلغت هذه النفوس [النصر] [١] بالدعاء ونحوه من غير جهاد ، لكان [٢] ذلك من جنس نصر [٣] الله للأنبياء المتقدمين من أممهم لمَّا أهلك نفوسهم وأموالهم .

وأما النصر بالجهاد وإقامة الحدود فذلك من جنس نصر الله لما يختص به رسوله ، وإن كان محمد ﷺ وأمته منصورين بالنوعين جميعا ، لكن يُشرع فى الجهاد باليد ما لا يشرع فى الدعاء [٤] .

الأصل الثانى : التنعم إما بالأمور الدنيوية وإما بالأمور الدينية

وأما الأصل الثانى : فإن التنعم [إما] [٥] بالأمور الدنيوية ، وإما بالأمور الدينية .

١ - الدنيوية

فأما الدنيوية فهى الحسية : مثل الأكل والشرب والنكاح واللباس وما يتبع ذلك ، والنفسية : وهى الرياسة والسلطان .

فأما الأولى ، فالمؤمن والكافر والمنافق مشتركون فى جنسها ، ثم يُعلم أن

= رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . فنادانى ملك الجبال ، فسلم علىَّ ، ثم قال : يا محمد ، فقال : ذلك فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين . فقال النبى ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا » . والحديث فى : مسلم ٣/١٤٢٠ - ١٤٢١ (كتاب الجهاد ، باب ما لقى النبى ﷺ من أذى المشركين والمنافقين) .

(١) زدت كلمة « النصر » ، ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : لكن ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : انتصار .

(٤) فى الأصل : فى الدعاء فى الجهاد باليد ، ويبدو أن عبارة « فى الجهاد باليد » المكررة زائدة .

(٥) زدت « إما » ليستقيم الكلام .

التنعيم بها ليس هو حقيقة واحدة مستوية فى بنى آدم ، بل هم متفاوتون فى قدرها ووصفها تفاوتا عظيما .

فإن من الناس من يتنعّم بنوع من الأطعمة والأشربة الذى يتأذّى بها غيره ، إما لاعتياده ببلده ، وإما لموافقته مزاجه ، وإما لغير ذلك [١] .

ومن الناس من يتنعّم بنوع من المناكح لا يحبها غيره ، كمن سكن البلاد الجنوبية فإنه يتنعّم بنكاح السُّمر ، ومن سكن البلاد الشمالية فإنه [٢] يتنعّم بنكاح البيض .

وكذلك اللباس والمساكن ، فإن أقواما يتنعّمون من البُرد بما يتأذّى به غيرهم ، وأقواما يتنعمون [من المساكن] [٣] بما يتأذّى به غيرهم ، بحسب العادة والطباع .

وكذلك الأزمنة ، فإنه [فى] الشتاء [٤] يتنعّم الإنسان بالحر ، وفى الصيف يتنعّم بالبرد .

وأصل ذلك أن التنعّم فى الدنيا بحسب الحاجة إليها والانتفاع بها ، فكل ما كانت الحاجة أقوى والمنفعة أكثر كان التنعّم واللذة أكمل ، والله قد أباح للمؤمنين الطيبات .

فالذين يقتصدون فى المآكل نعيمهم بها أكثر من نعيم المسرفين [٥] فيها ، فإن أولئك إذا أدمنوها وألفوها لا يبقى لهذا عندهم كبير لذة ، مع أنهم قد لا يصبرون عنها ، وتكثر [٦] أمراضهم بسببها .

---

(١) فى الأصل : وإما لغير الله ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .
(٢) فى الأصل : فإن .
(٣) زدت عبارة « من المساكن » ليستقيم الكلام .
(٤) فى الأصل : فإن الشتاء .
(٥) فى الأصل : المشرفين ، وهو تحريف .
(٦) فى الأصل : وتكبر .

٢ - الدينية

وأما الدين [١] فجماعه شيئان : تصديق الخبر ، وطاعة الأمر .

ومعلوم أن التنعّم بالخبر بحسب شرفه وصدقه ، والمؤمن معه من الخبر الصادق عن الله وعن مخلوقاته ما ليس مع غيره ، فهو من أعظم الناس نعيما بذلك ، بخلاف من يكثر فى أخبارهم الكذب .

ص ١٨٤

وأما طاعة الأمر ، فإن من كان ما يؤمر به صلاحا / وعدلا ونافعا يكون تنعّمه به أعظم من تنعّم [٢] من يؤمر بما ليس بصلاح ولا عدل ولا نافع .

وهذا من الفرق بين الحق والباطل ، فإن الله سبحانه يقول فى كتابه : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ [سورة محمد : ١ - ٣] .

وقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [سورة النور : ٣٩] .

وتفصيل ذلك أن الحق نوعان : حق موجود ، وحق مقصود . وكل منهما ملازم للآخر .

فالحق الموجود هو الثابت فى نفسه ، فيكون العلم به حقا ، والخبر عنه حقا .

والحق المقصود هو النافع ، الذى إذا قصده الحى انتفع به ، وحصل له النعيم .

---

(١) يقصد ابن تيمية ، وأما الدينية ، وسبق أن ذكر أن التنعم إما بالأمور الدنيوية وإما بالأمور الدينية ، وتكلم فيما سبق على الأمور الدنيوية ، وهو يتكلم هنا على الأمور الدينية .

(٢) فى الأصل : ينعم .

فصل

ومما يُظهر الأمر ما ابتَلَى الله به عباده فى الدنيا من السراء والضراء ، وقال سبحانه : ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۞ كَلَّا ﴾ [سورة الفجر : ١٥ - ١٧] .

يقول الله سبحانه ليس الأمر كذلك ، ليس إذا ما ابتلاه فأكرمه ونعمه يكون ذلك إكراما مطلقا ، وليس إذا [ما] قدر [١] عليه رزقه يكون ذلك إهانة ، بل هو ابتلاء فى الموضعين ، وهو الاختبار والامتحان ، فإنْ شَكَرَ الله على الرخاء ، وصبر على الشدة ، كان كل واحد من الحالين خيرا له [٢] ، كما قال النبى ﷺ : « لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن ، إن أصابته سرَّاء فشكر كان خيرا [٣] له ، وإن أصابته ضرَّاء فصبر كان خيرا [٣] له » [٤] . وإن لم يشكر ولم يصبر كان كل [٥] واحد من الحالين شرًّا له .

---

(١) فى الأصل : إذا بقدر .... ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : خير له ، وهو خطأ .

(٣) فى الأصل : خير ، وهو خطأ .

(٤) الحديث عن صهيب رضى الله عنه فى : مسلم ٢٢٩٥/٤ (كتاب الزهد ، باب المؤمن أمره كله خير) ولفظه فيه : « عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن .... إن أصابته سراء شكر .... الحديث . وهو فى المسند ٣٣٢/٤ ، ٣٣٣ ، ١٥/٦ وأول الحديث فى الموضعين الأولين : « وعجبت من أمر (لأمر) المؤمن .... وفى الموضع الأخير : عجبت من قضاء الله للمؤمن ، على أن القسم الأول من كلام ابن تيمية جاء فى حديث آخر عن أنس رضى الله عنه فى المسند (ط : الحلبى) ١١٧/٣ ولفظه : « عجبت للمؤمن إن الله لم يقض قضاء إلا كان خيرا له » ، ١٨٤/٣ ولفظه : « عجبت للمؤمن إن الله لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له » ، وقال الألبانى عن الحديث فى « سلسلة الأحاديث الصحيحة » ٢٨/٤ : إنه صحيح .

(٥) فى الأصل : كان على .... ، وهو تحريف .

تنازع الناس فيما ينال الكافر فى الدنيا من التنعّم ، هل هو نعمة فى حقه أم لا ؟

وقد تنازع الناس فيما ينال الكافر فى الدنيا من التنعّم ، هل هو نعمة فى حقه أم لا ؟ على قولين . وكان [١] أصل النزاع بينهم هو النزاع فى القدرة .

ظ ١٨٤

والقدرية الذين / يقولون : لم يرد الله لكل أحد إلا خيرا له بخلقه وأمره ، وإنما العبد هو الذى أراد لنفسه الشر بمعصيته ، وبترك [٢] طاعته التى يستعملها بدون مشيئة الله وقدرته أراد لنفسه الشر .

وهؤلاء يقولون : ما نُعِّم به الكافر فهو نعمة تامة ، كما نُعِّم به المؤمن سواءً ، إذ عندهم ليس لله نعمة خص بها المؤمن دون الكافر أصلا ، بل هما فى [٣] النعم الدينية سواء ، وهو ما بيّنه [٤] من أدلة الشرع والعقل ، وما خلقه من القدرة والألطاف ، ولكن أحدهما اهتدى بنفسه بغير نعمة أخرى خاصة من الله ، والآخر ضل بنفسه من غير خذلان يخصه من الله . وكذلك النعم الدنيوية هى فى حقهما [٥] على السواء .

والذين ناظروا هؤلاء من أهل الإثبات ربما زادوا فى المناظرة نوعا من الباطل ، وإن كانوا فى الأكثر على الحق . فكثيرا ما يرد مناظر المبتدع باطلا عظيما بباطل دونه .

ولهذا كان أئمة السنة ينهَوْن عن ذلك ، ويأمرون بالاقتصاد ولزوم السنة المحضة ، وأن لا يُرد باطل بباطل [٦] .

---

(١) فى الأصل : وكل . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : ونزل . ولعل ما أثبته هو الصواب .

(٣) فى الأصل : من . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) أى ما بيّنه الله تعالى لهم .

(٥) فى الأصل : فى حقها ، وهو تحريف .

(٦) فى الأصل : وأن لا يرد بباطل بباطل ، وهو تحريف .

فقال كثير من هؤلاء : ليس لله على الكافر نعمة دنيوية ، كما ليس له عليه نعمة دينية تخصه [١] ، إذ اللذة المستعقبة ألما أعظم منها ليست بنعمة ، كالطعام المسموم ، وكمن أعطى غيره أموالا ليطمئن ثم يقتله أو يعذبه .

قالوا : والكافر كانت هذه النعم سببا فى عذابه وعقابه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً ﴾ [سورة آل عمران : ١٧٨] .

وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ٤٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [سورة القلم : ٤٤ ، ٤٥] .

وخالفهم آخرون من أهل الإثبات للقدر أيضا ، فقالوا : بل لله على الكافر نعم دنيوية .

والقولان فى عامة أهل الإثبات من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم .

قال هؤلاء : والقرآن قد دل على امتنانه على الكفار بنعمه ، ومطالبته إياهم بشكرها ، فكيف يقال ليست نعما ؟ / قال تعالى [٢] : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا ص ١٨٥

---

(١) فى الأصل : تخصهم ، وهو تحريف .

(٢) فى أعلى هذه الصفحة إلى اليسار كتب : « الخامس » .

نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٨ ، ٢٩] إلى قوله . ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٢] إلى قوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٤] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ [سورة الإنسان : ٣] ، وكيف يكون كفورا من لم ينعم عليه بنعمه ؟

فالمراد لازم قول هؤلاء : أن الكفار لم يجب عليهم شكر الله إذ لم يكن قد أنعم عليهم عندهم . وهذا القول يُعلم فساده بالاضطرار من دين الإسلام ، فإن الله ذم الإنسان بكونه كفورا غير شكور ، إذ يقول : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [سورة العاديات : ٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [سورة هود : ٩ ، ١٠] .

وقد قال صالح عليه السلام لقومه : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ٧٤] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ ﴾ [سورة النحل : ١١٢] .

[وقال] [1] الأولون : قد قال تعالى : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾

---

(١) زدت « وقال » ليستقيم الكلام .

والكفار لم يدخلوا فى هذا العموم ، فعُلم أنهم خارجون عن النعمة . وقال [١] تعالى فى خطابه للمؤمنين : ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [سورة طه : ٨١] وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً ﴾ [سورة آل عمران ١٠٣] ، ﴿ واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُم وَمِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُم بِهِ ﴾ [سورة المائدة : ٧] ، وقال تعالى : ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا للهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٧٢] .

ظ ١٨٥ وأما الكفّار فخوطبوا بها من جهة / ما هى تنعّم ولذة وسرور ، ولم تسم [٢] فى حقهم نعمة على الخصوص ، وإنما تسمى نعمة باعتبار أنها نعمة فى حق عموم بنى آدم ، لأن المؤمن سعد بها فى الدنيا والآخرة ، والكافر يُنعَّم بها فى الدنيا .

وذلك أن كفر الكافر نعمة فى حق المؤمنين ، فإنه لولا وجود الكفر والفسوق والعصيان لم يحصل [جهاد المؤمنين للكفار وأمرهم الفساق والعصاة بالمعروف ونهيهم إياهم عن المنكر] [٣] ، ولولا وجود شياطين الإنس والجن لم يحصل للمؤمنين من بعض هذه الأمور ومعاداتها ومجاهداتها ومخالفة الهوى فيها ما ينالون به أعلى الدرجات وأعظم [٤] الثواب .

والإنسان فيه قوة الحب والبغض ، وسعادته فى أن يحب ما يحبه الله ، ويبغض ما يبغضه الله ، فإن لم يكن فى العالم ما يبغضه ويجاهد أصحابه لم يتم إيمانه وجهاده ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [سورة الحجرات : ١٥] .

---

(١) فى الأصل : قال .

(٢) فى الأصل : ولم يسم .

(٣) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : وعظم .

قالوا : ولو كانت هذه اللذات نعما مطلقة لكانت نعمة الله على أعدائه فى الدنيا أعظم من نعمته على أوليائه . قالوا : ونعمة الله التى بدَّلوها كفرا هى إنزال الكتاب وإرسال الرسول ، حيث كفروا بها وجحدوا أنها حق ، كما قال عليه السلام [١] : « ألا [لا] [٢] فخر إنى [٣] من قريش » [٤] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ [سورة النحل : ١١٢] ، هم الذين كفروا بما أنزل الله من الكتاب والرسل ، وتلك نعمة الله المعظَّمة . وقال تعالى : ﴿ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٤٤] .

رأى ابن تيمية

وحقيقة الأمر أن هذه الأمور فيها من التنعم باللذة والسرور فى الدنيا ما لا نزاع فيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ [سورة غافر : ٧٥] ، وقال تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ

---

(١) فى الأصل : كما قال على عليه السلام ، وهو تحريف .

(٢) زدت « لا » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : إن ، وهو تحريف .

(٤) لم أجد حديثا بهذا اللفظ ، ولكن جاءت أحاديث كثيرة فيها النص على أن النبى ﷺ من قريش ، منها الحديث الذى جاء فى صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع (كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبى ﷺ ....) ، يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » . وأورد هذا الحديث الترمذى فى سننه ٢٤٤/٥ - ٢٤٥ (كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ : باب ما جاء فى فضل النبى ﷺ) كما أورد أحاديث أخرى بنفس المعنى فى نفس الباب . وأورد الهيثمى فى مجمع الزوائد ٢١٤/٨ - ٢١٩ (كتاب علامات النبوة ، باب فى كرامة أصله ﷺ) عدة أحاديث تنص على أن النبى ﷺ كان من قريش .

الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [سورة الأحقاف : ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ [سورة المزمل : ١١] ، وقال تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ﴾ [سورة الحجر : ٣] ، / وقال تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [سورة الحديد : ٢٠] ، وهذا أمر محسوس . ص ١٨٦

لكن الكلام فى أمرين : أحدهما : هل هى نعمة أم لا ؟ والثانى : أن جنس تنعم المؤمن فى الدنيا بالإيمان وما يتبعه : هل هو مثل تنعّم الكافر ، أو دونه ، أو فوقه ؟ وهذه هى المسألة المقدّمة .

فأما الأول فيقال : اللذات فى أنفسها ليست نفس فعل العبد ، بل قد تحدث عن فعله مع سبب آخر ، كسائر المتولدات التى يخلقها الله تعالى بأسباب منها فعل العبد .

لكن اللذات تارة تكون بمعصية من ترك مأمور ، أو فعل محظور ، كاللذة الحاصلة بالزنا ، وبموافقة [الفسّاق] (١) ، وبظلم الناس ، وبالشرك ، والقول على الله بغير علم . فهنا المعصية هى سبب للعذاب الزائد على لذة الفعل . لكن ألم العذاب قد يتقدم ، وقد يتأخر ، وهى تشبه أكل الطعام الطيب الذى فيه من السموم ما يُمرض أو يقتل . ثم ذلك العذاب يمكن دفعه بالتوبة وفعل حسنات أخر ، لكن يقال : تلك اللذة الحاصلة بالمعصية لا تكون معادلة (٢) لها ما فى التوبة عنها والأعمال الصالحة من المشقة والألم . ولهذا قيل : ترك الذنب أمرّ من التماس التوبة ، وقيل : رب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا .

---

(١) زدت كلمة « الفسّاق » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : معاومة ، ولعل الصواب ما أثبته .

لكن فعل التوبة والحسنات الماحية قد يُوجب من الثواب أعظم من ثواب ترك الذنب أولا ، فيكون ألم التائب أشد من التارك إذا استويا من جميع الوجوه ، وثوابه أكثر . وكذلك لما [١] يكفِّر الله به الخطايا من المصائب مرارة تزيد [٢] على حلاوة المعاصى .

وتارة تكون اللذات بغير معصية من العبد ، لكن عليه أن يطيع الله فيها ، فيتجنب [٣] فيها ترك مأموره وفعل محظوره [٤] ، كما يؤتاه العبد من المال والسلطان ، ومن المآكل والمناكح التى ليست بمحرَّمة .

والله سبحانه أمر مع أكل الطيبات بالشكر ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٧٢] وفى صحيح مسلم عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها » [٥] . وفى الأثر : « الطاعم الشاكر كالصائم الصابر » رواه ابن ماجة عن النبى ﷺ [٦] .

---

(١) فى الأصل : ما . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : يزيد .

(٣) فى الأصل : فيعصيه ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : ونقل محضوره ، وهو تحريف .

(٥) الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه – مع اختلاف يسير فى الألفاظ – فى : مسلم ٢٠٩٥/٤ (كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب) ؛ سنن الترمذى ١٧٢/٣ (كتاب الأطعمة ، باب فى الحمد على الطعام إذا فرغ منه) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٠٠/٣ ، ١١٧ .

(٦) جاءت عبارات هذا الحديث عنوانا لأحد أبواب كتاب الأطعمة فى البخارى ٨٢/٧ (كتاب الأطعمة ، باب الطاعم الشاكر مثل الصائم الصابر) وقال البخارى بعد ذلك : « فيه عن أبى هريرة عن =

فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ * كَلاَّ ﴾ [سورة الفجر : ١٥ - ١٧] ، فإنه قد أخبر أنه أكرمه ، وأنكر قول المبتلى : رَبِّى أَكْرَمَنِ ، واللفظ الذى أخبر الله به مثل اللفظ الذى أنكره الله من كلام المبتلى ، لكن المعنى مختلف . فإن المبتلى اعتقد أن هذه كرامة [١] مطلقة ، وهى النعمة : التى يقصد بها [أن] [٢] النِّعَمَ إكرامٌ له [٣] ، والإنعام بنعمة لا يكون سببا لعذاب أعظم منها ، وليس الأمر كذلك ، بل الله تعالى ابتلاه بها ابتلاءً ، ليتبين هل يطيعه فيها أم يعصيه ، مع علمه بما سيكون من الأمرين ، لكن العلم بما سيكون شىء ، وكون الشىء / والعلم به شىء .

ص ١٨٧

وأما قوله تعالى : ﴿ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ﴾ فإنه تكريم بما فيه من اللذات ، ولهذا قرنه بقوله : (وَنَعَّمَهُ) ، ولهذا كانت [٤] خوارق العادات التى تسميها العامة « كرامة » ليست عند أهل التحقيق كرامة مطلقا ، بل فى الحقيقة الكرامة هى : لزوم الاستقامة ، وهى طاعة الله ، وإنما هى مما يبتلى الله به عبده ، فإن أطاعه بها رفعه [٥] ، وإن عصاه بها خفضه [٦] ، وإن كانت من آثار طاعة أخرى ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً ﴾ [سورة الجن : ١٦ ، ١٧] .

---

(١) فى الأصل : هذا اكرامه . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : إكرام عليه .

(٤) فى الأصل : كان .

(٥) فى الأصل : رفعة .

(٦) فى الأصل : حفظة .

وإذا كان فى النعمة والكرامة هذان الوجهان [١] ، فهى من باب الأمر والشرع نعمة [يجب] [٢] الشكر عليها ، وفى باب الحقيقة القدرية لم تكن [٣] لهذا الفاجر بها إلا فتنة ومحنة استوجب بمعصية الله فيها العذاب ، وهى فى ظاهر الأمر قبل أن يعرف حقيقة الباطن ابتلاء وامتحان ، يمكن أن تكون [٤] من أسباب سعادته ، ويمكن أن تكون من أسباب شقاوته ، وظهر بها جانب الابتلاء بالمر ، فإن الله يبتلى بالحلو والمر ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٣٥] ، وقال : ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٦٨] .

فمن ابتلاه الله بالمر : بالبأساء والضراء والبأس ، وقدر عليه رزقه ، فليس ذلك إهانة له ، بل هو ابتلاء . فإن أطاع الله فى ذلك كان سعيدا ، وإن عصاه فى ذلك كان شقيا ، كما كان مثل ذلك [٥] سبباً للسعادة فى حق الأنبياء والمؤمنين ، وكان شقاءً وسببا للشقاء فى حق الكفّار والفجّار .

وقال تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ [سورة البقرة : ١٧٧] وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا ﴾ [سورة البقرة : ٢١٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى

---

(١) فى الأصل : هذين الوجهين ، وهو خطأ .

(٢) زدت « يجب » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : يكن ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : يكون .

(٥) فى الأصل : كما كان ذلك مثل ذلك .

النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة التوبة : ١٠١] وقال تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة السجدة : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٧٦] .

وكما أن الحسنات ، وهى المسار (1) الظاهرة التى يبتلى بها العبد ، تكون عن طاعات فعلها العبد ، فكذلك السيئات ، وهى المكاره التى يُبتلى بها العبد ، تكون عن معاصى فعلها العبد . كما قال تعالى : ﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [سورة النساء : ٧٩] .

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [سورة الشورى : ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ ﴾ [سورة النساء : ٦٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴾ [سورة الشورى : ٤٨] .

ثم تلك المسار ، التى هى من ثواب طاعته ، إذا عصى الله فيها كانت / سببا لعذابه ، والمكاره التى هى عقوبة معصيته إذا أطاع الله فيها كانت سببا ظ ١٨٧

(1) فوق كلمة « المسار » كتب فى الأصل : « كذا » . والمقصود بها الأمور السارة .

لسعادته ، فتدبر هذا لتعلم أن الأعمال بخواتيمها ، وأن ما ظاهره نعمة هو لذة عاجلة قد تكون سببا للعذاب ، وما ظاهره عذاب وهو ألم [١] عاجل قد يكون [٢] سببا للنعيم . وما هو طاعة – فيما يرى الناس – قد يكون سببا لهلاك العبد برجوعه عن الطاعة ، إذا ابتُلى فى هذه [٣] الطاعة ، وما هو معصية – فيما يرى الناس – قد يكون سببا لسعادة العبد بتوبته منه ، وتصبّره على المصيبة ، التى [هى] [٤] عقوبة ذلك الذنب .

فالأمر والنهى يتعلق بالشىء الحاصل ، فيؤمر العبد بالطاعة مطلقا ، وينهى عن المعصية مطلقا ، ويؤمر بالشكر على كل ما يتنعم به .

وأما القضاء والقدر ، وهو [٥] علم الله وكتابه ، وما طابق ذلك من مشيئته وخلقه ، فهو باعتبار الحقيقة الآجلة ، فالأعمال بخواتيمها ، والمنعَم عليهم فى الحقيقة هم الذين يموتون على الإيمان .

وقد يُذكر تنازع الناس فى هذا الباب :

فالمثبتة للقضاء والقدر من متكلمة أهل الإثبات وغيرهم يلاحظون القدر من علم الله وكتابه ومشيئته وخلقه ، وقد يعرضون عمّا جاء به الأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، وعن الحكمة العامة ، وما فى تفصيل ذلك من الحكم الخاصة .

---

(١) فى الأصل : المر . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته ، أو يكون : مر .

(٢) فى الأصل : تكون .

(٣) فى الأصل : فى بره ، وهو تحريف .

(٤) زدت « هى » ليستقيم الكلام .

(٥) فى الأصل : هو .

وأما من لم يلاحظ إلا الأمر والنهى والوعد والوعيد فقط من القدرية ومن ضاهاهم فى حاله ، فقد كفر بما وجب عليه الإيمان به من خلق الله وكتابه ومشيئته ، وتدبيره لعباده المؤمنين الذين سبقت لهم منه الحجة بتدبير [1] خاص ، ومن قضائه على الكفار بما هو فيه عدل سبحانه ، كما فى الحديث المرفوع : « ماضٍ فينا أمرك ، عدلٌ فينا قضاؤك » [2] ، ولا يظلم ربك أحدا .

وإذا عُرف أن كل واحد من الابتلاء بالسراء والضراء قد يكون فى باطن الأمر مصلحة للعبد أو مفسدة له ، وأنه إن أطاع الله بذلك كان مصلحة له ، وإن عصاه كان مفسدة له – تبيّن أن الناس أربعة أقسام : منهم من يكون صلاحه على السراء ، ومنهم من يكون صلاحه على الضراء ، ومنهم من يصلح على هذا وهذا ، ومنهم من لا يصلح على واحد منهما .

---

(١) فى الأصل : بتدبر .

(٢) لم أجد الحديث بهذا اللفظ ، ولكن جاء الحديث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى المسند مرتين (ط . المعارف) ٢٦٧/٥ – ٢٦٨ ، ١٥٣/٦ – ١٥٤ ، ونصه فى الموضع الأول « .... عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أصاب أحداً قط همٌّ ولا حَزَنٌ فقال : اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماضٍ فيَّ حكمُك ، عدلٌ فيَّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سمَّيتَ به نفسَك ، أو علّمتَه أحداً من خلقك ، أو أنزلتَه فى كتابك ، أو استأثرتَ به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همّى ، إلا أذهب الله همّه وحزنه ، وأبدله مكانه فرجا » . قال : فقيل : يا رسول الله ألا نتعلمها ؟ فقال : « بلى ، ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها » .

وصحح الشيخ أحمد شاكر الحديث وأشار إلى وجوده فى مجمع الزوائد ١٣٦/١٠ وفى المستدرك للحاكم ٥٠٩/١ – ٥١٠ . وانظر بقية ما ذكره الشيخ أحمد شاكر عن الحديث .

وأول الحديث فى الموضع الثانى ١٥٣/٦ – ١٥٤ : « ما قال عبد قط إذا أصابه همٌّ وحَزَنٌ .... إلخ وذكر الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٣٦/١٠ – ١٣٧ الحديث بمعناه عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه وأوله : « من أصابه هم أو حزن ..... الحديث وقال عنه : « رواه الطبرانى وفيه من لم أعرفه » ونقل الناشر فى الهامش تعليق ابن حجر : « قلت : هذا الحديث أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى من رواية عبد الجليل بهذا الإسناد ، فلا وجه لاستدراكه – ابن حجر » .

والإنسان الواحد قد تجتمع له هذه الأحوال الأربعة فى أوقات متعددة ، أو فى وقت واحد باعتبارها [١] أنواع يبتلى بها .

وقد جاء فى الحديث المرفوع :« إن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا السقم ، ولو أصححته لأفسده ذلك ، وذلك أنى أدبر عبادى ، إنى بهم خبير بصير » [٢] .

فكما أن التنعم العاجل ليس بنعمة فى / الحقيقة ، قد يكون فى الحقيقة بلاء وشرا باعتبار [٣] المعصية فيه . والطاعة المتقدمة قد تكون حابطة وسببا للشر باعتبار ما يعقبها [٤] من ردة وفتنة [٥] ، فكذلك التألم العاجل قد يكون [٦] فى الحقيقة خيرا أو نعمة ، والمعصية المتقدمة قد تكون سببا للخير باعتبار التوبة والصبر على ما تعقبه من مصيبة [٧] ، لكن تتبدل [٨] الطاعة والمعصية .

ص ١٨٨

وهذا يقتضى أن العبد محتاج فى كل وقت إلى الاستعانة بالله على طاعته ، وتثبيت قلبه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

---

(١) فى الأصل : با غيار .

(٢) لم أجد هذا الحديث .

(٣) فى الأصل : فاعتبار ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : ما يتعقبه ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : وفتنته ، وهو تحريف .

(٦) فى الأصل : تكون .

(٧) فى الأصل : محبة ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٨) فى الأصل : تبدل . ولعل الصواب ما أثبته .

حال الإنسان عند السراء والضراء

وذلك أن الإنسان (١) هو كما وصفه الله بقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۞ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [سورة هود : ٩ ، ١٠] . وقال تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [سورة هود : ١١] .

فأخبر أنه عند الضراء بعد السراء ، ييأس من زوالها فى المستقبل ، ويكفر بما (٢) أنعم الله به عليه قبلها ، وعند النعماء بعد الضراء يأمن من عود [الضراء] (٣) فى المستقبل ، وينسى ما كان فيه بقوله : ﴿ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [سورة هود : ١٠] : على غيره ، يفخر عليهم بنعمة الله عليه .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ۞ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ۞ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ﴾ [سورة المعارج : ١٩ – ٢١] فأخبر أنه جزوع عند الشر لا يصبر عليه ، منوع عند الخير يبخل به .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [سورة العاديات : ٦] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [سورة الأحزاب : ٧٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُوراً ﴾ [سورة الإسراء : ١٠٠] ، وقال : ﴿ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ [سورة فصلت : ٤٩] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُوراً ﴾ [سورة الإسراء : ٦٧] .

---

(١) فى الأصل : الاثنين ، وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : ما .

(٣) زدت كلمة « الضراء » لتستقيم العبارة .

حال المؤمن عندهما

وقد وصف المؤمنين بأنهم صابرون فى البأساء والضراء وحين البأس ، والصابرون فى النعماء أيضا بقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [سورة هود : ١١] والصبر فى السراء قد يكون أشد ، ولهذا قال من قال من الصحابة : « ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر » .

وكان النبى ﷺ يستعيذ بالله من فتنة الفقر وشر فتنة الغنى [١] . وقال لأصحابه : « والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخاف أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم ، فتتنافسوا فيها كما تنافسوا فيها ، وتهلككم كما أهلكتهم » [٢] .

---

(١) أورد ابن الأثير الجزرى فى « جامع الأصول » ١٢٢/٥ (ط . السنة المحمدية ، القاهرة ١٣٧٠ / ١٩٥٠) عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الكسل والهَرَم والمَغْرَم ، ومن فتنة القبر وعذاب القبر ، ومن فتنة النار وعذاب النار ، ومن شر فتنة الغِنى ، ومن شر فتنة الفقر .... الحديث ، وقال ابن الأثير إن الحديث رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ، وذكر أن فى رواية أبى داود : أن رسول الله ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات : « اللهم إنى أعوذ بك من فتنة النار وعذاب القبر ، ومن شر الغنى والفقر » .

(٢) الحديث عن عمرو بن عوف رضى الله عنه ونصه فى : البخارى ٩٠/٨ (كتاب الرقاق ، باب ما يُحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ..... أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتى بجزيتها ، وكان رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين وأمّر عليهم العلاء بن الحضرمى ، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدومه ، فوافته صلاة الصبح مع رسول الله ﷺ ، فلما انصرف تعرضوا له ، فتبسم حين رآهم ، وقال : « أظنكم سمعتم بقدوم أبى عبيدة وأنه جاء بشىء ؟ » قالوا : أجل يا رسول الله . قال : « فأبشروا وأمّلوا ما يسركم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكنى أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتلهيكم كما ألهتهم » . وجاء الحديث عنه أيضا فى : البخارى ٩٦/٤ - ٩٧ (كتاب الجزية ، باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب) ، ٨٤/٥ - ٨٥ (كتاب المغازى ، باب حدثنى خليفة حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى) ؛ مسلم ٢٢٧٣/٤ - ٢٢٧٤ (كتاب الزهد والرقائق ، الباب الأول) ؛ سنن الترمذى ٥٦/٤ (كتاب صفة القيامة ، باب حدثنا أبو حصين عبد الله بن أحمد بن يونس .....) ؛ سنن ابن ماجة ١٣٢٤/٢ - ١٣٢٥ (كتاب الفتن ، باب فتنة المال) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٣٧/٤ ، ٣٢٧ .

فمن لم يتصف بحقيقة الإيمان هو إما قادر وإما عاجز . فإن كان قادرا أظهر ما فى نفسه بحسب قدرته من : الفواحش ، والإثم ، والبغى ، والإشراك بالله ، والقول عليه بغير علم ، ومن ترك القسط ، وترك إقامة الوجه عند كل / مسجد ، ودعاء الله مخلصا له الدين ، ثم يكون شرهم بحسب كل منهم ، من حيث نفوسهم وقدرتهم (١) ، فإن العبد لا يفعل إلا بقدرة وإرادة ، فمن كان أقدر وأفجر كان أمره أشد ، كفرعون وأمثاله من الجبّارين المتكبرين ، لا يصبرون عن أهوائهم ، ولا يتقون الله .

ظ ١٨٨

وأما المؤمن فإنه مع قدرته يفعل ما أُمر الله به من البر والتقوى ، دون ما نَهى عنه من الإثم والعدوان .

ثم أولئك الذين لم يتصفوا بحقيقة الإيمان – بل فيهم من الفجور كفر أو نفاق أو فسوق ما فيهم – إذا كانوا عاجزين عن إرادتهم ، لا يقدرون على أهوائهم بنوع من أنواع القدرة ، تجدهم أذل الناس وأطوع الناس لمن (٢) يستعملهم فى أغراضهم ، وأجزع الناس لما أصابهم ، ذلك أنه ليس فى قلوبهم من الإيمان ما يعتاضون به ، وتستغنى به نفوسهم ، ويصبرون به عمَّا لا يصلح لهم .

وهذه حال الأمم البعيدين عن العلم والإيمان ، كالترك التتار [والعرب] (٣) فى جاهليتهم ، فإنهم أعز الناس إذا قدروا ، وأذل الناس إذا قُهروا .

---

(١) فى الأصل : بحسب أمر من حيث نفوسهم وقدرتهم . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : من .

(٣) زدت كلمة « والعرب » لتستقيم العبارة .

وأما المؤمنون ، فكما قال تعالى لهم وقد غلبوا : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٣٩] ، فهم الأعلون إذا كانوا مؤمنين ولو غلبوا .

وقال كعب بن زهير [١] فى صفة الصحابة :

ليسوا مفاريحَ إنْ نَالَتْ رِمَاحُهُمُ   يوماً وليسوا مجازيعاً إذا نِيلُوا [٢]

ولهذا كان المشروع فى حق كل ذى إرادة فاسدة من الفواحش والظلم والشرك والقول بلا علم – أحد أمرين : إما إصلاح إرادته ، وإما منع قدرته ، فإنه إذا اجتمعت القدرة مع إرادته الفاسدة حصل الشر .

وأما ذو الإرادة الصالحة فتؤيد قدرته حتى يتمكن من فعل الصالحات ، وذو القدرة الذى لا يمكن سلب قدرته يُسعى فى إصلاح إرادته بحسب الإمكان .

فالمقصود تقوية الإرادة الصالحة والقدرة عليها بحسب الإمكان ، وتضعيف الإرادة الفاسدة والقدرة معها بحسب الإمكان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

المؤمن أرجح فى النعيم واللذة من الكافر فى الدنيا قبل الآخرة وإن كانت الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر

وهذا مما يظهر به حسن حال المؤمن وترجحه فى النعيم واللذة على الكافر فى الدنيا قبل الآخرة ، وإن كانت الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر .

---

(١) فى الأصل : ابن مالك ، والتصويب فى هامش الأصل : « صوابه ابن زهير » .

(٢) البيت فى شرح ديوان كعب بن زهير ، صنعة أبى الحسن بن الحسين السكرى ، ص ٢٥ ، ط . دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٦٩/١٩٥٠ ولكنه فيه :

لا يفرحون إذا نالت رماحهم   قوما وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

وأورد ابن تيمية البيت فى كتاب « الاستقامة » ٢٧٤/٢ (وانظر ت ٢) .

فأما ما وُعد به المؤمن بعد الموت من كرامة الله [فإنه] [١] تكون الدنيا [٢] بالنسبة إليه سجنا ، وما للكافر بعد الموت من عذاب الله [فإنه] [٣] تكون الدنيا جنة [٤] بالنسبة إلى ذلك .

وذلك أن الكافر صاحب الإرادة الفاسدة إما عاجز وإما قادر ، فإن كان عاجزاً تعارضت إرادته [وقدرته] حتى لا يمكنه الجمع بينهما ، [وإن كان قادرا أقبل على الشهوات وأسرف فى] التذاذه بها ولا يمكنه تركها [٥] .

ص ١٨٩ / ولهذا تجد القوم [٦] من الظالمين أعظم الناس فجوراً وفساداً [٧] وطلبا لما يروِّحون به أنفسهم من مسموع ومنظور ومشموم ومأكول ومشروب ، ومع هذا فلا تطمئن [٨] قلوبهم بشىء من ذلك ، هذا فيما ينالونه [٩] من اللذة ، وأما

---

(١) زدت « فإنه » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : تكون فى الدنيا .

(٣) زدت « فإنه » ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : تكون فى الدنيا جنته .

(٥) فى الأصل اضطربت السطور الأخيرة وجاء الكلام فيها ناقصا محرفا هكذا : « وذلك أن الكافر صاحب الإرادة الفاسدة إما قادر وإما عاجز (وتحتهما علامة التقديم والتأخير) فإن كان قادرا تعارضت إرادته حتى لا يمكنه الجمع بينهما وسهاون حتى يقلد التذاذه بها أو يعدم ولا يمكنه تركها » . ولعل ما أثبته هو أقرب شىء إلى الصواب إن شاء الله .

(٦) فى الأصل : القول ، وهو تحريف .

(٧) فى الأصل : صحو وبلا ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٨) فى الأصل : بتطمين ، وهو تحريف .

(٩) فى الأصل : يتاولونه ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

ما يخافونه من الأعداء ، فهم أعظم الناس خوفا ، ولا عيشة لخائف . وأما العاجز منهم فهو فى عذاب عظيم ، لا يزال فى أسف على ما فاته وعلى ما أصابه .

وأما المؤمن فهو مع مقدرته له من الإرادة الصالحة والعلوم النافعة ما يوجب طمأنينة قلبه وانشراح صدره بما يفعله من الأعمال الصالحة ، وله من الطمأنينة وقرة العين ما لا يمكن وصفه ، وهو مع عجزه أيضا [له] [1] من أنواع الإرادات الصالحة والعلوم النافعة التى يتنعَّم بها ما لا يمكن وصفه .

لذات أهل البر أعظم من لذات أهل الفجور

وكل هذا محسوس مجرَّب ، وإنما يقع غلط أكثر الناس أنه قد أحس بظاهرٍ من لذات أهل الفجور وذاقها ، ولم يذق لذات أهل البر ولم يخبرها ، ولكن أكثر الناس جهال ، كما لا يسمعون ولا يعقلون ، وهذا الجهل لعدم شهود حقيقة الإيمان ووجود حلاوته وذوق طعمه ، انضم إليه أيضا جهل كثير من المتكلمين فى العلم بحقيقة ما فى أمر [الله] [2] من المصلحة والمنفعة ، وما فى خلقه أيضا لعبده المؤمن من المنفعة والمصلحة ، فاجتمع الجهل [3] بما أخبر الله به من خلقه وأمره ، وما أشهده عباده من [حقيقة الإيمان] ووجود [حلاوته] [4] مع ما فى النفوس من الظلم ، مانعاً للنفوس من عظيم نعمة الله وكرامته ورضوانه ، موقعاً لها فى بأسه وعذابه وسخطه .

---

(١) زدت « له » ليستقيم الكلام .

(٢) زدت لفظ الجلالة لتستقيم العبارة .

(٣) فى الأصل : فاجتمع أهل الجهل ، وهو خطأ .

(٤) فى الأصل العبارات محرفة مضطربة هكذا : « وما أشهده عباده من موجوده بمكان هذا الجهل » ولعل الصواب ما أثبته .

لما خاض الناس فى مسائل القدر ابتدع طوائف منهم مقالات مخالفة للكتاب والسنة : بدع القدرية

وذلك أن الناس لما خاضوا فى مسائل القدر ، ولِم يخلق الله ويأمر ، ونحو ذلك ، بغير هدًى من الله ، فرّقوا دينهم وكانوا شيعا .

فزعم فريق أنه لا يخلق أحدا من الأشخاص إلا لأجل مصلحة المخلوق / ولا يأمره إلا لأن أمره مصلحة له أيضا ، وإنما العبد هو الذى صرف عن نفسه المصلحة وفعل المفسدة (١) بغير قدرة الرب وبغير مشيئته ، وهم إنما قصدوا بها تنزيه الرب عن الظلم والعيب ، ووصفه بالحكمة والعدل والإحسان ، لكن سلبوه علمه (٢) وقدرته وكتابته (٣) وخلقه ، ونفوا (٤) مشيئته وعمومها .

فقال قوم منهم : إنه لا يعلم ولا يكتب ما يكون من العباد حتى يفعلوه (٥) .

وقال آخرون : بل علم ذلك وعلم أنهم لا يطيعونه ، ولا يفعلون إلا ما يضرهم ، ومع هذا فقصد تعريفهم بالخلق والأمر للمنفعة الخالصة الدائمة .

فقال لهم الناس : من علم أن مقصوده من الخير لا يكون ، وقد سعى فى حصوله بمنتهى قدرته ، كان من أجهل الفاعلين وأسفههم ، فنزهوه عن قليل من السفه بالتزام ما هو أكثر منه ، وزعموا أنه لا يقدر إلا على ما فعل بهم ، فسلبوه قدرته .

---

(١) فى الأصل : « وإنما العبد هو الذى صرف عن نفسه مصلحة وفعل مفسد مشقة » وهى عبارات محرفة ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : عمله ، وهو تحريف ، واحسب أن الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : وكتابه ، وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : ونقود ، وهو تحريف ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٥) فى الأصل : حتى فعلوه ، وهو خطأ .

بدع طائفة من أهل الإثبات

فرد على هؤلاء طائفة من أهل الإثبات ، فأثبتوا عموم قدرته وعموم مشيئته وخلقه وعلمه القديم ، وكل هذا حسن موافق للكتاب والسنة ، وهو مع تمام الإيمان القدر : بعلم الله القديم ، ومشيئته ، وخلقه ، وقدرته على كل شيء ، لكن ضموا إلى ذلك أشياء ليست من السنة .

فإنه من السنة أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وألا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ، وأنه يأمر العباد بطاعته ، ومع هذا يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، كما قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة يونس : ٢٥] .

فزعموا مع ذلك أنه يخلق الخلق لا لحكمة فى خلقهم ، ولا لرحمته لهم ، بل قد يكون خلقهم ليضرهم (١) كلهم ، وهذا عندهم حكمة ، فلم ينزهوه عما نزَّه [عنه] (٢) نفسه من الظلم ، حيث أخبر أنه إنما يجزى الناس بأعمالهم ، وأنه لا يزر وازرة وزر أخرى ، وأنه من يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما .

بل زعموا أن كل مقدور عليه فليس بظلم ، مثل تعذيب الأنبياء والمرسلين ، وتكريم الكفار والمنافقين ، وغير ذلك مما نزَّه الله نفسه عنه ، فلم يكن الظلم الذى نزّه الله نفسه عنه حقيقة عند هؤلاء ، إذ كل ما يمكن ويقدر عليه فليس بظلم . فقوله تعالى : ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ ﴾ [سورة غافر : ٣١] / عندهم : لا يريد (٣) ما لا يكون ممكنا مقدورا عليه ، وهو عندهم (٤) لا يقدر

ص ١٩٠

(١) فى الأصل : لنصرهم ، وهو تحريف ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٢) زدت « عنه » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : عندهم فقوله قوله لا يريد . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : وهو عندهم عليه وهو عندهم .... ولعل الصواب ما أثبته .

على الظلم حتى يكون تاركا له ، وزعموا أنه قد يأمر العباد بما لا يكون مصلحة لهم ولا لواحد منهم ، لا يكون الأمر مصلحة ، ولا يكون فعل المأمور به مصلحة ، بل قد يأمرهم بما إن فعلوه [١] كان مضرة لهم ، وإن لم يفعلوه عاقبهم [به] [٢] ، فيكون العبد فيما يأمره به بين ضررين : ضرر إن أطاع ، وضرر إن عصى . ومن كان كذلك كان أمره للعباد مضرة لهم ، لا مصلحة لهم .

وقالوا : يأمر بما يشاء ، وأنكروا أن يكون فى الأحكام الشرعية من العلل المناسبة للأحكام من جلب المنافع ودفع المضار ما تبقى [الأحكام] الشرعية [٣] ممكنة به ، حتى كان منهم من دفع علل الأحكام بالكلية ، ومنهم من قال : العلل مجرد علامات ودلالات على الحكم ، لأنها أمور تناسب الحكم وتلائمه ، وهو يجوِّزون مع هذا ألاَّ يكون للعبد ثواب ومنفعة فى فعل المأمور به ، لكن لما جاءت الشريعة بالوعد قالوا [٤] هو موعود بالثواب الذى وُعد به ، وربما قالوا : إنه فى الآخرة فقط ، فإن الفعل المأمور به قد [٥] لا يكون [فيه] [٦] مصلحة للعباد ولا منفعة لهم بحال ، ولا يكون فيه [٧] تنعم لهم ولا لذة بحال ، بل قد يكون مضرة لهم ومفسدة فى حظهم ، ليس فيه ما ينفعهم [٨] ، ومعلوم أنه إذا اعتقد المرء

---

(١) فى الأصل : بما به إن فعلوه .

(٢) زدت « به » لتستقيم العبارة .

(٣) فى الأصل : ما هى الشرعية . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : قال .

(٥) فى الأصل : فقد .

(٦) زدت « فيه » لتستقيم العبارة .

(٧) فى الأصل كأن العبارة : فلا يكون لله ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٨) فى الأصل كأنها : يؤلمهم ، ولعل الصواب ما أثبته .

[أن] [١] طاعة الله ورسوله فيما أمراه [به] [٢] قد لا يكون [فيها] [٣] مصلحة له ولا منفعة ، ولا فيها تنعم ولا لذة [٤] ولا راحة ، بل يكون [فيها] [٥] مفسدة له ومضرة عليه ، وليس فيها إلا ألمه [٦] وعذابه – كان هذا من أعظم الصوارف له عن فعل ما أمر الله به ورسوله ، ثم إن كان ضعيف الإيمان بالوعيد والوعد ترك الدين بالكلية ، وإن كان مؤمنا بالوعيد صارت دواعيه مترددة بين هذا العذاب وذلك العذاب ، وإن كان مؤمنا بوعد الآخرة فقط اعتقد أنه لا تكون له [٧] فى الدنيا مصلحة ولا منفعة [٨] ، بل [لا] [٩] تكون المصلحة والمنفعة فى الدنيا إلا لمن كفر أو فسق وعصى .

ظ ١٩٠

الرد عليهم

وهذا أيضا وإن كان / هو غاية حال هؤلاء ، فهو مما يصرف النفوس عن طاعة الله ورسوله ، ويبقى العبد المؤمن متردد الدواعى بين هذا وهذا . وهو لا يخلو من أمرين : إما أن يرجّح جانب الطاعة التى يستشعر أنه ليس فيها طول عمره له مصلحة ولا منفعة ولا لذة ، بل عذاب وألم ، بل مفسدة ومضرة ، وهذا لا يكاد يصبر عليه أحد .

---

(١) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : فيما أمره ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) زدت « فيها » ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : لعذه ، وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) زدت « فيها » ليستقيم الكلام .

(٦) فى الأصل كأنها : ليس فيها إله ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٧) فى الأصل : فى الآخرة فقط ثم فرح أنه يكون له ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٨) فى الأصل : مصلحة بلا منفعة ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٩) زدت « لا » ليستقيم الكلام .

وإما أن يرجح جانب المعصية تارة أو تارات أو غالبا ، ثم إن أحسن أحواله مع ذلك أن ينوى التوبة قبيل موته .

ولا ريب إن كان ما قاله هؤلاء حقا فصاحب هذه الحال أكيس وأعقل ممن محَّض طاعة الله طول عمره ، إذ أن هذا [١] سلم من عذاب ذلك المطيع فى الدنيا ، ثم إنه بالتوبة أحبط عنه العقاب ، وأبدل الله سيئاته بالحسنات ، فصارت جميع سيئاته حسنات ، فصار ثوابه فى الآخرة قد يكون أعظم وأعظم من ثواب ذلك المطيع الذى محَّض الطاعة ، ولو كان ثوابه دون ثواب ذلك [٢] لم يكن التفاضل بينهم إلا كتفاضل أهل الدرجات فى الجنة ، وهذا مما يختاره أكثر الناس على مكابدة العذاب والشقاء والبلاء بطول العمر ، إذ هو أمر لا يصبر عليه أحد ، فإن مصابرة العذاب ستين أو سبعين سنة بلا مصلحة ولا منفعة ولا لذة أمر ليس هو من جِبِلَّة الأحياء ، إذا جوَّزوا أن لا يكون فى شىء من طاعة الله مصلحة ولا منفعة طول عمره .

وهؤلاء يجعلون العباد مع الله بمنزلة الأُجراء مع المستأجرين ، كأن الله استأجرهم طول مقامهم فى الدنيا ليعملوا ما لا ينتفعون به ، ولا فيه لربهم منفعة ، ليعوضهم مع ذلك بعد الموت بأجرتهم ، وفى هذا من تشبيه الله [٣] بالعاجز الجاهل السفيه ما يجب تنزيه الله عنه ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

---

(١) فى الأصل : إذا أهنا ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : ولو كان ثوابه دون ذلك ثواب ذلك . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : أمر السنة لله ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

المقالة الصحيحة لأهل السنة والجماعة ص ١٩١

والحق الذى يجب اعتقاده أن الله سبحانه إنما أرسل رسوله رحمة للعالمين ، وأن إرسال الرسل وإنزال الكتب / رحمة عامة للخلق أعظم من إنزال المطر وإطلاع البذر ، وإن يحصل بهذه الرحمة ضرر لبعض النفوس [(١)] .

ثم إنه سبحانه – كما قال قتادة وغيره من السلف : لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليه ، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا منه [(٢)] ، بل أمرهم بما فيه صلاحهم ، ونهاهم عما فيه فسادهم .

وفى الحديث الصحيح ، حديث أبى ذر عن النبى ﷺ : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد يسألونى فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكى شيئا إلا كما ينقص البحر إذا غُمس فيه المخيط غمسة واحدة ، يا عبادى إنما هى أعمالكم ترد عليكم ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » [(٣)] .

---

(١) فى الأصل : وأن يحصل بهذه الرحمة نصر (بدون نقط) وبعض النفوس ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : بخلافه ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) الحديث عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه فى : مسلم ١٩٩٤/٤ (كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم) ، وسبق هذا الحديث فى المجموعة الأولى ، ص ١٤٨ وعلقت عليه هناك (ت ١) .

رفع الله الحرج عن المؤمنين

وقال تعالى فى وصف النبى الأمى : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٧] .

وقال تعالى لما ذكر (١) الوضوء : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٦] . فأخبر أنه لا يريد أن يجعل علينا من حرج فيما أمرنا به ، وهذه نكرة مؤكدة بحرف « مِنْ » (٢) ، فهى تنفى كل حرج ، وأخبر أنه إنما يريد تطهيرنا وإتمام نعمته علينا .

وقال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [سورة الحج : ٧٨] ، فقد أخبر أنه ما جعل علينا فى الدين من حرج نفيا عاما مؤكدا ، فمن اعتقد أن فيما أمر الله به مثقال ذرة من حرج فقد كذَّب الله ورسوله ، فكيف بمن اعتقد [أن] (٣) المأمور به قد يكون فسادا وضرراً لا منفعة فيه ولا مصلحة لنا ، ولهذا [لمَّا] (٤) لم يكن فيما أمر الله ورسوله حرج علينا ، لم يكن الحرج من ذلك إلا من النفاق ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [سورة النساء : ٦٥] .

ظ ١٩١

---

(١) فى الأصل : لما ذكروا .

(٢) فى الأصل : وهذه يكره مور كده بحترف من . وفوق حرف « من » كتب « كذا » . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٣) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

(٤) زدت « لما » لتستقيم العبارة .

وقال الله تعالى فيما أمر به من الصيام : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٥] ، فإذا كان لا يريد فيما أمرنا به ما يعسر علينا ، فكيف يريد ما يكون ضررا وفسادا لنا بما أمرنا به إذا أطعناه فيه ؟

الإيمان والطاعة خير من الكفر والمعصية للعبد فى الدنيا والآخرة

ثم إنه يكون قد أخبر أن الإيمان والطاعة خير من الكفر والمعصية للعبد فى الدنيا والآخرة ، وإن كان لجهله يظن أن ذلك خير له [١] فى الدنيا ، كما يقوله هؤلاء الذين فيهم جهل ونفاق ، الذين قد يقولون : إن المأمور به قد لا يكون فيه للعبد مصلحة ولا منفعة طول عمره ، بل يكون ذلك فى المنهى عنه ، فقال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٦] .

وقال تعالى عن الذين اتبعوا : ﴿ ما تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ إلى قوله ﴿ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] فأخبر أنهم يعلمون أن هذه الأمور لا تنفع [٢] بعد الموت ، بل لا يكون لصاحبها نصيب فى الآخرة ، وإنما طلبوا بها منفعة الدنيا ، وقد يسمون ذلك العقل المعيشى ، أى العقل الذى يعيش به الإنسان فى الدنيا عيشة طيبة ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٣] ، فأخبر أن أولياءه [٣] الذين آمنوا وكانوا يتقون ، ينبهم [٤] على

(١) فى الأصل : خيرا له ، وهو خطأ .

(٢) فى الأصل : لا ينفع .

(٣) فى الأصل : أوليائه ، وهو خطأ .

(٤) فى الأصل : يبهم ، وهو تحريف .

[أن فى] [١] ذلك ما هو خير لهم مما طلبوه فى الدنيا لو كانوا يعلمون ، فيحصل لهم فى الآخرة [٢] من الخير الذى هو المنفعة ودفع المضرة ما هو أعظم مِمَّا يحصلوه / بذلك من خير الدنيا . ص ١٩٢

كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٥٦] ، ثم قال : ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۞ فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٤٧ ، ١٤٨] [٣] .

وقال عن إبراهيم : ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [سورة النحل : ١٢٢] .

وقد قال تعالى ما يبين به أن فعل المكروه من المأمور خير من تركه فى الدنيا أيضا . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً ۞ وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْراً عَظِيماً ۞ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ [سورة النساء : ٦٦ - ٦٨] .

---

(١) زدت عبارة « أن فى » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : فى الدنيا ، وهو خطأ . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٣) سقطت كلمة « الكافرين » من الأصل .

وهذا فى سياق حال ﴿ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ [سورة النساء : ٦٠] ، وهؤلاء منافقون من أهل الكتاب .

والمشركون حالهم أيضا شبيه (١) بحال الذين نبذوا كتاب الله وراءهم ظهريا كأنهم لا يعلمون : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] ، فإن أولئك عدلوا عمَّا فى كتاب الله إلى اتباع الجبت ، والطاغوت ، والسحر ، والشيطان . وهذه حال الذين أوتوا نصيبا من الكتاب الذين يؤمنون بالجبت والطاغوت ، وحال الذين يتحاكمون إلى الطاغوت من المظهرين [للإيمان] (٢) بالله ورسله فيها من حال هؤلاء .

والطاغوت كل معظم ومتعظم بغير طاعة الله ورسوله ، من إنسان أو شيطان أو شيء من الأوثان .

وهذه حال كثير ممن يشبه اليهود من المتفقهة والمتكلمة وغيرهم ممن فيه نوع نفاق من هذه الأمة ، الذين يؤمنون بما خالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من أنواع الجبت والطاغوت ، والذين يريدون أن يتحاكموا إلى غير كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ظ ١٩٢

---

(١) فى الأصل : شبيهم ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) زدت كلمة « للإيمان » لتستقيم العبارة .

ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً ﴾ [سورة النساء : ٦١ ، ٦٢] (١)
أى هؤلاء لم يقصدوا ما فعلوه من العدل عن طاعة الله ورسوله إلى اتّباع ما اتبعوه من الطاغوت إلا لما ظنوه من جلب منفعة لهم ودفع مضرة عنهم ، مثل طلب علم وتحقيق ، كما يوجد فى صنف المتكلمة ، ومثل طلب أذواق ومواجيد ، كما يوجد فى صنف المتعبدة ، ومثل طلب شهوات ظاهرة وباطنة ، كما يوجد فى صنف الذين يريدون العلو ، والذين يتبعون شهوات الغى (٢) .

قال تعالى : ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ [سورة النساء : ٦٠] أى ضلوا عن مطلوبهم الذى هو جلب المنفعة ودفع المضرة ، فإن ذلك إنما هو فى طاعة الله ورسوله دون اتباع الطاغوت ، فإذا عاقبهم الله بنقيض مقصودهم فى الدنيا فأصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، قالوا : ما أردنا بما فعلناه (٣) إلا إحسانا : أى أردنا الإحسان إلى نفوسنا لا ظلمها ، وتوفيقا : أو جمعا بين هذا وهذا ، لتجتمع الحقائق والمصالح .

قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ [سورة النساء : ٦٣] من الاعتقادات الفاسدة والإرادات الفاسدة : الظن وما تهوى الأنفس ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِى أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً ﴾ [سورة النساء : ٦٣] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً

---

(١) فى الأصل جاءت آيتا سورة النساء ناقصتين محرفتين .

(٢) فى الأصل : الغنى ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : ما أردنا إلا بما فعلناه ، وهو خطأ .

رَّحِيماً ﴾ [سورة النساء : ٦٤] فدعاهم سبحانه بعد ما فعلوه من النفاق إلى التوبة ، وهذا من كمال رحمته بعباده ، يأمرهم قبل المعصية بالطاعة ، وبعد المعصية بالاستغفار ، وهو رحيم بهم فى كلا الأمرين : بأمره لهم بالطاعة أولا برحمته ، وأمرهم بالاستغفار من رحمته ، فهو سبحانه رحيم بالمؤمنين الذين أطاعوه أولا ، والذين استغفروه ثانيا .

فإذا كان رحيما بمن يطيعه ، والرحمة توجب إيصال (١) ما ينفعهم إليهم ، ودفع ما يضرهم عنهم ، فكيف يكون المأمور به مشتملا على ضررهم دون منفعتهم ؟

معنى المجىء إلى الرسول ﷺ بعد مماته

وقوله : (فجاؤوك) : المجىء إليه فى حضوره معلوم كالدعاء إليه ، وأما فى مغيبه ومماته (٢) فالمجىء إليه كالدعاء إليه والرد إليه . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ﴾ [سورة النساء : ٦١] وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [سورة النساء : ٥٩] / وهو الرد والمجىء إلى ما بُعث به من الكتاب والحكمة ، وكذلك المجىء إليه (٣) لمن ظلم نفسه هو الرجوع إلى ما أمره به ، فإذا رجع إلى ما أمره به فإن الجائى إلى الشىء فى حياته ممن ظلم نفسه يجىء إليه داخلا فى طاعته ، راجعا عن معصيته ، كذلك فى مغيبه ومماته .

ص ١٩٣

واستغفار الله موجود فى كل مكان وزمان ، وأما استغفار الرسول فإنه أيضا

---

(١) فى الأصل : أفعال ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : ومماته ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : المحبة إليه ، وهو تحريف . والإشارة هنا إلى قوله تعالى : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله ...) الآية .

يتناول الناس فى مغيبه وبعد مماته ، فإنه أُمر بأن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، وهو مطيع لله (١) فيما أمره به . والتائب داخل فى الإيمان ، إذ المعصية تنقص (٢) الإيمان ، والتوبة من المعصية تزيد فى الإيمان بقدرها ، فيكون له من استغفار النبى ﷺ بقدر ذلك .

فأما مجيء الإنسان إلى [الرسول ﷺ] (٣) عند قبره ، وقوله : استغفر لى ، أو سل لى ربك ، أو ادعو لى ، أو قوله فى مغيبه : يا رسول الله ادع لى ، أو استغفر لى ، أو سل لى ربك كذا وكذا ، فهذا لا أصل له (٤) ، ولم يأمر الله بذلك ، ولا فعله واحد من سلف الأمة المعروفين فى القرون الثلاثة ، ولا كان ذلك معروفا بينهم ، ولو كان هذا مما يستحب لكان السلف يفعلون ذلك ، ولكان ذلك معروفا فيهم ، بل مشهورا بينهم ، ومنقولا عنهم . فإن مثل هذا إذا كان طريقا إلى غفران السيئات وقضاء الحاجات ، [لكان] (٥) مما تتوفر (٦) الهمم والدواعى على فعله وعلى نقله ، لا سيما فيمن كانوا أحرص الناس على الخير ، فإذا لم يعرف أنهم كانوا يفعلون ذلك ، ولا نقله أحد عنهم ، [عُلم] (٧) أنه لم يكن مما يستحب ويؤمر به .

---

(١) فى الأصل : الله .

(٢) فى الأصل : ينقص .

(٣) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : فهذا الأصل له ، وهو تحريف .

(٥) زدت « لكان » ليستقيم الكلام .

(٦) فى الأصل : يتوفر .

(٧) زدت كلمة « علم » لتستقيم العبارة .

بل المنقول الثابت عنه ما أمر الله به النبى ﷺ من نهيه عن اتخاذ قبره عيدا ووثنا ، وعن اتخاذ القبور مساجد [(١)] .

وأما ما ذكره بعض الفقهاء من حكاية العتبى عن الأعرابى الذى أتى قبر النبى ﷺ وقال : « يا خير البرية : إن الله يقول : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ الآية [سورة النساء : ٦٤] ، وإنى قد جئت » [(٢)] وأنه رأى النبى ﷺ / فى المنام وأمره أن يبشر الأعرابى [(٣)] – فهذه الحكاية ونحوها مما يذكر فى قبر النبى ﷺ وقبر غيره

ظ ١٩٣

---

(١) وردت أحاديث كثيرة نهى فيها النبى ﷺ عن اتخاذ قبره عيدا ووثنا ، وعن اتخاذ القبور مساجد ، منها عن أبى هريرة رضى الله عنه قوله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبرى عيدا ، وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » وهو فى : سنن أبى داود ٢/٢٩٣ (كتاب المناسك ، باب زيارة القبور) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٢/٣٦٧ .

ومنها عن عائشة وابن عباس رضى الله عنهم حديث النبى ﷺ : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وهو فى : البخارى ١/٩١ (كتاب الصلاة ، باب حدثنا أبو اليمان) ؛ مسلم ١/٣٧٧ (كتاب المساجد ، باب النهى عن بناء المساجد على القبور) .

ومنها حديث : « اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وهو فى الموطأ ١/١٧٢ (كتاب قصر الصلاة فى السفر ، باب جامع الصلاة) عن عطاء ابن يسار ؛ المسند (ط . المعارف) ١٣/٨٦ – ٨٩ عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) فى الأصل كتب فوق كلمة « جئت » : « كذا » .

(٣) قال ابن كثير فى تفسير آية ٦٤ من سورة النساء : « وقد ذكر جماعة منهم الشيخ أبو منصور الدباغ فى كتابه « الشامل » الحكاية المشهورة عن العتبى قال : كنت جالسا عند قبر النبى ﷺ فجاء أعرابى فقال : السلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) وقد جئتك مستغفرا لذنبى مستشفعا بك إلى ربى ، ثم أنشأ يقول :

يا خير من دُفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابى ، فغلبتنى عينى فرأيت النبى ﷺ فى النوم ، فقال : يا عتبى الحق الأعرابى فبشّره أن الله قد غفر له ..... » .

من الصالحين ، فيقع مثلهما لمن فى إيمانه ضعف ، وهو جاهل بقدر الرسول وبما أمر به ، فإن لم يُعف [عن] مثل هذا (١) لحاجته ، وإلا اضطرب إيمانه ، وعظم نفاقه ، فيكون فى ذلك بمنزلة المؤلفة بالعطاء فى حياة النبى ﷺ ، كما قال : « إنى لأتألف (٢) رجالا بما فى قلوبهم من الهلع والجزع ، وأَكِلُ رجالا إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير » (٣) ، مع أن أخذ ذلك المال مكروه لهم ، فهذه أيضا مثل هذه الحاجات .

وأما المشروع الذى وردت به سنته فهو دعاء المسلم ربه ، متوسلا به ، لا دعاؤه (٤) فى مماته ومغيبه ، وهو أن يفعل (٥) كما فى الحديث الذى رواه الترمذى وصححه أن النبى ﷺ علَّم رجلا أن يقول : « اللهم إنى أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد ، نبى الرحمة ، يا محمد يا نبى الله : إنى أتوسل بك إلى ربى فى حاجتى

---

(١) فى الأصل كأنها : فإن لم يسعف مثل هذا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : لأتلف (بدون نقط) ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته . ولفظ الحديث : إنى لأعطى ...

(٣) الحديث عن عمرو بن تغلب رضى الله عنه ونصه فى البخارى : « ..... حدثنا عمرو بن تغلب أن رسول الله ﷺ أتى بمال أو سبى فقسمه فأعطى رجالا وترك رجالا ، فبلغه أن الذين ترك عتبوا ، فحمد الله ثم أثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد فوالله إنى لأعطى الرجل وأدع الرجل ، والذى أدع أحب إلىّ من الذى أعطى ، ولكن أعطى أقواما لما رأى فى قلوبهم من الجزع والهلع ، وأَكِلُ أقواما إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير ، فيهم عمرو بن تغلب » فوالله ما أحب أن لى بكلمة رسول الله ﷺ حُمْرَ النَّعَمِ » .

والحديث فى : البخارى ٢/١٠ - ١١ (كتاب الجمعة ، باب من قال فى الخطبة بعد الثناء : أما بعد) ، ٩/١٥٦ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : إن الإنسان خلق هلوعا .....) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٥/٦٩ .

(٤) فى الأصل : لا دعاه .

(٥) فى الأصل بعد عبارة « أن يفعل » كَرر الناسخ عبارة : « ولا دعاه فى مماته ومغيبه » .

ليقضيها ، اللهم شفّعه فىّ » (١) . وذلك أن الله يقول : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٥] وقال تعالى : ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِىٍّ وَلاَ شَفِيعٍ ﴾ [سورة السجدة : ٤] ، ثم قال تعالى : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [سورة النساء : ٦٥] .

فأقسم بنفسه على أنه نفى إيمان من لم يجمع أمرين : تحكيمه فيما شجر بينهم ، ثم أن لا يجد فى نفسه حرجا . وهذا يوجب أنه ليس فى أمره ونهيه ما يوجب الحرج لمن امتثل ذلك ، فإن حكمه لابد فيه من أمر ونهى ، وإن كان فيه إباحة أيضا ، فلو كان المأمور به والمنهى عنه مضرة للعبد ومفسدة ، وألما بلا لذة راجحة ، لم يكن العبد ملوما على وجود الحرج فيما هو مضرة له ومفسدة .

على المؤمن أن يحب ما أحب الله ويبغض ما أبغضه الله ويرضى بما قدّره الله

ولهذا لم يتنازع العلماء أن الرضا بما أمر الله به ورسوله واجب محبب ، لا يجوز كراهة ذلك وسخطه ، وأن محبة ذلك واجبة ، بحيث يبغض ما أبغضه الله ،

---

(١) الحديث عن عثمان بن حُنَيْف رضى الله عنه فى : سنن ابن ماجة ٤٤١/١ - ٤٤٢ (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب ما جاء فى صلاة الحاجة) ونص الحديث : عن عثمان بن حنيف أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال : ادع الله لى أن يعافينى . فقال : « إن شئت أخرت لك وهو خير ، وإن شئت دعوت » . فقال : ادعه . فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ، ويصلى ركعتين ، ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بمحمد نبى الرحمة ، يا محمد إنى قد توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتُقضى . اللهم فشفّعه فِيَّ » . وقال ابن ماجة : « قال أبو إسحاق : هذا حديث صحيح » . وذكر الحديث الترمذى فى سننه (تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى للمباركفورى ، تحقيق محمد عبد الرحمن عثمان ، ط . المدينة المنورة) ٣٢/١٠ - ٣٣ . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبى جعفر ، وهو غير الخطمى » . وقال المباركفورى فى شرحه : « وأخرجه النسائى وزاد فى آخره : فرجع وقد كشف الله عن بصره . وأخرجه أيضا ابن ماجة وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين ، وزاد فيه : فدعا بهذا الدعاء ، فقام وقد أبصر . وأخرجه الطبرانى ...... » .

ويسخط ما أسخطه الله من المحظور ، ويحب ما أحبه ، ويرضى ما رضيه الله من المأمور .

وإنما تنازعوا فى الرضا بما يقدِّره الحق من الألم بالمرض والفقر . فقيل : هو واجب ، وقيل هو مستحب وهو أرجح . والقولان فى أصحاب الإمام أحمد وغيرهم . وأما الصبر على ذلك فلا نزاع أنه واجب .

وقد قال تعالى فى الأول : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٥٨ ، ٥٩] .

فجعل من المنافقين من سخط فيما منعه الله إياه ورسوله ، وحضهم (١) بأن يرضوا بما آتاهم الله ورسوله . والذى آتاه الله ورسوله يتناول ما أباحه دون ما حظره ، / ويدخل [فى] (٢) المباح العام ما أوجبه وما أحبه . ص ١٩٤

وإذا كان الصبر على الضراء ونحو ذلك مما أوجبه الله وأحبه ، كما أوجب الشكر على النعماء وأحبه ، كان كل من الصبر والشكر مما يجب محبته وعمله (٣) . فيكون ما قُدِّر للمؤمن من سرَّاء معها شكر وضراء معها صبر خيراً له ، كما قال النبى ﷺ : « لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، أن أصابته سراء فشكر كان خيرا له ، وإن أصابته ضراء فصبر كان

---

(١) فى الأصل : وخصهم ، وهو تحريف .

(٢) زدت « فى » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : وعلمه .

خيرا له » (١) . وإذا كان خيرا فالخير هو المنفعة والمصلحة الذى فيه النعيم واللذة كما تقدم .

فيكون كل مقدور قُدِّر للعبد إذا عمل فيه بطاعة الله ورسوله خيرا له ، وإنما يكون شرا له لمن عمل بمعصية (٢) الله ورسوله ، ومثل ذلك فهو – بحسبه (٣) ونيته – بلاء (٤) قد يعمل فيه بطاعة الله ، وقد يعمل فيه بمعصية الله ، فلا يوصف بواحد (٥) من الأمرين .

فصل

جميع الحركات ناشئة عن الإرادة والاختيار

وإذا كان كل حركة فى الوجود فلا تخلو من أن تكون إرادية أو طبعية أو قسرية ، وتبين أن الطبعية والقسرية فرع (٦) وتبع للإرادية – فثبت أن جميع الحركات ناشئة عن الإرادة والاختيار ، وذلك يبطل أن يضاف خلق شىء من المخلوقات إلى الطبع الذى فى الأجسام ، مثل (٧) أن يكون الخالق للأجنة فى الأرحام هو طبع ، أو الخالق (٨) للنبات هو طبع ، لأن الطبع لا يكون مبدءاً لحركة

---

(١) مضى الحديث من قبل فى هذه المجموعة قبل صفحات (ص : ٥٤) .

(٢) فى الأصل : معصية .

(٣) فى الأصل : يحبه .

(٤) فى الأصل : وبلاء .

(٥) فى الأصل : بأحد .

(٦) فى الأصل : نوع ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٧) فى الأصل : قبل ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٨) فى الأصل : أو خالق .

[الجسم] (١) وانتقال أصله ، إلا إذا أُخرج عن طبعه بغير طبعه ، كما يُجمع بين الأجسام بالمزج والخلط ، فتنتقل عن مراكزها ومحالها المخالف لمقتضى طبعها (٢) ، وعند التحقيق يعود الطبع إلى أنه ليس فيها سبب للحركة عن حالها وسكونها ، فيكون الطبع بمنزلة السكون وعدم الحركة ، أو أمراً (٣) وجوديا منافيا للحركة ، فالحركة الواردة عليها مخالفة له (٤) ، والطبع جمود (٥) ، وهى [تنتقل] (٦) عن إرادة وحركة ، فعلم بطلان إصابة شيء من الحوادث العرضية (٧) عن مجرد الطبع الذى فى الموات ، فكيف بالحوادث الجوهرية ؟!

والإرادة والاختيار مستلزمة للحياة والعلم ، كما أن الحياة أيضا مستلزمة للعلم وللإرادة ، بل وللإرادة والحركة ، كما قرر ذلك عثمان بن سعيد (٨) وغيره من أئمة السنة .

---

(١) زدت كلمة « الجسم » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : فينقل عن مراكها ومحالها المخالف ليقضى طبعها ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : أو أمر ، وهو خطأ .

(٤) أى للطبع .

(٥) فى الأصل الكلمة غير واضحة ، وكأنها : جسمه ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) زدت كلمة « تنتقل » ليستقيم الكلام .

(٧) فى الأصل : الفرضية ، وهو تحريف .

(٨) يقول ابن تيمية فى كتاب « الاستقامة » ١/٧٠ ، ٧١ (ط . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بتحقيقى ، الرياض ، ١٤٠٣ / ١٩٨٣) : « وكذلك لفظ الحركة أثبته طوائف من أهل السنة والحديث ، وهو الذى ذكره حرب بن إسماعيل الكرمانى فى السنة التى حكاها عن الشيوخ الذين أدركهم ..... وكذلك هو الذى ذكره عثمان بن سعيد الدارمى فى نقضه على بشر المريسى ، وذكر =

وكما أن الحركة مستلزمة للإرادة والحياة ، فالحياة أيضا مستلزمة للحركة والإرادة ، ولهذا كان أعظم آية فى القرآن : ﴿ اللّهُ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٥] . فالاسم الحىّ مستلزم لصفاته وأفعاله ، وهو من أعظم / البراهين العقلية على ثبوت صفات الكمال ، والمصحح لها ، والمستلزم ثبوتها ونفى نقيضها ، كالعلم والكلام والسمع والبصر وغير ذلك ، كما هو مبين فى موضعه .

ظ ١٩٤

فصل

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِى أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ . وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَـٰؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ

= أن ذلك مذهب أهل السنة » ويقول الدارمى فى كتابه « رد الإمام الدارمى عثمان بن سعيد على بشر المريسى العنيد » ص ١٩ ، بتحقيق محمد حامد الفقى ، ط . أنصار السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٣٥٨ : « وأما دعواك : أن تفسير « القيوم » الذى لا يزول عن مكانه فلا يتحرك . فلا يقبل مثل هذا التفسير إلا بأثر صحيح ، مأثور عن رسول الله ﷺ ، أو عن بعض أصحابه أو التابعين . لأن الحى القيوم يفعل ما يشاء ، ويتحرك إذا شاء ، وينزل ويرتفع إذا شاء ؛ ويقبض ويبسط ، ويقوم ويجلس إذا شاء ، لأن أمارة ما بين الحى والميت التحرك . كل حى متحرك لا محالة ، وكل ميت غير متحرك لا محالة » .

يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۔ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٥١ – ٥٦] .

أصل الموالاة الحب وأصل المعاداة البغض

وأصل الموالاة هى المحبة ، كما أن أصل المعاداة البغض ، فإن التحاب يوجب التقارب والاتفاق . والتباغض يوجب التباعد والاختلاف ، وقد قيل : المولى من الوَلْى : وهو القرب ، وهذا يلى هذا ، أى هو يقرب منه (١) .

والعَدُوُّ من العُدَواء وهو البعد (٢) ، ومنه العُدْوَة (٣) . والشىء إذا ولى الشىء ودنا منه وقرب إليه اتصل به ، كما أنه إذا عُدِّى عنه ، ونأى عنه ، وبعد منه ، كان ماضيا عنه (٤) .

فأولياء الله ضد أعدائه ، يقرِّبهم منه ويدنيهم إليه ، ويتولاهم ويتولونه ، ويحبهم ويرحمهم ، ويكون عليهم منه صلاة ، وأعداؤه (٥) يبعدهم ويلعنهم ، وهو إبعاد منه ومن رحمته ، ويبغضهم ويغضب عليهم ، وهذا شأن المتوالين والمتعادين (٦) . فالصلاة ضد اللعنة ، والرحمة والرضوان ضد الغضب ، والسخط والعذاب ضد النعيم .

ص ١٩٥

قال تعالى فى حق الصابرين : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٥٧](٧) .

---

(١) فى « لسان العرب » : « والوَلْىُ : القرب والدنو .... ويقال : تباعدنا بعد وَلْىٍ ، ويقال منه . وَلِيَه يَلِيه ، بالكسر فيهما ، وهو شاذ ..... وكل مما يليك : أى مما يقاربك » .

(٢) فى الأصل : وهو البعد منه ، والظاهر أن « منه » زيادة من الناسخ . وفى اللسان « العُدَواء : بعد الدار ، والعَدَاء البعد » وفيه أيضا : وطالت عُدَواؤهم أى تباعدهم وتفرقهم » .

(٣) فى اللسان : « العُدْوة : المكان المتباعد » وهى عدوة الوادى .

(٤) فى اللسان : « العِدَى : التباعد . وقوم عِدًى إذا كانوا متباعدين لا أرحام بينهم ولا حلف . وقومٌ عِدًى إذا كانوا حربا .... والعَدُوُّ : ضد الصديق ..... قال الجوهرى : العَدُوُّ ضد الوَلِىِّ » .

(٥) فى الأصل : وأعدائه ، وهو خطأ .

(٦) فى الأصل : المتواليين والمتعاديين .

(٧) فى أعلى ص ١٩٥ من الأصل إلى اليسار كتب « السادس » .

وقال تعالى فى حق المنافقين : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ [سورة الفتح : ٦] .

وقال تعالى فى حق المجاهدين : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ [سورة التوبة : ٢١]

وقال تعالى فى قاتل المؤمن متعمدا : ﴿ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ [سورة النساء : ٩٣] .

والمتلاعنان يقول الرجل فى الخامسة : ﴿ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [سورة النور : ٧] وذلك يكون قاذفا . وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة النور : ٢٣] ، وتقول المرأة فى الخامسة : ﴿ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [سورة النور : ٩] ، لأنه إذا كان صادقا كانت زانية فاستحقت الغضب الذى هو ضد الرحمة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [سورة النور : ٢] ، فنهى عن الرأفة بهما فى دين الله .

والمؤمن يغار ، والله يغار ، وغيرة الله أعظم ، كما قد استفاض عن النبى ﷺ فى الصحيح من غير وجه أنه قال : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » (١) .

---

(١) الحديث – مع اختلاف يسير فى الألفاظ – عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : البخارى ٥٧/٦ (كتاب التفسير ، تفسير سورة الأنعام ، باب ولا تقربوا الفواحش) ، ٣٥/٧ (كتاب النكاح ، باب الغيرة) ، ١٢٠/٩ (كتاب التوحيد ، باب قوله الله تعالى : ويحذركم الله نفسه) ، ١٢٣/٩ =

وفى بعض [١] الأحاديث الصحاح : « لا أحد أَغْيَر من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته » [٢] وفى بعضها « إن الله يغار ، وغَيْرته أن يأتى العبد ما حرَّم عليه » [٣] .

والغَيْرة فيها من البغض والغضب ما يدفع به [الإنسان] [٤] ما غار منه ، فالزنا وإن كان صادرا عن الشهوة والمحبة منهما ، أو من أحدهما ، فإن ذلك مقابل [بضرورة التنزّه عن الفواحش ، والتورع عن المحرمات] [٥] . فأمر الله أن

= (كتاب التوحيد ، باب لا شخص أغير من الله) ؛ مسلم ٢١١٣/٤ – ٢١١٤ (كتاب التوبة ، باب غيرة الله تعالى .....) ؛ سنن الترمذى ٢٠٠/٥ – ٢٠١ (كتاب الدعوات ، باب حدثنا محمد بن بشار) ؛ المسند (ط . المعارف) ٢١٩/٥ – ٢٢٠ ، ٥٦/٦ – ٥٧ ، ٥٩ ؛ سنن الدارمى ١٤٩/٢ (كتاب النكاح ، باب فى الغيرة) .

(١) فى الأصل : وبعض .

(٢) الحديث عن عائشة رضى الله عنها فى : البخارى ٣٥/٧ (كتاب النكاح ، باب الغيرة) ولفظه فيه : « يا أمة محمد ما أحد أغير من الله أن يرى عبده أو أمته يزنى . يا أمة محمد ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » . وجاء الحديث عنها رضى الله عنها مطولا وأوله : خسفت الشمس فى عهد رسول الله .... الحديث ومنه : فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ..... ثم قال : يا أمة محمد والله ما من أحد أغير .... الحديث ، وهو مع اختلاف يسير فى الألفاظ فى : البخارى ٣٤/٢ (كتاب الكسوف ، باب الصدقة فى الكسوف) ؛ مسلم ٦١٨/٢ (كتاب الكسوف ، باب صلاة الكسوف) ؛ سنن النسائى ١٠٨/٣ (كتاب الكسوف ، باب نوع آخر منه (من صلاة الكسوف) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٦٤/٦ .

(٣) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٣٥/٧ (كتاب النكاح ، باب الغيرة) ؛ مسلم ٢١١٤/٤ (كتاب التوبة ، باب غيرة الله تعالى ، وتحريم الفواحش) ؛ سنن الترمذى ٤١٧/٢ (كتاب الرضاع ، باب ما جاء فى الغيرة) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣٤٣/٢ ، ٥٣٩ .

(٤) زدت كلمة « الإنسان » لتستقيم العبارة .

(٥) فى الأصل : مقابل بصدق . ولعل ما أثبته من كلام زدته بين المعقوفتين تستقيم به العبارة .

لا تأخذنا (١) بهما رأفة فى دين الله ، فنهانا عن أن تكون (٢) منا رأفة تدفع العذاب عنهما ، فضلا عن أن يكون محبة لذلك الفعل . ولهذا أخبرنا به بأنه لا يحب ذلك أصلا ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٨] ، وما لا يأمر به لا أمر إيجاب ولا أمر استحباب لا يحبه ، قال لوط عليه السلام : ﴿ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ١٦٨] والقِلى : بغضه وهجره (٣) ، والأنبياء أولياء الله ، / يحبون ما يحب الله ويبغضون ما يبغض .

ظ ١٩٥

وربما قيل : القلى أشد البغض ، فالله سبحانه يبغض ذلك ، وهو سبحانه يبغض كل ما نهى عنه ، كما أنه يحب كل ما أمر به . بل الغَيْرة مستلزمة لقوة البغض ، إذ كل من يغار يبغض ما غار منه ، وليس كل من يبغض شيئا يغار منه ، فالغيرة أخص وأقوى .

ولا ريب أن المرأة المزوَّجة الزانية استحقت الغضب لشيئين : لأجل ما فى الزنا من التحريم . ولأنها (٤) اعتدت فيه على الزوج فأفسدت فراشه . ولهذا كان للزوج (٥) إذا قذف امرأته ولم يأت بأربعة شهداء : أن (٦) يلاعنها ، لما له فى ذلك من ا لحق ، ولأنه مظلوم إذا كان صادقا ، وعليه فى زناها من الضرر ما يحتاج إلى

---

(١) فى الأصل : يأخذنا .

(٢) فى الأصل : يكون .

(٣) أى بغض العمل وهجره .

(٤) فى الأصل : ولهذا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) فى الأصل : الزوج ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) فى الأصل : أى . ولعل الصواب ما أثبته .

دفعه بما شرعه الله ، كالمقذوف الذى له أن يستوفى حد القذف من القاذف الذى ظلمه فى عرضه ، فكذلك الزوج له أن يستوفى حد الفاحشة من البغى الظالمة له ، المعتدية عليه . كما قال النبى ﷺ فى حق الرجل على امرأته « وأن لا يوطئن فرشكم من تكرهونه » (١) ، فلهذا كان له أن يقذفها ابتداءً ، [وقذفها] (٢) إما مباح له وإما واجب عليه إذا احتاج إليه لنفى النسب ، ويضطرها بذلك إلى أحد أمرين : إما أن تعترف (٣) فيقام عليها الحد ، فيكون قد استوفى حقه ، وتطهرت هى أيضا من الجزاء لها والنكال [فى الآخرة] (٤) بما (٥) حصل ، وإما أن تبوء بغضب الله عليها وعقابه فى الآخرة الذى هو أعظم من عقاب الدنيا ، فإن الزوج مظلوم معها ، والمظلوم له استيفاء حقه إما فى الدنيا وإما فى الآخرة (٦) ، قال الله تعالى :

---

(١) فى الأصل : من يكرهونه ، وهذه العبارة جزء من حديث جاء عن عمرو بن الأحوص رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٢/٤١٥ (كتاب الرضاع ، باب ما جاء فى حق المرأة على زوجها) وأوله : عن سليمان بن عمرو بن الأحوص قال حدثنى أبى أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ ...... فذكر فى الحديث قصة فقال : « ألا واستوصوا بالنساء خيرا ..... فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون ..... الحديث وقال عنه الترمذى :« هذا حديث حسن صحيح » ، وهو فى : سنن ابن ماجة ١/٥٩٤ (كتاب النكاح ، باب حق المرأة على الزوج) . وجاءت هذه العبارة أيضا ضمن حديث مطول عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ورد فى كتب السنن ، وهو فى : سنن ابن ماجة ٢/١٠٢٢ - ١٠٢٧ (كتاب المناسك ، باب حجة رسول الله ﷺ) ؛ سنن الدارمى ٢/٤٤ - ٤٩ (كتاب المناسك ، باب فى سنة الحاج) كما جاءت نفس العبارة فى حديث ثالث عن أبى حرة الرقاشى عن عمه رضى الله عنه فى المسند (ط . الحلبى) ٥/٧٢ - ٧٣ .

(٢) زدت « وقذفها » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : يعترف .

(٤) زدت عبارة « فى الآخرة » ليستقيم الكلام .

(٥) فى الأصل : ما .

(٦) بعد كلمة الآخرة توجد فى الأصل عبارة « بخلاف الزوج » وهى عبارة مقحمة وبحذفها يستقيم الكلام .

﴿ لاَ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إلاَّ مَن ظُلِمَ ﴾ [سورة النساء : ١٤٨] [بخلاف غير الزوج] [1] فإنه ليس له حق الافتراش ، فليس له قذفها ، ولا أن يلاعن إذا قذفها ، لأنه غير محتاج إلى ذلك [مثل] [2] الزوج ، ولا هو مظلوم فى فراشها ، لكن يحصل بالفاحشة من ظلم غير الزوج ما لا يحتاج إلى اللعان ، فإن فى الفاحشة إلحاق عار بالأهل ، والعار يحصل بمقدمات الفاحشة .

فإذا لم تكن الفاحشة معلومة بإقرار ولا بيِّنة كان عقوبة ما ظهر منها كافيا فى استيفاء الحق ، مثل الخلوة والنظر ونحو ذلك من الأسباب التى نهى الله عنها ، وهذا من محاسن الشريعة .

وكذلك كثيرا ما يقترن بالفواحش من ظلم غير الزانيين ، فإنه إذا حصل بينهما محبة ومودة فاحشة كان ذلك موجبا لتعاونهما على أغراضهما ، فيبقى [3] كل منهما يعين الآخر على أغراضه التى يكون [4] فيها ظلم الناس ، فيحصل العدوان والظلم للناس بسبب اشتراكهما / فى القبيح ، وتعاونهما [5] بذلك على الظلم ، كما جرت العادة فى البَغِيِّ من النساء والصبيان أن خدنه أو المسافح به يحصل له منه من الإكرام والعطاء والنصر والمعاونة ما يوجب استطالة ذلك الفاجر بترك حقوق الخلق والعدوان عليهم .

ص ١٩٦

---

(١) زدت عبارة « بخلاف غير الزوج » ليستقيم الكلام ، والمقصود غير الزوج من أهل الزوجة أو أهل الزوج مثلا .

(٢) زدت كلمة « مثل » لتستقيم العبارة .

(٣) فى الأصل : بقى .

(٤) فى الأصل : تكون .

(٥) فى الأصل : ويعاونهما .

وأيضا [فإن] محبته له قد تحمل [١] الطالب الراغب على أخذ أموال الناس بغير حق ليعطيه ذلك [٢] ، وتحمله أيضا على ترك حقوق الناس وقطيعة رحمه [٣] لأجل ذلك الشخص ، فإنه لا يمكن الجمع بين الأمرين . ويحمله أيضا على الانتصار له بالعدوان .

ففى الجملة المحبة توجب موافقة المحب للمحبوب . فإذا كانت المحبة فاسدة لا يحبها الله ولا يرضاها ، إذا لم يتعد ضررها للاثنين ، تكون العقوبة لهما حقا لله ، لكن هى فى الغالب ، بل فى اللازم ، يتعدى ضررها إلى الناس ؛ فإن كل واحد من الشخصين عليه حقوق للناس ، وهو يُنهى عن العدوان عليهم ، فإذا تحابا وتعاونا لم يتمكن كل منهما من القيام بحقوق الناس ، واحتاج إلى أن يعتدى عليهم .

ولا ينبغى للإنسان أن يعتبر بظاهر ما يُقال : إن الإنسان إذا فعل فاحشة فإن الإثم عليه خاصة ، وليس ذلك بظلم للغير [٤] ، فإن ذلك إنما هو فى الفاحشة المحضة ، مثل الزنا المحض [٥] ، الذى لم يتعلق به حق الغير ، فأما زنا الزوجة ففيه ظلم بالاتفاق كما بيناه .

وكذلك المحبة والعشق الفاسد ؛ فإن هذا أعظم ضررا من الزنا مرة واحدة ،

---

(١) فى الأصل : أيضا محبته له قد يحمل ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : ليطيعه ذلك ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : ويطيعه رجمه ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : الغير . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) فى الأصل : المختص ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

فإن الرجل إذا زنا مرة أو مرتين حصل غرضه ، وكذلك المرأة ، ثم إنه قد يكون بِعِوَضٍ [١] من أحدهما للآخر وقد لا يكون ، فربما كان فيه ظلم للغير .

وأما المحبة والعشق ، فإن ذلك مستلزم للعدوان على غيرهما فى العادة ، فإن المحبة توجب أن يُعْطَى المحبوب من المنافع والأموال ما يوجب حرمان الغير والعدوان عليه ، ويوجب من الانتصار للمحبوب والدفع عنه ما فيه أيضا ترك حق الغير والعدوان عليه . ألا ترى أن الرجل إذا أحب غير امرأته ، أو المرأة [إذا] [٢] أحبت غير زوجها ، قصَّر كل منهما فى حقوق الآخر واعتدى عليه . بل إذا أحب الرجل امرأةً أو صبيا قصَّر فى حقوق أهله وأصدقائه ممن [٣] له عليه حق ، بل وظلمهم أيضا ، كما يظلم غيرهم لأجله ؟! وهذا سوى ما فى ذلك من حق الله الذى يوجب غليظ عقابه . وإن كان الرجل العاقل قد يقوم / من الحقوق بما يمكن ، ويدع الظلم بحسب الإمكان ، إلا أن هذا مظنة وسبب لذلك ، وهذا مما يوجب تحيّر الرجل وتردده وتلومه إلى الحق تارة وإلى الباطل أخرى ، وهذا مرض عظيم ، كما ذكر الله تعالى ذلك فى قوله : ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٢] . وأما ما فى ذلك من ظلم كل منهما لنفسه ولخدنه فذاك ظاهر ، لكنهما [٤] ظلما أنفسهما ، فهما الظالمان المظلومان . وأما الغير فظلماه بغير رضاه ولا اختياره .

ظ ١٩٦

وكذلك ما تفضى إليه هذه المحبة الباطلة من ظلم كل منهما للآخر ، إما بقتله ، وإما بتعذيبه بغير الحق ، وإما منعه من الاتصال بالناس ، وفعل ما يختار

---

(١) فى الأصل : ثم إنه كان يعوض . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) زدت « إذا » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : من .

(٤) فى الأصل : ممكنهما .

من مصلحة وغيرها . ففيها هذه المفاسد كلها وأكبر منها ، لكن ذلك ظلم منهما لأنفسهما مبدؤه [١] المحبة الفاسدة .

ولهذا أمر سبحانه أن لا تأخذنا [٢] بهما رأفة فى دين الله ، فإن الرأفة والرحمة توجب أن توصِّل للمرحوم [٣] ما ينفعه ، وتدفع عنه ما يضره ، وإذا رأف بهما أحد [٤] لأجل ما [فى] [٥] قلوبهما من الشهوة والمحبة وغير ذلك ، وترك عذابهما [٦] ، كان ذلك جالبا لما يضرهما ودافعا لما ينفعهما ، فإن ذلك مرض فى قلوبهما . والمريض [٧] الذى يشتهى ما يضره ليس دواؤه [٨] إعطاءه [٩] المشتهى الضار ، بل دواؤه [١٠] الحِمْيَة وإن آلمته ، وإعطاؤه [١١] ما ينفعه ، وتعويضه عن ذلك الضار بما أُمر مما لا يضر .

فهكذا أهل الشهوات الفاسدة ، وإن أضرمت قلوبهم نار الشهوة ليس رحمتهم والرأفة بهم تمكينهم [١٢] من ذلك ، أو ترك عذابهم ، فإن ذلك يزيد

---

(١) فى الأصل : مبدأه .

(٢) فى الأصل : يأخذ .

(٣) فى الأصل : المرحوم .

(٤) فى الأصل : دب ، وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) زدت « فى » ليستقيم الكلام .

(٦) فى الأصل : عذابها .

(٧) فى الأصل : والمرض . ولعل الصواب ما أثبته .

(٨) فى الأصل : دواه .

(٩) فى الأصل : أعطاه .

(١٠) فى الأصل : دواه .

(١١) فى الأصل : وأعطاه .

(١٢) فى الأصل : تمكنهم .

بلاءهم [(١)] وعذابهم ، والحرارة التى فى قلوبهم مثل حرارة المحموم ، متى مُكِّن المحموم مما يضره ازداد مرضه ، أو انتقل إلى مرض شر منه .

فهذه حال أهل الشهوات ، بل تُدفع تلك الشهوة الحلوة بضدها ، والمنع من موجباتها ، ومقابلتها بالضد من العذاب المؤلم ونحوه الذى [(٢)] يخرج المحبة من القلب كما قيل :

فإنى رأيت الحب فى القلب والأذى إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

فإذا كان يحصل بالمحبة ونيل الشهوة أمر مما يزيد ألمه على لذتها انكفّت النفس . وكذلك إذا حصل بدله أمر لذيذ أطيب منه اغتاظت النفس . فاللذيذ يُترك لما يرجح عليه من لذيذ وأليم ، كما أن الأليم محتمل لما يرجح عليه من لذيذ وأليم . وإذا تكافئا تقابلا ، فلم يغلب أحدهما الآخر ، بل تبقى الأمور على ما هو عليه إذا استوت الدواعى والصوارف ، / واحتمال الأليم وفوت اللذيذ وإن كان فيه مرارة ، فذلك يُدفع به ما هو أمر منه ، ويُجلب به ما هو أرجح منه من الحلو . ص ١٩٧

ولكن هذا من محبة بنى آدم وفتنتهم التى لابد منها ، وهى مخالفة الأهواء ، فلا تقوم مصلحة أحد من بنى آدم بدون ذلك أبدا ، لا مصلحة دنياه ولا مصلحة دينه ، كما قال إبراهيم الحربى [(٣)] : « أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم ، ولابد من الصبر فى جميع الأمور ، قال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ • إِنَّ

---

(١) فى الأصل : بلادهم ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : التى .

(٣) أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن بشير بن عبد الله البغدادى الحربى ، من أعلام المحدثين ومن الزهاد ، ولد سنة ١٩٨ وتوفى سنة ٢٢٥ . انظر ترجمته وأقواله فى : طبقات الحنابلة ١/٨٦ – ٩٣ ؛ تاريخ بغداد ٦/٢٧ – ٤٠ ؛ صفة الصفوة ٢/٢٢٨ – ٢٣٢ ؛ الأعلام ١/٢٤ – ٢٥ .

الإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [سورة العصر : ١ – ٣] » .

فلابد من التواصى بالحق والصبر ، إذ أهل الفساد والباطل لا يقوم باطلهم إلا بصبر عليه أيضا ، لكن المؤمنون يتواصون بالحق والصبر ، وأولئك يتواصون (١) بالصبر على باطلهم ، كما قال قائلهم (٢) : ﴿ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ [سورة ص : ٦] .

فالتواصى بالحق بدون الصبر ، كما يفعله الذين يقولون آمنا بالله فإذا أُوذِى أحدهم فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، والذين يعبدون الله على حرف ، فإن أصاب أحدهم خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة .

والتواصى بالصبر بدون الحق ، كقول الذين قالوا : أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، كلاهما موجب للخسران . / وإنما نجا (٣) من الخسران الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، وهذا موجود فى كل من خرج عن هؤلاء من أهل الشهوات الفاسدة ، وأهل الشبهات الفاسدة ، أهل الفجور ، وأهل البدع . ظ ١٩٧

وما ذكرناه من أن المحبة الفاسدة توجب ظلم المتحابَّيْن (٤) لأنفسهما

---

(١) فى الأصل : يتواصو .

(٢) فى الأصل : كما قال تعالى قاتلهم ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل نجوا .

(٤) فى الأصل : المعانين . وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبته .

ولغيرهما موجود فى كل محبة يبغضها الله ، كمحبة الأنداد والشركاء من دونه ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] وقال تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [سورة البقرة : ٩٣] وكمحبة أهل الشهوات لجنس [١] الفواحش ، ومحبة أهل الظلم ، والقائلين على الله ما لا يعلمون ، فإن المحبة توجب تعاون المتحابّين واتفاقهما ، فلابد أن يبغضا ويعاديا [٢] من يبغض ذلك منهما ويخالفهم فيه .

ومعلوم أن كل مؤمن فإنه يبغض ما يبغضه الله ، ويحب ما يحبه الله ؛ فلابد أن يكون التحاب الذى يبغضه الله موجباً لنوع بُغض المؤمنين بحسبه .

فصل

تقسيم العلم إلى فعلى وانفعالى

قد كتبت فى غير هذا الموضع أن الناس وإن تنازعوا فى العلم : هل هو صفة انفعالية تابعة للمعلوم ، كما قد يطلقه كثير من أهل الكلام ؟ أو هو صفة فعلية مؤثِّرة فى المعلوم ، كما يقوله طوائف من المتفلسفة ؟

فإن الصواب أنه ينقسم إلى النوعين جميعا . فمنه ما هو تابع للمعلوم غير مؤثر فيه بحال ، وهو العلم النظرى القولى الخبرى المحض ، كعلمنا بما لا تأثير لنا فى وجوده ، كالعلم بالخالق سبحانه وتعالى وملائكته وكتبه وأنبيائه وسائر مخلوقاته .

ومنه ما هو فعلى [٣] له تأثير فى المعلوم ، كعلمنا بأفعالنا الاختيارية [٤] وما يترتب عليها / من حصول منفعة ودفع مضرة .

ص ١٩٨

(١) فى الأصل : فى جنس ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : وتعاونا ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : فعل .

(٤) فى الأصل : الاختياره .

وهذا التقسيم ثابت فى علم الله تعالى ، فإنه يعلم نفسه ويعلم مخلوقاته أيضا . والأول علم بموجود ، والثانى علم بمقصود .

لكن العلم بالموجود المستغنى عن أفعالنا يتبع العلم به حبه تارة وبغضه أخرى ، فيكون العلم به سببا لأفعال لنا متعلقة به ، فيكون هذا العلم الانفعالى فعليا مؤثرا من هذا الوجه ، وعلمنا بالحسنات والسيئات التى فى أفعال غيرنا من هذا الوجه .

علم الرب بأفعال عباده الصالحة والسيئة يستلزم حبه للحسنات وبغضه للسيئات

وعلم الرب سبحانه بأفعال عباده الصالحة والسيئة مستلزم أيضا حبه للحسنات وبغضه للسيئات . والعلم بالمقصود من أفعالنا ، وإن كان مؤثرا فى المعلوم ، وهو سبب فى حصوله ، فلا يكون إلا بعد علم بأمور موجودة أوجب قصدا أو اختيارا [١] لتلك الأفعال ، فإن الفعل الاختيارى يتبع الإرادة ، والإرادة تتبع المراد ، فلابد أن يتصور الفاعل المراد قبل قصد الفعل الذى هو سبب إليه ، كما يقال : آخر الفكرة أول العمل [٢] ، وتسمى العلة الغائية . [فلابد من تصور] ذلك المراد [٣] ، وأن يكون ما يترتب على الفعل من لذة تجلب منفعة وتدفع [٤] مضرة ، فاللذة مشروطة بالإحساس باللذيذ ، والإنسان لا يفعل ابتداءً لطلب لذيذ إلا أن يكون قد أحسَّه قبل ذلك فأحبه واشتهاه واشتاق إليه ، وذلك علم بأمر موجود تابع للمعلوم ، تبعه علم بأمر مقصود تابع للعلم . وإن كانت اللذة

---

(١) فى الأصل : أو إخبارا ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : أول الفكر آخر العمل ، وهو خطأ ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : ..... الغائية وذلك المراد . ووجدت أن العبارة غير مستقيمة ، ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٤) فى الأصل : ودفع .

قد تحصل ابتداءً لا عن شوق ، كمن يذوق الشيء الطيب الذى لم يكن يعرفه فيحبه بعد ذلك ، لكن هذا لم يتقدم منه طلب وفعل فى حصول هذا المحبوب ، بخلاف من ذاقه ابتداءً فأحبه ، ثم سعى فى تحصيل نظائر ما حصل له ابتداءً .

فقد تبين أن كلاًّ من العلمين : الفعلى والانفعالى مستلزم للآخر ، وكذلك علم الرب سبحانه / وتعالى بنفسه مستلزم لعلمه بصفاته وأفعاله ومفعولاته ، وهو سبحانه يحمد نفسه ويثنى عليها ، فلا نحصى ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وعلمه [١] بأفعاله ومفعولاته مستلزم لعلمه بنفسه ، وعلمه بالمخلوقات وأفعالها يتبعه حبه وبغضه ، وأمره ونهيه ، وعلمه بما يفعله بعباده من ثواب وعقاب وغير ذلك تابع لعلمه بما هى عليه ، وقد تكلمنا على نحو هذا فى غير هذا الموضع .

ظ ١٩٨

وإنما المقصود فى هذا المكان أن هذا التقسيم الوارد فى العلم يرد نحوه فى الإرادة والمحبة ونحو ذلك .

الإرادة والمحبة ينقسمان أيضا إلى فعليتين وانفعاليتين

فإن الإرادة والمحبة تنقسم أيضا إلى فعلية مؤثرة فى المراد المحبوب ، وهى إرادة الفعل وحبه [وإن كان المراد المحبوب تابعا مفعولا معدوما] [٢] ، وقد ظن بعض الناس أن الإرادة والمحبة ليست إلا هذا النوع ، حتى قال : لا تتعلق الإرادة والمحبة إلا بالمعدوم دون الموجود ، وبالمحدَث دون القديم ، وهذا قول طوائف من أهل الكلام . وأكثر هؤلاء هم أكثر القائلين بأن العلم لا يكون إلا انفعاليا [٣] ،

---

(١) فى الأصل : وعلم .

(٢) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : إلا غالبا ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

فيجعلون العلم لا يتعلق فى الحقيقة إلا بمعلوم متبوع كالموجود ، ويجعلون الإرادة لا تتعلق إلا بمراد تابع كالمفعول المعدوم .

وتنقسم إلى انفعالية تابعة للمراد المحبوب ليست مؤثرة فى وجوده أصلا ، بل يكون المحبوب المراد موجودا بدون الإرادة ، وإنما يحب المحب ذلك الموجود ويريده ، ويقال فى كثير من أنواع ذلك : يهواه ويعشقه ، ونحو ذلك من العبارات .

وهذا القسم فى الحقيقة هو الأصل فى القسم الأول ، كما قد تكلمنا عليه فى بعض القواعد المتقدمة من سنين [١] ، وذكرنا أن العلم – والإرادة – إنما يتعلق أولا بالموجود ، وأن تعلقه بالمعدوم تابع لتعلقه بالموجود ، وذكرنا أن الإنسان لا يحب الشيء ويريده حتى يكون له به شعور أو إحساس أو معرفة ونحو ذلك ، ويكون مع ذلك بنفسه إليه ميل [٢] وفيها له حب ، وكل واحد من هاتين الفرقتين فى [٣] فطرته وجبلته المعرفة والمحبة ، ولهذا كان كل / مولود يولد على الفطرة : فطرة الإسلام ، وهى عبادة الله وحده ، وأصل ذلك معرفته ومحبته . والنفس لا تحس العدم [٤] المحض ، وإنما تعرف العدم بنوع من القياس المقدَّر على الوجود ، كما يقدِّر فى نفسه جبل ياقوت وبحر زئبق ، فنزَّل ذلك مما علمه من الجبل ومن الياقوت ، ثم ينفى [٥]

ص ١٩٩

(١) بعد كلمة « السنين » توجد عبارة غير واضحة كأنها « المستلزمة الاعتراف » والكلام يستقيم بدونها .

(٢) فى الأصل : مثل .

(٣) فى الأصل : هو فى .

(٤) فى الأصل : القدم ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : يبقى ، وهو تحريف ، والسياق يدل على صواب ما أثبته .

ذلك المقدَّر فى ذهنه أن يكون موجودا فى الخارج ، وهو لم يحكم على نفيه حتى صار موجودا فى نفسه وجودا تقديريا (١) .

الحب يتبع الإحساس والإحساس يكون بموجود لا بمعدوم

فإذا كان الحب يتبع الإحساس ، والإحساس لا يكون إلا بموجودٍ ما ، [فإن ما] (٢) يُحب لا يكون إلا بموجود . وأيضا فإن الإحساس لا يكون أولا إلا لموجود ، فكذلك الحب فى نفسه لا يكون إلا لموجود أو محبوب (٣) ، وإن كان يحب وجود المعدوم [فهو] (٤) لا شيء ، وما ليس بشيء لا يكون محبوبا ، وإن كان يحب وجود المعدوم ويريده (٥) ، فلابد أن يكون قبل ذلك قد ذاقه والتذ به موجودا حتى أحبه بعد ذلك ، أو ذاق والتذ (٦) بنظيره أو بما (٧) يشبهه كما ذلك فى العلم ، وهذا مذكور فى غير هذا الموضع .

ولا يرد على هذا ما يوجد من بكاء الصبى حين يولد قبل أن يذوق طعم اللبن ، فإذا ذاق اللبن التذ به وسكن ، فإن الصبى قبل ذوقه اللبن لم يكن يحبه ويشتهيه ، ولكن يجد ألم الجوع فيبكى من ذلك الألم . فلما ذاق اللبن ووجد لذته ، وأنه أذهب ألم الجوع أحبه من حينئذ ، ومن حينئذ صار يشتهيه ويحبه . وهكذا كل

---

(١) فى الأصل : تقديرا ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) زدت « فإن ما » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : موجودا ومحبوبا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) زدت « فهو » ليستقيم الكلام .

(٥) فى الأصل : ويراد . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٦) فى الأصل : واليد ، وهو تحريف .

(٧) فى الأصل : أو لما .

من جاع فإنه لا يشتهى شيئا معينا إلا أن يكون ذاقه قبل ذلك ، ولكن يجد طلبا لما يزيل به ألم الجوع ، ولهذا إذا حضر عنده ما قد ذاقه قبل ذلك ، وما لم يذقه قبل ذلك ، اشتاق إلى الأول وأحبه ، وكان شوقه إلى الثانى ومحبته إياه مشروطا بذوقه إياه وسماع وصفه ممن يخبره ، [فإن سماع الوصف] (١) يورث المحبة والشوق كما يورث العلم ، كما قيل :

والأذن تعشق قبل العين أحيانا

لكون النفس ذاقت طعم الحب لما هو من نظير لذلك أو شبيه به ولو من وجه بعيد ، فكما أن الشيء لا يتصور إلا [بعد] الحس به (٢) ، أو بما فيه شبه به من بعض / الوجوه ، فكذلك لا يحب كذلك .

ظ ١٩٩

الأمور الغائبة لا تعرف ولا تحب وتبغض إلا بنوع من القياس والتمثيل

ولهذا ضُربت الأمثال للتعريف والترغيب والترهيب ، فإن الأمور الغائبه عن المشاهدة والإحساس لا تُعرف وتُحب وتبغض إلا بنوع من التمثيل والقياس ، سواء كان الغائب أكمل فى الصفات المطلوبة (٣) المشتركة ، كالموعود به من أمر الجنة والنار ، وكما يصف به الرب نفسه سبحانه وتعالى ، أو ما كان دون ذلك ، كما مثّل من الأمور بما هو أكمل منه .

ومن هنا ضل من ضل من الصابئة المتفلسفة ، ومن أضلوه من أهل الملل ، حيث ظنوا أن ما وصف الله به الجنة والنار إنما هى أمثال مضروبة لتفهيم المعاد الروحانى من غير أن تكون حقائق . وضل من رد عليهم من نفاة أهل الكلام . كما

---

(١) زدت عبارة « فإن سماع الوصف » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : إلا الحسن به . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) كتب فى الأصل فوق كلمة « المطلوبة » : « كذا » .

أصاب الفريقين مثل ذلك فى أمر النفس الناطقة ، حيث تقابلوا [١] بالنفى والإثبات ، وحيث اتفق الفريقان على مثل هذا الضلال فى صفات ذى الجلال ، فخاضوا فى باب الإيمان بالله واليوم الآخر خوضا ليس هذا موضع بسط الكلام فيه ، وإن كان كل ذى مقالة فلابد أن تكون فى مقالته [٢] شبهة من الحق ، ولولا ذلك لما راجت واشتبهت .

وإن كانت الإرادة والمحبة تنقسم إلى متبوعة للمراد تكون له كالسبب الفاعل ، وإلى تابعة للمراد يكون هو لها كالسبب الفاعل ، وتكون [٣] عنه كالمسبب المفعول ، وهذا هو الأصل .

وإذا [٤] عُلم أن جميع حركات العالم صادرة عن محبة وإرادة ، ولا بد للمحبة والإرادة من سبب فاعل يكون هو المحبوب المراد – عُلم بذلك أنه لا بد لجميع الحركات من إلٰه يكون المعبود المقصود المراد المحبوب لها [٥] ، وأنها دالة على الإلٰه الحق من هذا الوجه ، وأنه لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، وهذا غير هذا الوجه الذى دلت منه على ربوبيته . وقد بسطنا الكلام على ذلك فى مواضع متعددة ، إذ هو أجل العلم الإلاهى [٦] وأشرفه . وإنما كان المقصود هنا التنبيه على أن الإرادة نوعان كالعلم ، والله أعلم .

---

(١) فى الأصل : تقاتلوا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل العبارة محرفة هكذا : وإن كان حال ذى مقاله فلابد من مقاليه فى ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : ويكون .

(٤) فى الأصل : وقد ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : بها .

(٦) فى الأصل : إذ هو احد العلم اللاهى ، وهو تحريف .



فهرس الأحاديث النبوية والقدسية والآثار



محتويات الكتاب

رقم الايداع ٨٥٦٣ / ٨٧
الرقم الدولي ٦-٣٤-٠٠-١٦٠٠-٩٧٧

طبع بدار المدينة المنورة للطبع والنشر
القاهرة ١١٤ ش مجلس الشعب ت ٣٩٠١٠٣٠